التبشير وقوى الاستنارة في مصر

د / عبد الرحمن جيرة

أستاذ مساعد بجامعة الملك خالد

بالمملكة العربية السعودية

الطبعة الثانية

الفهرس

µ

الحمد لله هدانا إلى الإسلام، وجعلنا من الداعين إليه، وحفظنا من الدعوة إلى سواه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ويصرفه أو يصرف عنه من يشاء .

اللهم اصرف وجهنا عن كل معبود إلا إليك .. وعن كل قبلة إلا قبلتك .. وعن كل دين إلا دينك .

اللهم صل على النبي الأمي ومن دعا بدعوته، وبشر ببشارته، وأنذر بنذارته إلى يوم الدين ! أما بعد ..

فمما لا جدال فيه أن الدين الذي جاء بها المسيح υ هو أحد الرسالات السماوية التي اتفقت على وحدانية الله.

فالوصايا العشر في التوراة تبدأ بهذه الكلمات :

(أنا الرب إلهك .. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي) تثنية ٥ : ٦، ٧

والإنجيل يقول (لأن الله واحد وليس آخر سواه) مر ١٢ : ٣٢

والقرآن الكريم يؤكد ذلك فيقول : [أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ] فصلت آية ٦

هذه هي أولى الوصايا في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، فماذا كان موقف أبناء آدم منها ؟ لقد اختلفوا . منهم من آمن ومنهم من كفر .

أما اليهود فقد استقر أمرهم على جعل الإله الواحد خاصاً بهم، فهم شعبه المختار، وهم أبناؤه وأحباؤه.

وأما النصارى فزعموا أن الإله ثلاثة (الآب - الابن - الروح القدس) وعلى عكس اتجاه اليهود آمنوا بعموم هذا الثالوث، وأنه ليس خاصاً بشعب دون آخر. بل إن الله (الثالوث) أحب العالم كله وذبح نفسه من أجل خلاص العالم كله.

وأما المسلمون فقد آمنوا بجميع الكتب السماوية، وآمنوا بما فيها من وحدانية إله العالمين، الذي لا رب للناس سواه.

وأتباع الديانات الثلاث كثيرون، وكل جماعة تحمل موقفها الخاص من الدعوة إلى دينها، فاليهود وكل من يتصفون بالعنصرية يرون سمة التدين خاصة بهم، ولا يلزمون أنفسهم بالدعوة إلى دينهم، فهم لا يحبون ولا يحبذون أن يدخل الأمميون في دينهم، فاليهودية هي جنسيتهم، ومن يفكر في الدخول فيها لا يجد الاحترام الذي يحظى به اليهودي الأصيل، ففضلهم على الناس كفضل الهندوسي على سائر أهل الهند. وكفضل رجال الكهنوت على عامة النصارى .

وأما النصارى فهم أكثر أمم الأرض دعوة إلى دينهم، حتى إنهم لا يرون حرجاً في إكراه الناس على ذلك، فهدفهم المعلن هو تحقيق الخلاص لجميع الناس، أكرهوا دولاً بكاملها على قبول هذا الخلاص، حتى أحرقوا من شكوا في نواياه، فخلصت بذلك الأندلس من حكم المسلمين وثقافتهم، وأصبحت بأكملها دولة نصرانية، بينما بقى النصارى في بلاد العرب إلى يومنا هذا يمارسون شعائرهم بكامل حريتهم.

وأما أمة الإسلام، فهي أمة وسط بين تفريط اليهود، وإفراط النصارى، بين تقصير اليهود وغلو النصارى، لم تحتكر الدين كما فعل اليهود، ولم تبالغ في الدعوة إليه وتكره الناس عليه كما فعل النصارى، مؤمنة بالمبدأ القرآني [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ] وبالأمر الإلهي [وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] الكهف آية (٢٩)

وقد أبدت المسيحية رغبتها في التحالف مع الوثنية من أجل نشر فكرة الخلاص، فقبلت وثنية قسطنطين وجعلته قديساً عن طيب خاطر، والثمن الذي ربحته أو خسرته من وراء ذلك أصبحت الإمبراطورية الرومانية مسيحية رسميا أو اسمياً، وغدا الدين الجديد يستحوذ على وسط أوربا وأطرافها، وبعد أن تفطن أحرار الفكر

في أوربا إلى سبب تخلفهم في الحياة المدنية والرقى الاجتماعي، وعرفوا أنه الدين ورجاله، خرجوا عليه ابتداء من عصر النهضة فالإصلاح ثم التنوير، حتى تخلوا عنه، وعادوا ليردوه من حيث أتى إلى بلاد الشرق في الوقت الذي تمسكوا بما في الإسلام من مبادئ الدعوة إلى العلم والمعرفة، لإصلاح شئون حياتهم. فسبقوا وسادوا، وانتفخ حزب إبليس، وسعى في الأرض فساداً .

والغريب أن المذاهب الدينية واللادينية تجمع على أن الإسلام هو العامل المشترك فيما بينها في معادلة العداوة، فتضمر له العداوة تارة، وتعلنها تارة، بينما يعتقد كل حزب أنه هو دون غيره صاحب الحق .. وينتصر لمذهبه على أساس أنه الدين الذي لا ريب فيه، لا يفكر أحد في احتمال أن يكون ما عليه غيره هو الصواب. كل من يرث نحلة يؤمن أن ما عداها باطل مهما حمل من أدلة وبراهين.

ويصور لنا الشاعر والفيلسوف محمد إقبال واقع أعداء الإسلام، اليمين منهم واليسار، الجنوب منهم والشمال، فقد اجتمع الأبالسة في برلمان واحد، والتفوا حول قائد واحد، ولم تتحد كلمتهم إلا على فكرة واحدة، العداء للإسلام إلى آخر حجر في مملكتهم. ترى من يكون قائد هذا الجمع المشئوم .؟

إنه إبليس الذي يخطط، ويدبر، والذي ينبه أعضاء برلمانه كلما غفلوا عن خطر الإسلام على مملكة الأبالسة، فَلْيَصِلِ الأبالسة ليلهم بنهارهم، من أجل المحافظة على هويتهم الفكرية، وذاتيتهم العقائدية، ولْيَصِلوا نهارهم بليلهم، من أجل تمزيق الجسد الإسلامي، وقطع الأوردة التي تربط أعضاءه بعضها ببعض.

وقد بلغ من دهاء هؤلاء الأبالسة في دقة التخطيط وإحكامه أن المسلم العادي، وربما غير العادي لا يشعر أنه يسحب بعيداً عن دين آبائه، وبعيداً عن ثقافة أجداده.. لا يشعر ولا يحس بقراصنة العقائد الذين يعملون على تغيير مجرى الإيمان من التوحيد إلى الشرك بالله، لا يشعر المسلم بذلك لأن الثياب التي يلبسها

هؤلاء تحجب صورتهم القبيحة، وتظهرهم في صورة تبعث على الاطمئنان والارتياح إليهم. ولهذا فإن معرفتنا للحق أو للباطل لا ينبغي أن تكون هي نهاية ما يجب أن نتعلمه، يجب أن نعرف وندرس أيضاً مناهج وخطط جنود إبليس أجمعين.

والواقع يؤكد أن المسلمين قد أضرتهم هذه المؤامرات وأبعدتهم عن دينهم، وكثيراً ما انهزم ضعفاء الثقافة منهم أمام المثقفين من حزب إبليس..

ونحن الآن ضعفاء في ميدان القوة التي كان يفترض أن ترهب أعداء الله، وتمنعهم من التطاول على الإسلام وشريعته. لكن .. لماذا لا نكون أكثر ثقافة إن لم نكن أكثر قوة .؟ لماذا لا نكون أقوى معرفة إن لم نكن أكثر مالاً ..؟

لماذا لا نكون أكثر ثقافة وقوة ومالاً .؟

إن أعداء الإسلام وإن كانوا أفقر إيماناً إلا أن شعورهم بقوتهم، وشعور المسلمين بضعفهم، ألقى بظلاله على قضية الصراع بين الحق والباطل، لم نتعالى على خلق الله يوم أن كنا في قمة الحضارة وكانت أوربا تعيش أسوأ عصورها، ولكن إبليس الذي افتخر بأصل مادته، لا يفوته أن ينسب المنجزات التكنولوجية إلى دعوة بولس وإلى الثالوث المقدس. ويتساءل في كبر وغرور : هذا ما قدمته النصرانية للإنسان، فماذا قدم الإسلام ؟

وأما الصفحات البيضاء في تاريخ الإسلام فإنه يلونه باللون القاتم، ولا يذكر ما فيها من أعمال حضارية غير الحروب والفتن، مصوراً الخلفاء بأنهم لم يكونوا سوى طلاب دنيا، عاشوا في الشرق الذي ألف أهله الاستبداد، فكيف نقارن بين من ينعم في ظل منجزات النصرانية، وبين من يعيش في بؤس واضمحلال ؟

وقراءة الواقع تقول : إن هذه المعادلة المادية قد أثرت علينا، وصار كثيرون من أهل الشرق يفضلون حزب إبليس، فانسلخوا من هويتهم العقائدية، وتنكروا للماضي والحاضر معاً، وراحوا يتطلعون إلى مستقبل مشرق في ظل ثقافة عالمية متجانسة..

وسموا أنفسهم بـــ (المستنيرين)

ورغم أن هذه التسمية تسبب الكثير من الحرج لشعور مواطنيهم ممن لم يمنحهم القدر فرصة التعلم في مدارس الإرساليات، في الداخل أو في الخارج، إلا أنهم لا يكفون عن ترديدها، والتعالي بها، فإذا حدثت أحدهم عن أبي حامد الغزالي حدثك هو عن سارتر، وإذا كلمته في الدين فأنت عدو للدولة المدنية.

ولهذا لست أوجه حديثي إلى هؤلاء المستنيرين، لأن غرورهم الفكري يجعلهم أكبر من أن يتدبروا، وأعظم من أن يلتفتوا إلى غير سادتهم المستشرقين، وكيف يتدبرون، وهم في أعلى قائمة المفكرين، وإنسان كـــ (أنا) خارجها، ولو كانوا من أولى التدبر لتدبروا القرآن الكريم، وإذا لحلت عليهم بركاته، ولعلموا أنه الحق الذي لا ريب فيه، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وقد ركزت حديثي على ثلاثة من هؤلاء المستنيرين في القرن العشرين، وهم على التوالي : الشيخ على عبد الرازق، والدكتور طه حسين، والدكتور محمد أحمد خلف الله، والأخير ردت عليه تفصيلاً في دعواه بشرية القصص القرآني. لأني رأيته قد أتى بهذا الرأي في رسالة جامعية، وأن الرد عليه يكفى في الرد على دعوى مشابهة لطه حسين.

وإذا كانت المكتبة العربية مملوءة بالكتب التي تكشف النقاب عن هؤلاء المستغربين وأهدافهم الحقيقية .؟ فإننا يجب أن نذكر ونحذر حتى يظل المسلمون متمسكين بما هم عليه، فلا يغتروا بتقلب حزب الشيطان في البلاد، وليصموا آذانهم عن سماع نداءات أعوان إبليس. الذين باتوا يسيطرون على وسائل الإعلام والتعليم والثقافة، وهى وسائل بالغة الخطورة في تخدير عقول الأمم والأفراد.

ومن ناحية أخرى لا يصح فرض الماضي حاضراً، فكيف نتحدث عن التبشير أو عن الغزو الثقافي في عصر الخديوي إسماعيل مثلاً، وننسى أن نشير – نشير فقط

- إلى مظاهره بيننا في هذه الأيام، فلا بد من ملاحقة خططه ودسائسه، وخاصة بعد أن ظهرت مجالات عمل جديدة للمبشرين مثل شبكة المعلومات (الانترنت) والإرسال المفتوح الذي أصبح بفضل اهتمام المسئولين وغير المسئولين وسيلة بالغة الخطورة في تخدير عقول الشباب، والقضاء على عنصر القوة فيهم، بغرس عنصر اللذة والشهوة والسلبية واللامبالاة .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى العقيدة الصحيحة، والعمل النافع، والخلق القويم، وأن يرزقنا إتباع الحق واجتناب الباطل ..

اللهم أني كفرت بأنك ثلاثة، وأمنت بأنك أنت الإله الواحد الأحد، لا شريك لك ولا ولد، ولم يكن لك كفواً أحداً ..

اللهم لا تجعلني أخط عبارة بيميني تشهد على إلى يوم القيامة بأنني نافقت أحداً من خلقك، أو ابتغيت رضا أحد غيرك ..

لك الحمد في الأولى والآخرة .. وأنت على كل شيء قدير @

دكتور / عبد الرحمن جيرة

الفصل الأول

التبشير وعلاقته بالاستشراق والاستعمار

تبشير أم تنصير ؟ كلمتان هدفهما واحد، الأولى يحلو للنصارى أن يتسموا بها، والثانية نفضل إطلاقها على الداعين إلى النصرانية.

التبشير من الفعل (بشر) وهو من البُشرى وبابه نصر ودخل، وبَشَّرَه تبشيراً، والاسم البشارة بكسر الباء وضمها .[1] الخبر السار .

والتنصير من (نصَّرَه تنصيراً) جعله نصرانياً، وفى الحديث الشريف : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» فلم يقل أو يمسلمانه، لأن الإسلام هو دين الفطرة التي يولد عليها الناس أجمعون.

وبعد أن كانت عملية تبشير أو تنصير المسلمين في بادئ الأمر تعتمد على رغبة أهل التقى من النصارى، وعلى نهج ارتجالي دعت الحاجة إلى تأسيس مدارس، ووضع مناهج، من أجل الوصول إلى الأسلوب الأمثل في محاربة العقيدة الإسلامية أولاً، وغرس العقيدة النصرانية ثانياً.

ونظراً لاختلاف بلاد الشرق من عصر إلى عصر، واختلاف طرق التبشير من جيل إلى جيل، فإن إعداد المبشرين يختلف بين زمن وآخر، وبين قطر وآخر، فمناهج إعداد المبشرين في القرن التاسع عشر تختلف عن المناهج التي يجب أن يدرسها مبشرو القرن العشرين، ولهذا يعدل المبشرون خططهم ومناهجهم من وقت لآخر، بل ربما سلموا الراية إلى أناس ينتسبون إلى الإسلام، ونفخوا فيهم بوسائل

---

[1] - مختار الصحاح مادة (بشر)

الإعلام المختلفة ليهزوا ثقة المسلمين بدينهم. كخطوة سابقة للتنصير الصريح.

والفرق بين التبشير والتنصير، أن التبشير يقوم على الدعاية والإغراء، أما التنصير فيعتمد على القوة والإكراه بشتى صور الإكراه. ويمكننا أن نقول: إنه لا تبشير دون استشراق، ولا تنصير دون استعمار.

وهذه الأمور الأربعة تهدف إلى السيطرة على المسلمين وإذلالهم حتى لا تقوم دولتهم من جديد وفقاً لقانون الاجتماع، الذي يقضي بأن الدول تمر بمراحل، وأنه كلما وصلت دولة إلى مرحلة الشيخوخة عادت لتبعث من جديد دولة شابة فتية، فيتمنون أن يظلوا هم شباباً وأن نستمر نحن شيوخاً. هم فوق الأرض، ونحن تحتها، أن يظلوا هم أحياءً، وأن نظل نحن أمواتاً أو يطول نومنا إلى يوم التناد !

وعلى هذا ينبغي أن نفرق بين نظرتنا نحن ونظرة الغرب نحو (التبشير)، فالتبشير في الغرب هو كيفية إعداد المبشرين، حيث يدرس الذين يودون العمل في الدعاية للنصرانية مناهج خاصة لمعرفة نفسية الشرق، وكيفية عرض بعض التعاليم النصرانية على طوائف المسلمين وأهل الديانات الأخرى.

والتبشير في نظرتنا إليه بهذا المفهوم مذموم، وعندما ندرس أساليبه ووسائله وبواعثه، إنما نفعل ذلك لِنَحْذَر ولِنُحَذِّر من خداع القائمين عليه.

هذه النظرة الخاصة بنا تجاه التبشير تساوى نظرة النصارى إلى الدعوة الإسلامية مع ملاحظة الفرق بين الاسمين، إذ ليس في لغتنا ولا في ثقافتنا كلمة (تمسليم) بينما هناك كلمات من نحو : تنصير .. تبشير .. تعميد..

فالإسلام لا يرضى ولا يقر باستخدام الوسائل الممقوتة مثل الإكراه واستغلال حاجة الناس إلى الإحسان ولو كانت الغاية نبيلة، بينما يبيح المبشرون في سبيل تحقيق أهدافهم الإكراه، ولا يزالون يشكرون (الرب يسوع) لأن أسبانيا التي كانت دولة إسلامية، أصبحت وقد خلت من الموحدين ببركة (يسوع) وجهود رهبان

التفتيش المخلصين، الذين فتشوا الضمائر ونزعوا من داخلها عقيدة التوحيد. وزرعوا عقيدة التثليث، فتوالت أجيال لا تعرف غير النصرانية ديناً .

وثمة فرق آخر بين دعوة المسلمين إلى دينهم وتبشير النصارى يظهر في أن الدعوة إلى الإسلام ليست قاصرة على التبشير أو البشارة، وإنما تجمع بين البشارة والإنذار، والترغيب والترهيب، وكأن النصارى الذين زادوا في عدد الآلهة، أبوا إلا أن يأخذوا بجانب واحد، فلم يستعملوا أسلوب التخويف أو الإنذار، فأصبحت دعوتهم فضفاضة، لا تعرف الحسم ولا العدل .

ورغم ذلك لم يلتزموا بهذا الخط فأكرهوا الناس على قبول البشارة التي أعلنوها، والخلاص الذي قدموه، فاعتنق الناس دينهم مكرهين في أغلب العصور. يشهد بهذا التاريخ والجغرافيا.

- **أعداء متفاهمون**

وتلك رابطة من الأعداء بعدد أقانيم الثالوث المقدس، اتحدت وتعاونت على هدف واحد، ونهجت أساليب متناسقة يكمل بعضها بعضاً من أجل تحقيق هذا الهدف، هذا الهدف قد يعلن في العديد من كتبهم أو مؤتمراتهم، ولكننا لا نصدق، ونهز أكتافنا متعجبين ثم ننصرف دون أن نبحث عن أساليب المقاومة.

ومن علماء المسلمين من إذا سمع عن مؤتمر من مؤتمرات المبشرين والمبشرات، يقول إن الإسلام العظيم لا يمكن أن تهزه مثل هذه الترهات. والواقع يقول : إن دولة الإسلام قد أصيبت بالعديد من الكدمات القاتلة، فألغيت الخلافة الإسلامية، واستبعدت الشريعة الإسلامية عن القضاء والحكم، وحرفت العديد من المفاهيم الإسلامية الصحيحة.

وكان السبب وراء هذه النكبات الشركاء الثلاثة، التبشير والاستشراق والاستعمار. بينما عملت قوى الاستنارة على دحض روح المقاومة، وبث نفوذ الاستسلام لما

خططه وأراده الشركاء الثلاثة !

أ. التبشير .

عندما يقدم داعية على فكرة معينة، لابد أن يكون مدفوعاً بدوافع تمتلك عليه كيانه وتصرفاته، ولهذا فإن المبشرين النصارى ينبغي أن يكونوا على يقين بهذه الفكرة التي يدعون إليها، ولكنك إذا نظرت إلى حالهم، فستجد أكثرهم لا يعرفون ذلك، وإنما هم مسخرون لأغراض خاصة بالسياسة، أو بالاستعمار .

وإذا كان ثمة نفر قليلون منهم جاءوا إلى الشرق للتبشير فحسب، وهم مقتنعون بالناحية الدينية، فإنهم في الدرجة الأولى قليلون، ومخطئون لأنهم لم يأتوا إلينا بقيمة روحية أو اجتماعية أسمى مما عندنا، ولا مثلها، ثم إنهم قد وضعوا أنفسهم في أيدي رجال الاستعمار السياسي والاقتصادي يستخدمونهم كيف شاءوا، وعلى غير علم منهم في بعض الأحيان.

(إن منهم من يحب المغامرات، ومنهم من يطمح إلى السيطرة الشخصية على من حوله، ومنهم من يحب فرض رأيه على الآخرين، فإذا لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك في بلاده، ولم يملك أن يفعله باسمه هو في خارج بلاده، خرج إلى العالم تحت ستار التبشير ليشبع أطماعه الشخصية، وكثيراً ما كشفت الجمعيات التبشيرية عن أطماع المبشرين الشخصية، واكتشفت بينهم المكره، أو الذين أحبوا أن يستغلوا الجمعيات التبشيرية ليسافروا في العالم على حسابها، وهم بالحقيقة تجار أو رجال دعوة اجتماعية أو اقتصادية)[١]

وبواعث التبشير الحقيقية تختلف عن بواعث الدعوة الإسلامية، فالخطيب أو الواعظ الإسلامي يقوم بدوره استجابة للآيات الكثيرة والأحاديث الوفيرة التي تدعوه إلى القيام بهذا الأمر. فيرشدنا القرآن الكريم إلى أن أحسن ما يقوم به المرء في

[١] – التبشير والاستعمار مصطفى الخالدي وعمر فروخ صـ ٣٥ ط / ثانية

حياته من عمل إنما هو الدعوة إلى الله تعالى: [وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ]

ويرسم القرآن الكريم منهجاً واضحاً للدعاة، يتمثل في الدعوة باللين بأساليب شتى [ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ]

ولا يوجد في الكتاب المقدس منهجاً واضحاً في التبشير مثل هذا الوضوح، ولهذا يعتمد المبشرون على أنفسهم في وضع الخطط والمناهج، ثم عليهم عقد المؤتمرات ومناقشة المشاكل التي تنجم عن عدم إحكام هذه الخطط بعد ذلك.

أما نشر الدعوة الإسلامية، فهو في غاية البساطة حيث يكفى المسلم أن يقوم بقراءة القرآن الكريم، وعمل ما يكلفه به ربه من واجبات شرعية ومن بينها الدعوة إلى دينه، إن الأمر بالدعوة يأتيه من الله مباشرة، بينما جمعيات التبشير، تترقب أوامر الاستعمار، وتشجيع الساسة. ورغبة المستشرقين، والرغبة الذاتية في السفر والسياحة في عباءة التبشير.

والنص الذي يتحدث عن تكليف الحواريين بالتبشير في آخر إنجيل متى به الكثير من الغموض، والإيمان به يترتب على الإيمان بقيامة المصلوب، وهو أمر لم يسلم به كثيرون من المفكرين في الغرب. يقول متى (وأما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الليل، إلى الجبل حيث أمرهم يسوع، ولما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا، فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً : دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر)

هذا النص لا يصح جعله أساساً للمبشرين ينطلقون منه، ذلك لأن الحواريين كانوا قد شكوا – وحق لهم أن يشكوا- في المسيح، لأنه ظهر لهم بعد أن ودعهم إلى

العالم الآخر، ثم إن المصلوب – إن كان هو المسيح – قد أمرهم أن يعلموا وأن يحفظوا جميع ما أوصاهم به، وأول وصاياه لهم – إن كانوا سيعملون بمقتضاها – هي (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد)

والواقع أن أمر (التوحيد والتثليث) غير واضح في أذهان المبشرين، بدليل أنهم في أثناء عملهم التبشيري لا يذكرون (ابن الله) ولا كلمة (التثليث)، ولا (الأسرار الكنسية) وكلها مخالفة للعقل والمنطق السديد، يقول أحد الكتب المتخصصة في تعليم طرق العمل التبشيري : (لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون في الدرجة الأولى بأننا نحبهم، فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم .. يجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغي إليها، وعليه مثلاً أن يتحاشى أن يقول عن المسيح (ابن الله) حتى لا ينفر منه أولئك الذين لا يؤمنون هذا الإيمان، فيستطيع أن يقاربهم حينئذ بما يريد أن يدعوهم إليه)

ويقول مبشر آخر : يجب أن يظلوا (أي المبشرون) برءاء كالحمام، ولكن هذا لا يمنعهم أيضاً من أن يكونوا حكماء كالحيات)[١] .

ومن هنا نرى بوضوح أن المبشرين ينصحون لأنفسهم بالتلون في سبيل الوصول إلى قلوب بعض الناس، وأن يتحاشوا القول عن المسيح (ابن الله) حتى لا ينفر أولئك الذين لا يؤمنون هذا الإيمان.

ومع أن التبشير يتناول البوذيين والهندوس إلا أن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون، وإن كان الهدف من أعمال التبشير في رأى القائمين عليه هو القضاء على جميع الأديان عدا النصرانية.

– كيف بدأ التبشير المنظم .؟

---

[١] – التبشير والاستعمار صـــ ٥٢

المعروف أن الفتوحات الإسلامية قد أحبطت نشاط المبشرين فترة، بل وأنقصت عدد النصارى، بسبب الكثرة التي تحولت منهم إلى الإسلام، ولهذا الانتصار ظل المسيحيون يحملون للإسلام أحقاداً لم يمحها تطاول الأيام وجاءت أجيال لا تعرف ما عانى أسلافهم من ظلم، ولا دور الإسلام في كف الظلم عنهم، وظلوا لا يذكرون سوى استيلاء المسلمين على الأراضي المقدسة، وإعلانهم أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، وأن ولادته من غير أب لا تجعله إلهاً ولا ابن إله، فكان على المبشرين أن يحتشدوا لصد الإسلام، ويعدوا مالاً يحتشدون به.[١]

وقد فكروا في أول الأمر في إدخال المسلمين إلى النصرانية عن طريق القوة، ولكن عندما تجلت تفاهة نتائج الحروب الصليبية وأصبح واضحاً أن العالم المسيحي لا يستطيع عسكرياً أن يقف على قدميه ضد الإسلام بحثوا عن طريق آخر، ولم يكن هذا الطريق سوى التبشير .

ويجب أن لا ننسى الدور الذي لعبه (بطرس الناسك) أشهر الدعاة إلى الحروب الصليبية، فقد طاف أنحاء فرنسا وألمانيا وهو حافي القدمين في ثياب خشنة وممتطياً حماراً وحاملاً صليباً.[٢] يدعو النصارى إلى محاربة المسلمين، ومن هنا نشطت الدعاية المألوفة في الحروب الصليبية، فأخذت تؤكد الاضطهاد الذي يلقاه المسيحيون في فلسطين والأكاذيب عما في العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال، فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالاً للنبي محمد، وأن النبي محمد قد أصابته نوبة صرع التهمته في أثنائها الخنازير إلى غير ذلك من الأكاذيب[٣] .

وقد أدت حماسة بطرس الناسك إلى القيام بحملة صليبية أبيدت في الطريق، ثم تعدت الحملات التي يخطئها العد أحياناً، ووصلت الحماقة والجهل ببعض هذه

---

[١] – معركة التبشير والإسلام د/ عبد الجليل شلبى صـــ ١٣ ، ١٤. ط / مؤسسة الخليج العربي

[٢] – معالم تاريخ الإنسانية هـــ . ج . ولز جـــ٣ صـــ٨٨١ .

[٣] – قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة زكى نجيب محمود وآخرين جـــ١٥ صـــ ١٨ ، ١٩ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الحملات أن تتألف من الأطفال، لأن المسيح قد ظهر لبعضهم وبشره بأن فتح بيت المقدس سيكون على يديه.

وفى الوقت الذي كان فيه النصارى السذج يعلنون أن هؤلاء الأطفال سيحققون المعجزات، وأن البحر سينشق لهم كان هؤلاء الأطفال يموتون بالألوف في الطريق ويباعون في سوق الرقيق.[1].

وقد أثبتت الحروب الصليبية أن المسلمين أعظم خلقاً وأكثر شهامة وتسامحاً وأثبتت أيضاً أن الحضارة الإسلامية أرقى من النصرانية. ومن ثم تجلت تفاهة نتائج هذه الحروب بعد أن تخلى الصليبيون عن الأراضي المقدسة ١١٧٨م، وأصبح واضحاً أن العالم المسيحي لا يستطيع عسكرياً أن يقف على قدميه ضد الإسلام، ومن هنا كان لا بد من البحث عن طريق آخر غير الحرب للقضاء على العقيدة الإسلامية. وتمخض فكر القديس لويس التاسع، وهو ممن شاركوا في هذه الحروب عن خطة يقرر فيها : أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين إلا بعد تحريف مفهوم (الجهاد) عندهم، وهذا لن يكون إلا بدراسة تراثهم، والتركيز على الفكر الإسلامي وتحويله من منطلقاته وأهدافه حتى يمكن تزييف مفهوم (الجهاد) فتسهل السيطرة عليهم.

وقد كانت فكرة القديس لويس بداية لظهور التبشير المنظم، وأصبح من سمات المرحلة الجديدة اعتماد اللين كوسيلة من وسائل التنصير، وإن كان التنصير بالقوة لم يتوقف في المناطق التي وقعت غنيمة للنصارى كالأندلس. أو البلاد التي كانت تابعة للخلافة العثمانية في أوربا الشرقية بعد ذلك.

وبينما كان القديس لويس يسعى لتطبيق خطته ظن بعض مرضى العقول أنهم باستطاعتهم أن يحولوا المسلمين إلى المسيحية بطرق اللين والسلم، دون أن يهاجموا

---

[1] - السابق جـ١٥ صـ٥٤ ، ٥٥ ، وتاريخ الإنسانية أحمد حسين صـ١٧٤ ، ١٧٥

الإسلام، ودون أن يهاجموا بعض تعاليمه كـ (الجهاد) بل فقط بإظهار الحب، والدعوة إلى قبول الخلاص والمخلص. فقام فرنسيس الإسيزى ١٢١٩ وقسم العالم الإسلامي بين تلامذته، وخص نفسه بسوريا والبلاد المقدسة، وربما يكون هذا هو الذي جعل الفرنسيسكان أوائل الأوربيين الذين حصلوا على معلومات حقيقة ودقيقة عن البلاد والشعوب والإسلامية.

وعلى الجناح الآخر قام ريموند لول[١] يحاول إدخال المسلمين في النصرانية، ولكن غموض الدين النصراني نفسه جعل طموحات (لـــول) حلماً مستحيل التحقيق (ولقد استطاع ريموند لول في عام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل على إذن من الملك يعقوب صاحب أرغونة ليبشر في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا)[٢]

والفرق بين الدور الذي لعبه فرنسيس الإسيزى، والدور الذي لعبه ريموند لول، أنه إذا اعتبر الإسيزى مبشراً، فإنه يجوز – رغم صعوبة التفرقة بين الأمرين في التفاصيل – اعتبار لول منصراً، لأن التلويح بالقوة كان مصاحباً لسعيه، ومن أبى أن يستمع لنصائحه باعتناق النصرانية، اعتنقها هو أو أبناؤه بعد ذلك قهراً !!

وهكذا عندما خابت آمال أوربا في الحروب الصليبية، أرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير، فاستخدموا لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات، وفرقوا المبشرين في أنحاء العالم الإسلامي.

وليس من شك في أن جهود القديس لويس وما قام به فرنسيس الإسيزي وريموند لول تعتبر الأساس الذي انطلقت منه أوربا ساعية نحو معرفة الفكر الإسلامي

---

[١] – ريموند لول كان يتصف بما يتصف به بعض مرضى العقول من سخافة ودعة فيأمل أن يرد المسلمين عن دينهم ، وطبعاً رحبت الكنيسة بهذه الثقة ، درس لول العربية وأنشأ كلية للدراسات العربية في ميورقة ، وطلب إلى مجلس فينا أن ينشأ مدارس للغات الشرقية تعد النـــاس للتبشير بين المسلمين ، واستجاب المجلس لرغبته وأخيراً قتل في بجاية عام ١٣١٥م

[٢] – التبشير والاستعمار صـــ ١١٥

معرفة دقيقة، وكان غرض الأول تحريف مفهوم الجهاد حتى يفقد المسلمون نزعة المقاومة عندما تتجه النية لاستعمارهم، وغرض الآخرين إقناع المسلمين بعقيدة التثليث كبديل عن عقيدة التوحيد التي يؤمنون بها .

وعلى هذا فإذا كانت الحروب الصليبية قد أخفقت في تحقيق أغراضها المباشرة والتي قامت من أجلها أصلاً، إلا أنها وضعت الغرب لأول مرة في اتصال وثيق بأرض وشعوب الإسلام، وكان من نتائج هذا الاتصال من يوم لآخر أن عرف كل فريق الأخر معرفة وثيقة، وقد سعى الجانب الغربي لزيادة هذه المعرفة لأغراض تبشيرية وعسكرية، ولأغراض نفسية ترجع إلى بغض المسلمين وحب الاستطلاع. وبعد الحروب الصليبية بنحو ثلاثة قرون حدث تحول خطير لصالح التبشير بقيام حركة الإصلاح الكنسي، وإذا سألنا عن الهدف الذي من أجله جاء الإصلاح ؟

جاءنا الجواب : إن الهدف الأساسي هو محاولة حماية الكنيسة من الدعوة الإسلامية. فمارتن لوثر كان مسيحياً متعصباً لمسيحيته، لم يقصد هدم الكنيسة، ولا الخروج على سلطان البابا، ولكن اندفاع البابا إلى طرد لوثر من حظيرة الكنيسة هو الذي أدى بأحداث الإصلاح أن تتخذ هذا النهج وأن تصل إلى هذا الحد، ولولا ذلك ربما مات لوثر في أحضان الكنيسة الكاثوليكية، وظلت الكنيسة الغربية أماً واحدة لكل المسيحيين في الغرب.

على أن البروتستانت لم يكتفوا بمحاربة الدعوة الإسلامية فكرياً فانضموا إلى البابا الذي خرجوا على سلطانه والإمبراطور الذي حاربهم من قبل ليحاربوها عسكرياً، وتناسوا الخلافات القائمة فيما بينهم، لأن الإسلام هو العدو المشترك لجميع الطوائف المسيحية. لو كان المسلمون يعلمون .؟

وحفاظاً على وحدة الكنيسة حاول المصلحون إقناع المنشقين عليهم من الموحدين واللامعمدانيين بطرح فكرة تقوم على الادعاء بأن النصرانية هي أيضاً دين توحيد،

ولكنها ليست أحدية مطلقة كما في الإسلام بل أحدية في تثليث وتثليث في أحدية. وقد أراد لوثر أن يترجم القرآن الكريم، ولكن ليس إلا للتهجم عليه، ويخيل إلينا أن لوثر وزعماء الإصلاح الكنسي، وهم بالفعل كذلك أقاموا حاجزاً صدوا به موجة التأثير الإسلامي، وأنهم كانوا سعداء بنجاحهم في وقف حركات الميل إلى الإسلام بقدر أسفهم على خروجهم على الكنيسة الكاثوليكية، فلم تكن تلك إحدى أمانيهم في يوم الأيام.

وبداية من هنا سيبدأ الإصلاح ينقسم إلى جناحين يساعد كل منهما الأخر، سينفصل الاستشراق عن التبشير، ليصبح الأول المعمل الذي يمد الثاني بالشبهات التي يروجها حول الإسلام في المجتمعات الإسلامية.

ولكي يستمر الاستشراق كان لا بد من إصلاح الكنيسة، وفهم الكتاب المقدس بجانب من العقلانية. ولكي يستمر التبشير في عمله لا بد من وجود جماعات من المستشرقين، وكانوا في البداية رموزاً ساهمت في الإصلاح، وفي النهاية رواسب تركها الإصلاح.

وعندما جاء عصر التنوير (القرن الثامن عشر) بدأ الاتجاه إلى مهادنة الإسلام وظهر ذلك في القصة التي كتبها ليسنج ت ١٧٨١ م بعنوان (ناتان الحكيم) والتي عرض فيها لثلاث خواتم متماثلة، تمثل الديانات الثلاث، اليهودية والنصرانية والإسلام، وقال إنه يوجد بينهم خاتماً من الذهب والاثنان الباقيان غير ذلك، وإنه لا أحد يعرف الذهب الأصيل، وقد صور في هذه القصة صلاح الدين الأيوبي الحاكم المسلم على أنه مثال للحاكم الحكيم (١)

ويستمر موقف الغرب متردداً بين إظهار العداوة تارة والاتجاه إلى المهادنة تارة أخرى، وفي فترات المهادنة تحاك المؤامرات والدسائس التي تهدف إلى القضاء

١- التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام د / السيد محمد الشاهد صـ ٢٨ ط / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع أولى ١٩٩٤م

على الإسلام والمسلمين .

ب. الاستشراق .

يربط الغزو الفكري بين التبشير والاستشراق، فهو ينطلق من خطط وأفكار المستشرقين، محاولاً الانتهاء إلى ما يهدف إليه التبشير، وإذا كان الاستشراق يعمل في الدراسات الإسلامية، فإن ميدان عمل التبشير هو الهجوم على العقيدة الإسلامية لزعزعتها في عقل المؤمنين بها في الشرق.

ونحن في نظر المستشرقين موضوع الدراسة، ونحن في نظر المبشرين الهدف من الدراسة.

وقد ينقلب بعض المستشرقين إلى مبشرين، وقد ينقلب بعض المبشرين إلى مستشرقين .[١]

ولم يكن الاستشراق وهو يخطو إلى عالمنا لأول مرة إلا دعوة صريحة للسيطرة العسكرية علينا، فكان المستشرقون طليعة الجيش الغازي، يمهدون له الطريق، ويفرشون له العقول، ويجمعون له ما أمكنهم من الأنصار والأعوان، فهناك مستشرق ينصره بقلمه الذي يتبنى الغرب علماً وفكراً، وهنا مستنير ينصره بتخذيل أمته أو تولية بصرها بعيداً عن حقيقة ما يجرى على الساحة.

هكذا كان المستشرقون في أول لقاء مع الفكر الإسلامي، كانوا مبشرين غايتهم أن تهتز الطاقة العقائدية في المجتمع المسلم بعد أن يئسوا من تحويله عن الإسلام بالقوة.

وكانوا أيضاً كتاباً ومؤرخين مهمتهم أن يصوغوا التاريخ والحياة لدى المسلمين

---

[١] – أمثال لويس ماسينيون الذي انصرف في عهده الأخير عن العلم إلى التبشير ، لأن التبشير وسيلة استعباد الذين يبدلون دينهم على يـــد المبشرين. وربما أغرت الدراسة في الإسلام بعض اللاهوتيين والمبشرين فتحولوا إلى حقل استشراقي بحت ، كما فعل وليم بوستيل (١٥١٠ – ١٥٨١ م وتلميذه اسكا ليجر ١٥٤٠ –١٦٠٩م . د / عبد الجليل شلبى / معركة التبشير والإسلام صـــ ٢٨١

على نحو يبتعد بهم عن حقيقة الإسلام، فكتبوا تاريخاً لفقوا رواياته واعتمدوا الضعيف من مصادره، واستندوا على رجال جرحهم واقعهم قبل أن يرفضهم مؤرخو الإسلام .[١]

ومن الجهل أن نعتقد أن كل كتاب التاريخ بعيدين عن التعصب، فإن رجال السياسة ودعاة التبشير كانت لهم أهدافهم المسبقة، وغاياتهم المحددة من النظر في التاريخ الإسلامي، ولم تكن أهدافهم علمية ولا كانت غايتهم نزيهة، فجاءت كتاباتهم عارية من الحقيقة التاريخية المرجوة .

أما دعاة التبشير فكانوا أحفاد أولئك الغربيين الأول الذين تناولوا التاريخ الإسلامي بروح مفعمة بالتعصب الأعمى والكراهية الشديدة للزحف الإسلامي المنتصر، ولم يكن الأب اليسوعى (لامانس) في دراساته الحديثة عن الرسول وتاريخ الإسلام إلا جماع هذه الخصائص السلبية التي سرت في عروق هؤلاء المؤرخين.[٢]

ويرى الدكتور / محمود زقزوق أنه لم يكن من السهل في بداية الأمر فصل الاستشراق عن التنصير، أو الدافع الديني بصفة عامة، فإذا كان الاستشراق لا يقوم إلا على أساس معرفة اللغات الشرقية التي هي الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق، فإن التنصير يتفق مع الاستشراق في هذا الصدد، ويحتم أيضاً معرفة من يراد تنصيرهم، وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التنصير في القرن الثالث عشر بضرورة تعلم لغات المسلمين، إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح.[٣]

والمتفق عليه أن التبشير لا يستغني مطلقاً عن الاستشراق، فحتى الميادين التي هي بعيدة عن طبيعة الاستشراق، كالإحسان والإعلام وطرق ووسائل التبشير،

---

[١] – د / محمد كمال إمام / هموم المثقفين صـــ ٤٩ دار الهداية.

[٢] – السابق صـــ ٥٥

[٣] – الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د / محمود زقزوق صـــ ٣٥ ، ٣٦ ط/ دار المنار ١٩٨٩م

يناقش المبشرون القضايا المتعلقة بها، ويرجعون فيها إلى بحوث المستشرقين .

كما يناقشون قضايا الغزو الثقافي، بهدف دعمها ومتابعة ما تحقق منها. ومثل هذه المناقشات لا يمكن أن تتم إلا في صورة من صور العمل الاستشراقي .

ج. الاستعمار

نتساءل : عن سر ترجمة معنى (الاحتلال) المذموم إلى هذا المعنى الجميل الأخاذ، وجعله ضمن اصطلاحات المناهج الدراسية بصورة عجزنا عن تغييرها حتى يومنا هذا .؟ وإذا كنا نطلق على الذين قاموا باحتلال أرضنا قبل ذلك بخمسة قرون اسم الصليبيين، فما الجديد في أمر الغزاة المحدثين .؟ وأي داعٍ إلى تغيير هذا الاسم.؟ هل تخلوا عن الصليب أم عادوا إلينا بوجه وفكر جديدين ؟.

ومع عجزنا عن تحويل كلمة (استعمار) إلى معناها الحقيقي (استخراب) إلا أنها قد تحولت بعيداً عن قدرتنا وعن إرادتنا وإرادة أعدائنا إلى معنى خبيث في أذهان الخاصة والعامة من الشرقيين، فعندما يسمعون هذه الكلمة يشمئزون من وقعها على آذانهم. مع أن أصل الكلمة في لغتهم لا يوحي بذلك.

فالاستعمار طلب العمارة [1] وكأن بلادنا كانت خراباً وجاء رعاة الخنازير ليصلحوها ويعمروها بالحياة والنماء، مع أن الدول المستعمَرة (اسم مفعول) ساهمت في نهضة دول الاستخراب بالقدر الذي ساهمت فيه الأخيرة في إضعافها.

والغريب أن عدداً من الأفارقة قد خدموا في صفوف الجنود الاستعماريين في زهو، لأنهم كانوا يأملون أن يكون الجيش مدخلاً لإظهار شجاعتهم وشرفهم، كما أملوا أن تتحقق حرية القارة عن طريق جعل الأوربيين يشعرون بالرضا والامتنان،

---

[1] – قال القاضي أبو بكر : تأتى كلمة استفعل في لسان العرب على معان ، منها : استفعل بمعنى طلب الفعل ، كقوله استحملته أي طلبت منه حملاناً ، وبمعنى اعتقد كقولهم استسهلت هذا الأمر أي اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً ، واستعظمته أي اعتقدته عظيماً ، وقوله : (استعمركم فيها) خلقكم لعمارتها لا على معنى استجدته واستسهلته) تفسير القرطبي جـ ٥ صـ ٣٢٨٤ ، ٣٢٨٥ ط / الريان.

وكان ذلك الأمل من دون أساس منذ البدء، لأن الاستعماريين كانوا يستخدمون الجنود الأفارقة بشكل شرير كمخالب للإبقاء على الاستعمار والرأسمالية بوجه عام.[١] وقد وجدت هذه الدول الأوربية سنداً دينياً لسياساتها الاستعمارية، فالإنجيل يقول (لأن كل من له يعطى فيزداد، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه)[٢]

وهناك أسباب تجعل المستعمرين يترددون في استخدام القوة، منها قوة الإيمان التي يتصف بها المسلمون، وقد أدرك النصارى منذ زمن الحروب الصليبية قيمة الإيمان عندما ضرب المسلمون بقيادة صلاح الدين أروع الأمثال في سبيل تحقيق النصر .

وفى العصر الحديث يكفى إدراكاً لقيمة الإيمان الثورات التي تواصلت ضد المستعمر الفرنسي في الجزائر، مع أن الفرنسيين كانوا أكثر عدداً، وأقوى سلاحاً، وأوفر مالاً وعلماً .. ولكنهم كانوا أقل إيماناً، فلم تستطع قوى المال والعلم والبطش أن تقضى على الإيمان، ولا على القلة التي تحمل الإيمان بين جوانبها، فاستمرت الجزائر تقاوم ١٣٠ عاماً، ولم يخرج فرنسا إلا الدين الذي يعتنقه الجزائريون.

ولأجل محاربة الروح الإيمانية في قلوب المسلمين كانت البعثات التبشيرية جزءاً من قوى الاستعمار مثلها في ذلك مثل المكتشفين والتجار والجنود، وربما يكون هناك مجالاً للمجادلة حول ما إذا كانت البعثات التبشيرية في مستعمرة ما هي التي جلبت قوى الاستعمار الأخرى أو أن العكس هو الصحيح، ولكن ليس هناك شك في حقيقة أن البعثات التبشيرية كانت أدوات للاستعمار من الناحية العملية.[٣]

وقد أعطت البعثات التبشيرية أولوية فائقة للصبغة الدينية والأخلاقية للتدريس، وهو أمر كان يتلاشى في أوربا ذاتها، ومن الواضح أن دور الكنيسة المسيحية في

---

[١] - أوربا والتخلف في أفريقيا تأليف د / ولتر رودني ترجمة أحمد القصير صـــ ٢٧٥ عالم المعرفة.

[٢] - متى ٢٥ : ٢٩.

[٣] - أوربا والتخلف في أفريقيا صـــ ٣٦٩.

العملية التعليمية يحتاج إلى اهتمام خاص، وقد كان دور الكنيسة يتمثل أساساً في الإبقاء على الاستعمار، وعلى غرار ذلك كانت الكنائس في أفريقيا المستعمرة تستطيع أن تعتمد على عظات تدعو إلى إدارة الخد الآخر في مواجهة الاستغلال ومحاولة الإقناع برسالة تقول : إن كل شيء سيكون منصفاً في العالم الآخر. فالمسلم أو الإفريقي يمكنه إذا ظلم أن ينتظر رد مظلمته في اليوم الآخر .

وللأسف نحن على دين النصارى في السعي إلى القوة، والنصارى يعملون بما في الإسلام من الدعوة إلى امتلاك القوة التي أصبحوا يرهبون بها المسلمين في كل مكان، لم نحاول معرفة الماضي، حتى جهلنا الحاضر، وأصبح مستقبلنا في يد غيرنا .

وخلاصة ما نراه طريقاً وحيداً للخروج من المأزق الراهن يتمثل في القطيعة الكاملة مع النظم المسئولة عن بؤسنا في الماضي والحاضر. والتي تسعى إلى استمرار هيمنتها علينا في المستقبل.

ونكون مخطئين إذا اعتقدنا أن الغرب يبغي لنا الحرية السياسية أو الفكرية، فكثيراً ما دعمت قوى الاستعمار الحكام المستبدين في العالم الإسلامي، والتاريخ يذكر الكثير من ذلك، فعندما تمرد الجيش على الخديوي (توفيق) أسرعت إنجلترا إلى إنزال قواتها بأرضنا لإرغامنا على قبول هذا اللون من الحكم الفاسد.

ورغم أن الاستعمار قد انتهى عن العالم إلا أن دول العالم الإسلامي لا تزال بها مسحة من هذا الاستعمار، فهيمنة أمريكا على الدول الإسلامية هو لون من ألوان الاستعمار، ووجود إسرائيل في فلسطين لا يمكن تفسيره إلا على أساس أنه صورة من صور الاستعمار الذي لا يقبل التحريك.

وقد شاهدنا التبشير وهو يترنح بين دائرتي الاستشراق والاستعمار، فبعد أن كاد يستقل عن الاستشراق، وقع في دائرة الاستعمار الواسعة التي شملت العالم

الإسلامي بكامله تقريباً، وهنا يمكننا أن نقول : إن بعض المستشرقين أصبحوا مبشرين عندما انتقلوا من مرحلة الدراسة إلى مصاحبة الجيوش، من مرحلة كانوا يسمعون فيها عن شعوب العالم الإسلامي إلى فرصة سنحت للمبشر أو للمستشرق الذي أصبح مبشراً بالاحتكاك المباشر بهذه الشعوب، وهو في حماية الجندي الإنجليزي أو الفرنسي.

ولهذا أحب المبشرون منذ القرن التاسع عشر أن يتقدم الجيش أولاً، لأن ذلك يسهل مهمتهم، ونفس الأمر رغب فيه الجيش، وقد كان حكام الدول الإسلامية الوطنيون على حق حينما كانوا يعتقدون أن مجيء المبشرين ينتهي دائماً بتدخل الدول النصرانية في بلادهم، وبخسارتهم جزءاً من استقلالهم.

ولو شئنا أن نزيد الأمر وضوحاً لقلنا : إن الاستشراق بأعماله الفكرية قد مهد للتبشير، وألقى له البذرة في التربة، وأن التبشير مهد للاستعمار، وسقى البذرة ورعاها حتى أينعت وحان قطافها، وأن الاستعمار جاء ليقطف الثمر، ويجني المحصول ويعيد توزيع الأنصباء على الشركاء، فدعم الاستشراق مادياً ومعنوياً، وأقام له المؤسسات والمراكز وعقد له المؤتمرات وأنفق عليها طائل الأموال، ودعم مركز التبشير وهيأ له من الوسائل والإمكانات ما جعل شرها يزيد وضررها يستشري وقنائصها وضحاياها يقبلون على الشراك وهم ذاهلون عما يراد بهم .[١]

ويرى المبشرون بوضوح أن السيادة الغربية في قطر إسلامي ما معناها تسهيل مهمتهم، أما فقدان هذه السيادة فينتج حركة عكسية تماماً، ولهذا يمن المبشر صموئيل زويمر على المسلمين في المؤتمر التبشيري الذي عقد عام ١٩١١م في لكناو بالهند فيقول : (إن خمسة وتسعين مليوناً على أقل تقدير من أتباع نبي مكة يتمتعون اليوم بنعمة الحكم البريطاني) ويقصد من ذلك أن طرائق التبشير إلى هذه الملايين الكثيرة من المسلمين قد أصبحت معبدة، ويكشف المبشرون أخيراً القناع

---

[١] – الغزو الفكري د / على عبد الحليم محمود صـ١٢٤ ، ١٢٥. ط/ أولى ١٩٧٩م دار البحوث العلمية.

عن غايتهم الحقيقية فيقول بعضهم : إن احتلال الإنجليز لمصر وقبرص قد ساعد على تسهيل التعليم باللغة الإنجليزية، وبالتالي على التبشير، ويقول بعضهم الآخر : إن رسوخ حكم الإنجليز في السودان قد سهل مهمة المبشرين[١].

والملاحظ أن قوى الاستنارة قد سدت ما خلفه الاستعمار من فراغ.

- ماذا لو انتصر الاستعمار .؟

إذا انتصر الاستعمار، انتصر التبشير، وانتعش الاستشراق، وتاريخ الدول المستعمِرة يؤكد أنها لم تتردد في تحويل البلاد بالقوة إلى دينها.

هذا هو تاريخ الكنيسة شاهد على ما نقول، فقد استنفذت الكنيسة جهدها في تحويل المسلمين المقيمين في أسبانيا عن دينهم، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود، فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها واعتصمت بالجرأة والتعصب، وصبت عذابها على المسلمين في غير رفق ولا عدالة، فاختارت الرهبان وأوكلت إليهم السعي باسم البابا لاكتشاف الملحدين، وكانوا بحكم عضويتهم في ديوان التحقيق أصحاب نفوذ واسع النطاق، لا يخضعون لرقابة أحد، ولا يسألون عما يفعلون، وتعاونت السلطات التنفيذية على إقرار هذا النظام، فسنت القوانين الصارمة للتنكيل بالمارقين، وتساوى في هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام، وحسبنا شاهداً على هذا موقف فردريك الثاني في القرن الثالث عشر، فقد شرع القوانين التي تقضى بإهدار دم الملحدين، ومصادرة أملاكهم.[٢] حتى اعتنق النصرانية من خار في ميدان الكفاح، وهاجر من حار بين التمسك بعقيدته واحتمال آلام العذاب.

وفي الثاني عشر من شهر فبراير ١٥٠٢ م خير جميع المسلمين في قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكي بين الدخول في المسيحية، أو مغادرة البلاد، وأعطوا لذلك

---

[١] - التبشير والاستعمار صـ ١٤٥ ، ١٤٦

[٢] - قصة الاضطهاد الديني د / توفيق الطويل صـ ٧٠

مهلة غايتها إبريل من السنة نفسها، واحتج المسلمون بأن أسلافهم سمحوا بالحرية الدينية عندما حكموا أسبانيا، ولكن الملكين فرديناند وأيزابيلا لم يتأثرا بهذا الاحتجاج[١] وحنث فرديناند في الأيمان والعهود التي قطعها على نفسه وبلغ من ظلمه في معاملة المسلمين أنه كان يحرق بعضهم ويصادر أموالهم ويتتبعهم بالأذى والعذاب في كل مكان[٢].

وفى عهد كبير الأساقفة (يوان كيمينيس) وقعت أحداث قضت على المسلمين وبقايا ثقافتهم وحضارتهم وتعرضوا لاضطهادات شنيعة، فقد حرم عليهم الإسلام وتعاليمه وأوامره كما حرم عليهم استخدام لغتهم العربية، وحتى نطق كلمة أو أغنية عربية أو شعر عربي. كما حرم عليهم حتى العزف على الآلات الموسيقية العربية واستخدام الأسماء العربية وارتداء لباسهم القومي وزيارة الحمامات، وفرضت المسيحية على من يخالف هذا من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرد وحرق والمسلم على قيد الحياة.[٣]

والمعروف أن المسلمين كانوا يعيشون في سائر مناطق أسبانيا لا في الأندلس وحدها، بل في قشتالة أيضاً عدد كبير منهم زاد بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس ١٤٩٢م بما يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف تـــم تحويلهم رسمياً وتنصيرهم قبل نهاية القرن وأصبحوا يسمون (الموريسكيون)[٤].

وهكذا تأكد لدينا أنه بعد سنة ١٥٢٦ م لم يبق مسلم واحد في أسبانيا لم ينصر، إذ

---

[١] – انظر قصة الحضارة جـــ٢٣ صـــ٩٧.

[٢] – نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان صـــ٢٩٧ مطبعة مصر ثانية ١٩٥٨م

[٣] – شمس الله على الغرب صـــ ٤٥٧.

[٤] – لا جرم أن مقام العرب في الأندلس كان غير طبيعي لمجاورتهم لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين، حتى إن عمـــر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن ملك عليها أمره أن يكتب إليه بصفتها وأنهارها ، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المســـلمين. قال المؤرخون : وليت الله أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله .. غابر الأندلس وحاضرها / محمد كرد على صـــ ١٤ ، ١٥

عمد عدد هائل منهم بالقوة، وبما أنهم عمدوا إذن فقد أصبحوا تابعين للكنيسة ومسئولين عن المحافظة على قوانينها. [١]

والغريب أن السلطان سليم الأول سلطان المسلمين عندما أراد أن يقدم على إكراه النصارى على الإسلام مثلما أقدمت السلطات الأسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق المسيحية طلب من الشيخ جمالي (شيخ الإسلام) إصدار فتوى توجب أو حتى تبيح إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام، وقتل من يرفض هذا الأمر، ولكن الشيخ رفض إصدار مثل هذه الفتوى، وقرر أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين يخضعون للحكم الإسلامي بالبقاء على دينهم طالما كانوا يدفعون جزية الرأس كبدل نقدي يعفيهم من التجنيد، وبأن يمارسوا بملء حريتهم شعائرهم الدينية، ويعلق مؤرخ أمريكي على هذا بقوله: (إن وجه التاريخ في منطقة الشرق الأدنى كان سيتغير تغييراً جذرياً لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بإكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام)[٢]

والواقع أن السلطان سليم كان يستطيع أن يسدى يداً عظيمة، وأن يبقى علم الإسلام مرفوعاً على ربوع الأندلس إلى اليوم، لو أنه وجه نشاطه إلى إمداد بنى الأحمر بالمال والرجال وأعان على إبقاء دولتهم، تقاتل عدوها، وترد سيل الصليبية الطافح عن اجتياح حدودها.

لكن السلطان المولع بالفتح والتوسع أغار على مصر، وساق جيوشه لإسقاط حكومتها، وأشبع شهوته في جعلها إمارة ملحقة بملكه العريض.

ذلك كله في الوقت الذي يتمكن فيه الأسبان من سحق المقاومة الإسلامية في الأندلس، ثم يبدءون عملهم الهائل في طرد وتنصير خمسة ملايين مسلم.[٣]

---

[١] – مآثر العرب على الحضارة الأوربية / جلال مظهر صـــ ٥٦ ، ٥٨ بتصرف الأنجلو المصرية أولى ١٩٦٠م

[٢] – الدولة العثمانية د/ عبد العزيز الشناوى جـــ١ صـــ٤١٥ ط/ الأنجلو المصرية.

[٣] – ظلام من الغرب / الشيخ محمد الغزالى صـــ ٢٦٠ دار الكتب الحديثة.

والواقع أن هذه الملايين المتنصرة نزولاً على حكم القوة والإرهاب لبثوا بالرغم من ذلك مخلصين في سرائرهم لدينهم القديم، ويصفهم مؤرخ أسباني معاصر بأنهم (كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد .. وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون[١] ويقيمون الصلاة في منازلهم المغلقة .. وإذا عمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار، ويسمون أولادهم بأسماء عربية، وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية)[٢]

هذا في الوقت الذي كانت أجراس الكنائس تدوي في جميع أنحاء العالم العربي جنباً إلى جنب مع آذان المؤذنين، هذه تدعو النصارى وتلك تدعو المسلمين.

ويرجع د : توفيق الطويل سبب انتصار هذا الاضطهاد الدامي في مقاومة الإسلام والتنكيل بأهله إلى أنه كان من وقدة العنف بحيث لم يبق من أتباع الدين أحد، إنه لم يقاوم فكرة الإيمان من حيث هي كذلك، ولو نزع إلى شئ من هذا لكان الفشل مصيره المحتوم، ولكنه أبقى على مجال الإيمان، وحاول أن يغير مجراه، فحوله في نفوس الناس من الإسلام إلى المسيحية، ولم يكن هذا بالشيء الهين اليسير، ولكن الاضطهاد الدامي حاول أن يحصد الإيمان الإسلامي في قلوب أهله ليغرس مكانه الإيمان المسيحي، وقد أخفق في تحقيق غايته مع الكثيرين الذين أبوا الإذعان لما أريد منهم، فسلط الاضطهاد عليهم كل ويلاته وطاردهم حتى غادروا البلاد إلى حيث يجدون الأمان، ونشأت الأجيال التالية على الإيمان بالمسيحية.[٣]

والفرق بين قيام الاتحاد السوفيتي بمحاولة محو العقيدة، وفشله في ذلك، وبين نجاح النصارى في الأندلس يؤيد ما ذكره الدكتور توفيق الطويل .

[١] – حظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم، فكثرت الأمراض الجلدية، وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة التفتيش .

[٢] – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين / محمد عبد الله عنان صـ٣٢٥ ط/ ثانية مطبعة مصر

[٣] – قصة الاضطهاد الديني د/ توفيق الطويل صـ ٧١ ، ٧٢.

أما الفرق بين خروج المسلمين من الأندلس، وخروج الاستعمار فيما بعد من بلادنا، فإنه يؤكد سماحة المسلمين، حيث لم يعملوا على نشر مستعربين يعملون لحسابهم بعد الرحيل، فقد أخرجوا بالقوة، وأزيلت ثقافتهم وعقائدهم بالقوة، بينما خرج الاستعمار بالتفاوض، وحدد الذين يرغب والذين لا يرغب في أن يتفاوض معهم، وتأكد له قبل الرحيل وبعده القضاء على كل من لا يرضى بهم قادة للسفينة.

وكان ثمرة هذا الفرق، أن استمر خط التعليم والثقافة عندنا وفق النمط الذي وضعه الاستعمار قبل رحيله، بينما تغيرت ثقافة المسلمين في الأندلس إلى النصرانية ديانة المنتصرين، وأزيلت كل آثار المنهزمين.

- ماذا لو حكم المسلمون .؟

المعروف أن الدولة الإسلامية ضمت في حوزتها منذ عصرها الأول أدياناً أربعة:

- الإسلام وهو دين الغالبية العظمى.

- اليهودية والنصرانية، وكانتا في بعض أهالي اليمن في الجنوب والشام في الشمال، وقد أطلق القرآن الكريم عليهما مصطلح (أهل الكتاب) باعتبار أن دينهما في الأصل قائم على كتاب سماوي وهو التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى، وإن حرفوا فيهما وبدلوا.

- وأما الديانة الرابعة فهي المجوسية في بلاد فارس، ويلحقون بأهل الكتاب لقوله ﷺ (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[1]

وإذا كان كل إنسان قد اعتاد أن يميز بالفطرة بين الأجانب وذويه فإن الإسلام وهو دين الفطرة لم يكن ليتجاهل هذه الدوافع الفطرية، ولكنه وقاها سوء الاستعمال، وشر التعسف والمغالاة، والهوى والعصبية، وجعل أتباعه يجمعون بين أمرين على درجة

[1] -انظر مسند الشافعي صـــ٢٠٩ ط/ دار الكتب العلمية بيروت

من الأهمية وهما:

١- الغيرة على دينهم

٢- التسامح مع أهل الأديان الأخرى.

قال تعالى [لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ] (١)

ومن ألوان التسامح الإسلامي أن القرآن الكريم أباح للمسلمين أكل طعام أهل الكتاب، ونكاح نسائهم مع بقائهن على دينهن، قال تعالى : [الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ] (٢)

بل لقد أوجب الإسلام لأهل الذمة ما أوجبه للمسلمين وأسقط عنهم مقابل الضريبة التي يدفعونها واجب حمل السلاح، وجعل الدولة مسئولة مسئولية كاملة عن الدفاع عنهم، وحماية أراضيهم وذراريهم، وحرم إلحاق الأذى بهم أو إيقاع أي ظلم عليهم(٣) ولهذا كان النصارى يفضلون التحاكم أمام المحاكم الإسلامية، وفى عام ١٢٠هـ ٧٣٨ م ولى قضاء مصر خَيْرُ بن نعيم، فكان يقضى في المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين

[١] - سورة الممتحنة الآيتان ٨ ، ٩

[٢] - المائدة آية ٥

[٣] - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) انظر كشف الخفا للعجلونى جـ٢ صـ٣٠٣ نشر مكتبة التراث ، والجامع الكبير للسيوطى صـ٧٤٦ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨م

النصارى، ثم خصص القضاة للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذي ولى قضاء مصر عام ١٧٧هـ فكان أول من أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم، وعلى أي حال فإن بعض فقهاء الإسلام أجازا تقليد الذمي القضاء بين أهل دينه. وفى سنة ٢٠٠ هـ –٨٠٠ م ألف الجاثليق تيموتيوس كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية، لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجئون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية، وفى الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموتيوس على من يذهب طائعاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدق، ويقوم على المسح والرماد، ثم جاء خليفته فقرر أن النصارى إذا خرجوا إلى الأحكام البرانية فإنهم يؤدبون على قدر جرمهم، ويمنعون من البيعة إلى حين. [١]

ويتعجب كتاب الغرب من كثرة عدد العمال والمتصرفين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فأحياناً كان النصارى يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، وقد قُلِّد ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث، فَوُجِّه اللوم للوزير لأنه جعل أنصار الدين وحُماة البيعة يقبِّلون يديه ويمتثلون أمره، وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليمين شأنهم شأن المسلمين، وقد جاءت في كتاب ديوان الإنشاء الذي أُلِّف عام ٨٤٠هـ ١٤٣٦م صيغة اليمين الذي كان يقسمه اليهود في ذلك العهد.

وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجَّهة أولاً إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين، وسيطرة أهل الذمة شيء لا يتحمله المسلم الحق، وفى عام ٢٣٥هـ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل ألا يُستعان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجرى أحكامهم فيها على المسلمين، فمن ذلك أمر بعزل

---

١ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم ميتز ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة جـ ١ صـ ٧٥ ، ٧٦. ط /لجنة التأليف والترجمة والنشر

النصارى عن مقياس النيل، ولكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد ذلك بعشر سنين قصره المسمى بالجعفري، وصير إليه نهراً وصير النفقة عليه إلى دُلّيل بن يعقوب النصراني)[١]

حتى إذا كانت الدولة العثمانية – وهى الدولة الإسلامية المتأخرة – جرت على ما جرت عليه دول الإسلام وزادت، فكانت تسند الوظائف المختلفة إلى رعاياها من غير المسلمين، وجعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى[٢] ووصل بها التسامح أن أباحت لبعض الدول الأوربية – مثل فرنسا – أن ترسل بعوثاً تبشيرية إلى البلاد الإسلامية، فأرسلت إليها كثيراً من هذه البعوث كان الغرض منها تربية الطوائف المسيحية الموجودة بين المسلمين على الإخلاص لها.[٣]

وبذلك أفسح المسلمون الطريق أمام أهل الذمة لنشر دينهم بل الأكثر من ذلك (استفادت الشعوب التي عاشت في حكم المسلمين في نشر الدين من العلاقات التي اتسعت بتكوين الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم أكثر من المسلمين أنفسهم، كما أن انتشار النصرانية والمانوية في بلاد المغول، واليهودية والنصرانية في القوقاز وشواطئ فولجا يعود إلى العصر الإسلامي)[٤]

كذلك فإن (الأمن الذي نعم به النساطرة في بلادهم في عهد الخلفاء، قد مكنهم من أن يسيروا قُدمـــاً في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانة في القرن الثامن الميلادي، وفى العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في أسيا، حتى إذا جاء القرن الحادي عشر كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن

---

[١] – الحضارة الإسلامية آدم ميتز جـــ ١ صـــ ٨٧ ، ٨٨

[٢] – تفسير المنار جـــ٤ صـــ٨٢

[٣] – المجددون في الإسلام / عبد المتعال الصعيدي صـــ ٣٤٩ نشر مكتبة الآداب.

[٤] – تاريخ الحضارة الإسلامية ف. بارتولد ترجمة حمزة طاهر صـــ٥١ ط/ دار المعارف.

اعتنقوا المسيحية من بين التتار)[١]

وكذلك سمح الأتراك للطوائف المسيحية بالحرية في تطبيق شرائعهم في الأمور التي لا يكون المسلمون طرفاً فيها، ولم يحدث أن أكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، قال الكردينال بول (إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق عقيدتهم، ولهذا الذي لا يهاجم ديانتهم أن يفصح عن أي عقيدة يعتنقها وهو آمن)[٢] ولهذا فضلت الأقاليم التي وقعت تحت الحكم الإسلامي العثماني –رودس واليونان والبلقان والمجر– فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة)[٣]

على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب إليه المسلمون في كل الأحوال، فلما أعاد الإمبراطور نقفور احتلال بلاد الشام في القرن الرابع الهجري –العاشر الميلادي– كان مما وعد به أهل الشام وأمنَّهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة، ولكنه رغم هذا الأمان، لم يألُ جهداً في مضايقة اليعقوبيين، فاضطرهم مثلاً إلى الخروج إلى إنطاكية، ولذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة الذين عينتهم الدولة في إنطاكية بأنهم أضل من فرعون، وأشد كفراً بالله من بختنصر، ولما أعيد فتح ملطيَّة أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسجنوا هناك، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى بملطية، فأما البطريرك فإنه مات منفيَّاً على حدود بلغاريا، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن، ورجم الثالث أمام قصر الإمبراطور، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبى، وأعيد تعميدهم، ولكنهم لم يجدوا السكينة التي يرجونها، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين)[٤]

---

[١] – الدعوة إلى الإسلام / أرنولد صـــ ٨٧.

[٢] –قصة الحضارة جـــ٢٦ صـــ ١٢٥

[٣] – السابق جـــ٢٦ صـــ١١٣

[٤] – الحضارة الإسلامية / آدم ميتز ترجمة جـــ١ صـــ ٦٩ –٧١.

هكذا كان المسلمون أرحم وأرق قلباً على النصارى من النصارى أنفسهم، ورغم هذا إلا أن المبشرين يحاولون إلصاق التهم بحكم المسلمين، وتزييف الحقائق التاريخية الناصعة التي سجلها التاريخ. وقد تمكنوا بفضل قوى الاستنارة من جعل المفاهيم المغلوطة عن الدولة العثمانية وغيرها من دول الإسلام ضمن المناهج المقررة لطلاب المدارس في بعض الأقطار الإسلامية .

ج. بين التخطيط والتنفيذ

المبشرون يخططون ، وأعوانهم على الساحة الإسلامية ينفذون ، وأعوان التبشير وإن كانوا قليلين في الواقع ، إلا أن أثرهم عظيم نظراً لما يسند إليهم من وظائف ومهام ، ويجمعهم الافتتان بالغرب ، ويعرف عنهم حبهم الشديد وميلهم الواضح إلى الفكر الغربي ، لدرجة أنهم تسموا على الصعيد الفكري باسم (المستغربين) وعلى الصعيد الإعلامي بـ (المستنيرين) وقد قادوا السفينة في بلاد إسلامية متعددة ، فتوجهوا بها نحو الغرب ، واصطبغت أحوال بلادهم الاجتماعية بالصبغة الغربية.

وفى عصر تحكمهم تولد التقليد الأعمى ، فالمرأة تلبس القصير لا تعرف لماذا .؟ والرجال لا يغارون على نساءهم ولا على بناتهم ، لا أحد يدرك سر ذلك ، غير أن أنصاف المتعلمين ، أو كاملي الاستنارة منهم يقولون : إن ظروف العصر قد تغيرت، وأحوال المجتمع قد تبدلت ، فإلى متى نتمسك بالرجعية . ؟

وإذا استمرت قوى الاستنارة في قيادة السفينة ، فإن التقليد الأعمى للغرب ، لا يحتاج إلى ذكر أسباب نرجعه إليها ، فإيمان المفكرين الفرنسيين أو الإنجليز بقضية (بشرية النص القرآني) معناه إيمان المستنيرين بنفس القضية ، وكفر الغرب بمطابقة العلم للدين ، معناه كفر قوى الاستنارة أيضاً بما كفر به الغرب ، على حد قول الشاعر:

فإن تُسْلِمِى أُسْلِمْ وإن تتنصري .. .. يَخُطُّ رجال بين أعينهم صلباً

وإذا كان الغزو العسكري قد انتهى أو خَفَتْ مظاهره عن العالم الإسلامي ، فإن غزو عقولهم بدأ ينشط يوم أن تكاسل الأول.

والغزو الفكري هو أن تتبنى أمة من الأمم معتقدات وأفكاراً لأمة أخرى ، دون نظر فاحص وتأمل دقيق لما يترتب على ذلك التبني من ضياع لحاضر الأمة ، وتبديد لمستقبلها.

الغزو الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة من هذه الدول الكبيرة ، فتطبقها على أبنائها ، فتشوه بذلك فكرهم ، وتمسخ عقولهم ، وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم

شيئاً واحداً هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولاً ، ثم يلبس الأمر عليهم بعد ذلك فيحسبون أنهم على صواب ، ثم يجادلون عما حسبوه صواباً.

ولهذا يكون الهدف من الغزو الفكري هو أن يحول بين أمة من الأمم وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الغازية، وسير أعلامها وقادتها ، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مُثُل إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية .[1]

وعندما يتعلق أمر الغزو الفكري بعالمنا الإسلامي ، فإن هذا يعنى استهداف الجذور والأصول الإسلامية التي استند عليها المسلمون يوم أن كانوا دولة قوية يعمل لها حسابها ، ولهذا يعملون على تحريف مفهوم الجهاد، وحذفه من المقررات الدراسية ، حتى لا يخرج من بين التلاميذ من يحمل (طموحات) صلاح الدين. أو سليمان القانوني أو غيرهم من قادة الأمة الإسلامية.

ويشترك في عملية الغزو الثقافي أعوان التبشير في الغرب والشرق ، فنجد الاستشراق ، والاستعمار ، ثم (قوى الاستنارة) التي أخذت في الظهور منذ عصر محمد على باشا ، والتي تزداد سطوتها يوماً بعد يوم.

- أهداف التبشير

أهداف التبشير تكثر تارة وتقل أخرى ، ولكنها تصل في النهاية إلى الرغبة في القضاء على الإسلام ، وكانت الحرب هي أول وسيلة فكر فيها الغرب لتحقيق أهدافه ، وعندما فشلت الحروب في تنصير المسلمين ، فشلت على إثرها الجهود السلمية ، ولما لم تفلح الجهود العسكرية والسلمية فكر المبشرون في القضاء على العالم الإسلامي بطريقتين:

الطريقة الأولى : تمزيق الإسلام بفصل أركانه بعضها عن بعض ، والإيمان ببعضها والكفر بالبعض .

الطريقة الثانية : تمزيق دولة الإسلام إلى دول أو دويلات صغيرة .

أولاً : تمزيق أركان الإسلام

أدرك المبشرون أن الإسلام يشتمل على : العقيدة والشريعة، ثم ظهر أنهم عاجزون عن القضاء عليه جملة واحدة ، فخططوا أن يقضوا عليه ركناً بعد آخر، فوقع أول اختيار لهم على الشريعة ، فحاربوها من عدة جوانب :

---

[1] – د / على عبد الحليم محمود / الغزو الفكري صـــ ١١ ، ١٢

أ . ترجمة القوانين الوضعية.

كان الخديوي إسماعيل يرمى منذ أن تولى الحكم إلى إصلاح القضاء في مصر ليفل من حدة الأجانب - حسب زعم بعض الكتاب - ولهذا بدأ يعد العدة لهذا الإصلاح بوضع المشروعات لترجمة القوانين الفرنسية ، وإعداد المصريين الذين يصلحون لتولى مناصب القضاء الجديد ، ولترجمة القوانين أنشئ قلم الترجمة الجديد، ولإعداد القضاة أنشئت مدرسة الألسن الجديدة.

أنشئ قلم الترجمة الجديد في أوائل عهد إسماعيل، وعين رفاعة بك ناظراً له، فاختار معاونيه في العمل من تلاميذه القدماء خريجي مدرسة الألسن القديمة، هم عبد الله بك السيد ، والسيد صالح مجدي أفندي ، ومحمد قدري أفندي ، ومحمد لاظ أفندي ، وعبد الله أبو السعود أفندي ، واستقر هذا القلم في غرفة من غرف ديوان المدارس ، وبدأ أعضاؤه يتوفرون على العمل والإنتاج ، وبدءوا بالقانون الفرنسي .

وبعد أشهر قليلة أتموا جهدهم الأول وهو (المقالة الأولى من القانون المدني) في خمسمائة وخمسة عشر بنداً، فرفعوها إلى الخديوي إسماعيل باشا. ثم ظهرت أجزاء القانون الأخرى تباعاً بعد إتمام ترجمتها على الترتيب . (١)

وفى سنة ١٨٨٣ أسست المحاكم الأهلية ، ووكل إليها تطبيق قوانين العقوبات بعد أن أخذت صورة متناسقة بالنسبة إلى التشريعات السابقة ، واعتمد الواضعون لهذه القوانين على التشريع الفرنسي الذي سبق أن استمد منه محمد على باشا .

وترك للمحاكم الشرعية يومئذ أن تحكم في الأحوال الشخصية والحسبية ، ثم عدلت قوانين العقوبات سنة ١٩٠٤م تعديلاً شاملاً ، وانضم إلى التشريع الفرنسي مصدر أول للتشريع القانون البلجيكي الصادر سنة ١٨٦٧م والقانون الإيطالي الصادر سنة ١٨٩٩م والقانون الهندي الصادر سنة ١٨٦٢ م والقانون السوداني الصادر سنة ١٨٩٩ والأخيران مقتبسان من القانون الإنجليزي.

وهكذا تسولت أمة مسلمة مادة فقها العملي من كل قطر كأنها نبتت على صعيد الدنيا بغتة، فليس لها ماض تستمد منه ، ولا تاريخ مشحون بالذخائر الرائعة.(١) ولا زالت قوى الاستنارة تعمل على محاربة كل محاولة ترمي إلى العودة إلى ما قبل عصر إسماعيل.

---

١ – رفاعة الطهطاوى تأليف جمال الدين الشيال صـــ ٧٨ ، ٧٩ دار إحياء الكتب العربية.

ب . التحقير من شأن الشريعة ووصفها بالرجعية.

أخذ المبشرون يطلقون علي عصر تطبيق الشريعة الإسلامية اسم (الرجعية) وأوحوا بذلك إلى أوليائهم، فامتثلت قوى الاستنارة على اختلاف درجاتها الفكرية لتوجيه التبشير ، فما من كاتب من هذه القوى إلا وهو يستخدم كلمة (الرجعية) لا يقصد بها شيئاً غير الشريعة الإسلامية ، ويصل الأمر ببعضهم إلى وصفها بـ (الوحشية) عندما يتحدث عن الحدود وقطع يد السارق ورجم الزاني وغير ذلك

وما كانت قوى الاستنارة لتنمو بين صفوف المسلمين لولا الاستعمار ، فهو الذي رباها ، وتعهدها بالرعاية. وما كان تطبيق القوانين الوضعية ليستمر لو لم يصنع الاستعمار هؤلاء المستنيرين، فإن رحيله كان سيتبعه العودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية لا محالة، ولكنه رحل وهو مطمئن إلى أن قوى الاستنارة أشد حرصاً منه على بقاء القوانين الوضعية ، وعدم تطبيق الشريعة السماوية.

والحق أننا كنا أعزة عندما كنا نطبق شرع الله وتعاليمه، فلما اختلفت كلمتنا، تفرقت دولتنا ، ووقعنا تحت أقدام الصليبيين .. ثم الاستعمار .. وفي ظل راية الاستعمار ، بتنا وأصبحنا نهتف ..

لا.. للرجعية ! لا .. للاستعمار !

كنا .. وكان الاستعمار سعيداً وهو يرانا نهتف ، ونردد الهتاف ، وزادت سعادته وهو يعمل على إنشاء العقليات التي ستقود السفينة بعد رحيله ، العقليات التي تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي ، وتعمل على إبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مشاركتها في التوجيه.

لم ندرك معنى الرجعية ، حتى أخذ هذا المعنى في البروز والظهور ، إن الرجعية هي الظلام الحالك ، ولا بد أن يواجه الظلام بالتنوير .

ظهر السراب الذي كنا نحسبه ماءً ، فالرجعية هي العودة إلى أيام شريعة الإسلام ، وحسب تعبيرهم إلى عصر الجمال والبغال والحمير ، إن التقدم في نظر هؤلاء لن يتحقق إلا إذا فهمنا الإسلام كما فهمت أوربا النصرانية.

---

[١] - ظلام من الغرب صـــ ١٧٢ ، ١٧٣.

وهكذا تحقق حلم المبشرين ، وتخلى المسلمون عن شريعة ربهم بعدما أسموها بـ (الرجعية) ويحدوا المبشرين الأمل في أن الآتين من أبناء المسلمين سوف يسهل عليهم بعد ذلك أن يتخلوا عن العقيدة ، ليصبح العالم الإسلامي ميداناً واسعاً لهداية أولئك الخارجين عن تعاليم يسوع.

ج . دعم جماعتي الغلو والتقصير في فهم بالشريعة

عن مخلد بن الحسين قال : ما ندب الله العباد إلى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين ما يبالي بأيهما ظفر : إما غلو فيه ، وإما تقصير عنه .

وقال الحسن بن صالح رحمه الله : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد باباً واحداً من الشر. [1]

وإذا كان أصل التفريط والإفراط موجوداً باستمرار ، إلا أن الاستعمار استطاع أن يستغل هذه القضية بما يخدم المصالح التبشيرية.

وجماعة التقصير يمثلها حزب الاستنارة ، الذي يزعم أتباعه أن الإسلام عقيدة ولا صلة له بالحياة وشئونها ، وتشمل العديد من الاتجاهات التي تتفق على عدم الاعتراف بإمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية .

وأما جماعة الغلو في الدين فقد ولدت كرد فعل للجماعة الأولى ، ولهذا فهي تقف في وجهها وتعتقد أنها خارجها عن الدين ، ويجب مقاومتها بالسلاح .

ولست أدرى هل كان قدراً ساعد التبشير أو ساعد عليه الاستعمار أن تقف الجماعتان معاً في وجه العقليات التي تمثل الإسلام، والتي أبعدها الاستعمار عن مراكز التوجيه ، وحجب عنها دعمه وجوائزه وثناءه .

ومن الذين تصدوا للجماعتين معاً كما تصد للمبشرين الأمير شكيب أرسلان الذي ولد بجبل الدروز سنة ١٨٧٠ م ونشأه والده نشأة إسلامية ، ثم أرسله إلى بيروت، وكانت سنه اثنتي عشرة سنة ، لتلقى العلم في مدارسها الإسلامية ، يوم أن كانت هذه المدارس قلة نادرة ومدارس المبشرين كثرة ساحقة.

وقد صور الأمير حال العالم الإسلامي في كتابه : لماذا تأخر المسلمون .؟

---

[1] - تلبيس إبليس / ابن القيم صـــ ٣٩

يقول رحمه الله : لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون ، وأن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك إلى أخيه ، إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلين ، فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية ، التي يرجو بها الزلفى ، وقد يكون أمله بها فارغاً .

ويقارن الأمير شكيب أرسلان بين دعاة التجديد المطلق ، والأخذ بأساليب المدنية الغربية دون تفكير أو تدبر ، وبين دعاة (الرجعية المطلقة) والجمود ، الذين يأبون على الشرق أن يقتبس من الغرب شيئاً ، ولو كان صالحاً فيقول :

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين ، الجمود والجحود ، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة الجاحدة التي تريد أن تلغى كل شئ قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع ، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئاً ، ولا ترضى بإدخال أي تعديل على أصول التعليم الإسلامي ، ظناً منهم أن الإقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار .

فقد ضاع الإسلام بين جاحد وجامد .

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم وشخصياتهم ، ويحملهم على إنكار ماضيهم ، وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكن وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره .

أما المسلم الجامد فإنه ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وإن كان لا يشاركه في الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل ما يعمله على جهل وتعصب.

فالجامد هو الذي مهد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الإسلامي إنما هو ثمرة تعاليمها.

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلى به المسلمون ، لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط . وهو الذي طرق لأعداء الإسلام على الإسلام ، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه ، حتى قالوا : إنه دين لا يأتلف مع الرقى العصري .

ويتحدث الأمير شكيب أرسلان عن التعصب الديني فيقول :

ومن الغريب أن ترى الأوربيين ودعاتهم وتلامذتهم من الشرقيين يتهمون المسلمين بالتعصب الديني، وينبزونهم بلقبه ، وينتحلون لأنفسهم التساهل في الدين، فإذا انبرى قوم يبغون منع الاعتداء على الإسلام ، وينادون المسلمين لينتبهوا للخطر المحدق بهم ، اتهموا بالتعصب الديني ، فالمسلم إذن لا يخلص من لقب متعصب إلا إذا علم أن الفرنسيين يحاولون تنصير البربر في المغرب ، فمر بذلك كأنه لم يسمع شيئاً ، وإلا إذا سمع أن الهولنديين نصروا مائة ألف ، وهز كتفه قائلاً : أنا لا يهمني أكان الجاوى مسلماً أو مسيحياً ، هنالك يصير المسلم راقياً ، ويعد عصرياً ويصير محبوباً ، ويقال فيه كل خير .

أما الأوربي فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات ، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام في بلاد الإسلام ، وليس عليه حرج في ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة راق ومتمدن وعصري .

وبرغم أمور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها لا يزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم: إن أوربا رفست الدين برجلها ، وصارت على خطة لا دينية ، وبذلك اتسق لها الرقى ونجحت.[1] بينما الشرق يتمسك بالدين ، ولهذا أثره السيئ على حياته الاجتماعية والحضارية !

د . ترويج شبهات المبشرين حول الشريعة

ادعاءات قادة التنوير بأن الشريعة الإسلامية لم تعد تصلح للوقت الحاضر يرجع إلى أمرين :

الأول : الجهل بهذه الشريعة ، لأنهم لم يتعلموا الإسلام في دراستهم، فمادة (التربية الإسلامية) غير أساسية ، ومنهجها لا يتعدى بعض القشور.

الثاني : التأثر بالثقافة الغربية ، فقد تعلموا في المدارس الأوربية ، أو مدارس الإرساليات التابعة للنهج الأوربي العلماني .

ومن الإنصاف أن نذكر أن بعضهم رغم ذلك متدينون، ويؤدون العبادات على أكمل وجه ، وهم على استعداد للإذعان لأوامر الله ، ولكن الكثيرين تمردوا على الدين وألحدوا في آيات الله. بإثارة الشبهات حول تطبيق الشريعة .

---

[1] – نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث صـــ ٩٥ ، ٩٦، ٩٨

ومن هذه الشبهات :

- الادعاء بأن الإسلام لا علاقة له بالحكم . على نحو ما جاء في كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ويعتبر هذا الكتاب المرجع الأساسي لقوى الاستنارة ، لأن الشيخ المنسوب إليه هذا الكتاب كان معدوداً من علماء الأزهر.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ، وبعض المراجع الأساسية لعلم الاجتماع الإسلامي في دراسة الجامعات الأمريكية على الخصوص، ويأتي تقويمه على هذا النحو ، لا لأنه يعرض فكرة جديدة على الغرب في الدراسات الإسلامية، بل لأنه صدر من مسلم أزهري ، وفي ذلك ترويج لفكر الكتاب بين الطلاب الغربيين، الذين يدرسون الإسلام والشعوب الإسلامية.[1]

- الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تصلح للعصر الحاضر، مع أن ذلك لم يثبت لهم بالتجربة ، ولو فعلوا لوجدوها أصلح من النظم التي لا يكفون عن تعديلها ، وكثيراً ما تثبت عدم دستورية بعض القوانين ، فينتج أن الذين احتكموا إلى هذه القوانين ، قد احتكموا إلى قوانين لم تكن دستورية.

- الادعاء بأن أحكام الشريعة ترجع إلى أراء الفقهاء. وقادة التنوير لا يترددون يوماً عن ترديد هذه الفرية ، التي يخدعون بها الجاهلين بالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

ولا شك أنهم مخطئون بحسبانهم آراء الفقهاء مستقلة عن القرآن ، وبظنهم أن النص القرآني إذا فسره البشر أصبح نصاً بشرياً ، لأن نص القرآن محفوظ ، وفهمه على وجه بعيد أو قريب من معناه لا يعنى ضياعه. بحجة أن الفهم يغنى عن استعماله.

ثانياً : تمزيق العالم الإسلامي

ما أسهل أن تمزق دولة كبيرة ، وما أصعب أن تقف في وجه نهوض هذه الدولة من كبوتها ، فالدول التي تتمزق سرعان ما تتحد ، وتعود قوية كما كانت، وقد حرص الاستعمار كل الحرص على أن لا يعود المسلمون يشكلون دولة واحدة، وفكر المبشرون وقدروا الأمر ، وخططوا ونفذوا في بادئ الأمر ، وقد جاءت نتائج مخططاتهم في عدة صور :

أ . السعي إلى الحصول على بعض الامتيازات

[1] – الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي د/ محمد البهي صـــ ٢٦٣ هامش. الطبعة السادسة

الامتيازات فكرة عرفتها الأمم القديمة ، وحتى قريش في الجاهلية كانت لها منزلة بين سائر قبائل العرب ، مثل منزلة اللاويين من بنى إسرائيل ، ولهم امتيازات مثل امتيازاتهم ، وهى تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية أو في الهندوسية.

غير أن هذه الامتيازات قد قل شأنها بجوار الامتيازات التي حدثت مع بداية ضعف الدولة العثمانية، وظهور قوة الغرب ، فظهرت الامتيازات التي تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية النازلين في الإمبراطورية العثمانية أو السائحين فيها أو المارين بها امتيازات لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم. من أشهر هذه الامتيازات إعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة ، ومن جزء كبير من رسوم الجمارك.

ثم إن السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل أجنبي مهما كان السبب ، حتى لو أن جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية أن تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت ، إن البيت الذي يسكنه رجل إنجليزي أو فرنسي يعتبر جزءاً من إنجلترا أو فرنسا .

ولم تكن الامتيازات التي سعت إليها الدول الغربية لدى الباب العالي هدفاً في ذاتها ، بل هدفاً لما يترتب عليها من التمكين لقوى الاستعمار ، وقد بدأت الدول الغربية تصل إلى تحقيق بغيتها في القرن السادس عشر ، حينما قبل السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٦م أن يمنح فرنسوا الأول ملك فرنسا شيئاً من الامتيازات التجارية، ومن الاعتراف لرعاياه إذا سكنوا في الإمبراطورية العثمانية أو مروا فيها ، ببعض الامتيازات القانونية والتجارية أيضاً ، والذي يلفت النظر هنا ثلاثة أمور :

١- أن الرجل الذي عهد إليه بالحصول على هذه الامتيازات لفرنسا من الباب العالي كان يدعى ده لافورست ، وهو راهب من فرسان القديس يوحنا .

٢- أن هذه الامتيازات كانت للنصارى الأجانب .

٣- من أجل ذلك عين الراهب الصليبي ده لافورست سفيراً في الآستانة ، فكان أول سفير لفرنسا في الإمبراطورية العثمانية .[1]

[1] - التبشير والاستعمار صـ ١٣٢ ، ١٣٣

ولم يكن السلطان ليتحرج في ذلك الوقت في أن يمنح الفرنسيين أو غيرهم بعض المنح ، وهو الرجل القوى الذي يعتبر نفسه سيد الموقف على الدوام ، إلا أن تطرق الضعف إلى كيان الدولة العثمانية جعل من هذه المنح امتيازات دينية وأدبية وسياسية في أملاك الدولة .

ومن أهم هذه الامتيازات حق فرنسا في حماية المسيحية الكاثوليكية في الشرق ، وقد ركزت فرنسا جل اهتمامها في نشر الثقافة اللاتينية ، والديانة الكاثوليكية عن طريق مؤسساتها العلمية .

ومما يلاحظ أن روسيا كانت قد حصلت من الباب العالي على حق حماية المسيحية الأرثوذكسية في أرض الدولة أسوة بحماية فرنسا للمسيحية الكاثوليكية، وبهذا الوضع تركز سلطان فرنسا المكتسب من الامتيازات في المنطقة التي كانت في وقت من الأوقات إمارات لاتينية تدين بالكاثوليكية ، وهى المنطقة المشرفة على البحر الأبيض المتوسط في ناحيته الشرقية ، وكانت هذه المنطقة تعج بالديانات المختلفة ، من مسيحيين إلى دروز إلى مسلمين.[١]

وقد كان ضعف الإمبراطورية العثمانية المتزايد سبباً في ازدياد شره الدول الأجنبية، حتى انتهى الأمر إلى استعمار العالم العربي كله تقريباً ، وقد رفض الاستعمار أن يتخلى عن نفوذه في هذا العالم إلى الآن، ورغم دعاوى الاستقلال لا تزال بعض الامتيازات قائمة ، حيث يستعمل النفوذ الأمريكي للترويج لبعض الأسلحة، ولبعض السلع ، ولبعض الأفكار .

ومثل هذه الامتيازات تجعل أبناء الشرق يسعون إلى مولاة الغرب رغبة في اتساع مجالات الرزق، ونوال الاحترام والتقدير المناسب .

ب . زرع اليهود في قلب العالم الإسلامي.

لقد وجدت قوى التبشير والاستعمار أن خير ضمان لعدم التئام أجزاء الجسد الإسلامي بعضها إلى بعض ، هو زرع اليهود في قلب هذا الجسد الخامد .

في هذا الوقت كان المسلمون يغطون في النوم .. وبينما كاد نور الصباح أن يشرق عليهم .. وكادوا أن يستيقظوا من غفوتهم ، تسللت مع ظلام الليل حية خبيثة ، وراحت تقترب من رجل ضخم أنهكه تعب يوم شاق

---

[١] – نهضة الشعوب الإسلامية صـــ ١٧٢ ، ١٧٣.

فأخلد إلى الراحة ، لقد ترك فمه مفتوحاً لتنتهز هذه الحية تلك الفرصة فتسكن جوفه ، معتقدة أنه جحرها الأبدي ، انسابت إلى ذيلها ، فما استطاع النائم من بعدها القيام ولا النهوض لأن الحية في جوفه أثقلت أحشائه ، وراحت تثقب فؤاده ..

ولا شك في أن مشكلة زرع الحية لم تبدأ حباً في اليهود ، ولن تنتهي حباً في العرب ، وإنما هي مصالح الدول النصرانية تصرفها كيف تشاء ، فمن مصلحة تلك الدول أن تتخلص من اليهود بتمزيق المسلمين، ووضع اليهود في قلب الجسد الإسلامي يسهل استمرار عمليات الغزو الثقافي للعالم الإسلامي ، ومن هنا تستمر السيطرة والتحكم من الشمال المتقدم على الجنوب المتأخر . ومن هنا عملت أوربا على إبعاد اليهود عنها ورميهم في قلب العالم العربي ، وقامت النازية ضدهم ، ولسوء حظنا وقفنا ضد هذه النازية التي كانت على وشك أن تخلصنا من اليهود . وتقضى على أكبر مؤامرة تحاك ضد وحدة الأمة الإسلامية في التاريخ.

وعلينا أن لا ننسى أن ذلك كله يرجع إلى أحد المبشرين وهو وزير خارجية بريطانيا التي كانت تستعمر فلسطين ومصر ، فقد أعطى وعداً بإحلال اليهود محل دول الانتداب في فلسطين ، وقد جاء هذا الوعد في الوقت الذي فكر فيه الاستعمار في الرحيل ، فبحث عن بديل لا يقل فاعلية عن قوى الاستنارة التي بثها في أكثر الأقطار العربية ، إنه البديل الذي يمكث إلى الأبد ، صارفاً أنظارنا على الدوام عن جهوده التبشيرية ، ونزعاته التسلطية.

والهدف من وراء ذلك أن تكون الصهيونية مساعداً لعمليات الغزو الثقافي ونشر الإباحية التي عجزت جيوش الاستعمار عن نشرها فينا يوم أن كانت تجثم على صدورنا . بل الذي حدث كان عكس ذلك ، فقد لاحظ المستعمر نمو روح الجهاد والبسالة بين شباب المسلمين .

والصهيونية بوضعها في مركز العالم الإسلامي تمثل عائقاً فعلياً عن التحرك للأمام، وقد ظهر كل هذا بعد قيام السلام بين العرب وإسرائيل ، وتدخل الغرب باستمرار من أجل حل العقدة التي عقدها بيديه ، فالعرب أيديهم ممدودة بالسلام دائماً ، وإسرائيل تمد يدها مرة ، وتسحبها أخرى ، ولن يتوقف مسلسل خسارة المسلمين طالما ظل اليهود في قلب العالم الإسلامي.

ج . تقطيع الجسد الإسلامي من أطرافه

وبينما اليهود في قلب الجسد الإسلامي يمزقونه من الداخل ، إذ بالقوى الاستعمارية تعمل عملها لأخذ هذا الجسد من أطرافه، فدولة اليهود تكبر بقدر ما تنقص دولة الإسلام من الداخل ، والدول النصرانية تتسع حدودها بقدر ما تضيق حدود المسلمين من الخارج حتى يتقابل العدوان .[١]

ولكن قبل أن يلتقيا سيجد النصارى أنهم خسروا النصرانية ، وأن القضاء على الإسلام معناه نشر الإلحاد .

فالنصرانية تزحف على الدول الإسلامية من أطرافها ، وذلك بتقوية نزعات الاستقلال كما يحدث لجنوب السودان ، أو بنشر المبشرين في دول وسط وجنوب إفريقيا ، حتى تتحول إفريقيا إلى قارة نصرانية ، بعد محاصرة الإسلام في الشريط الساحلي المطل على البحر المتوسط.

وفى أوربا أمكنهم تغيير التركيبة السكانية في البوسنة ، بعد أن حصروا المسلمين في ست ملاذات آمنة ، ثم سقطت بعض هذه الملاذات فتحولت الأكثرية المسلمة إلى أقلية خلال ثلاث سنوات ، وتغيرت مدن إسلامية بكاملها وأصبحت نصرانية . وبعد عشرين عاماً أو أقل سيكون بإمكانهم القضاء على البقية الباقية من المسلمين ، ليقتربوا شيئاً فشيئاً من قلب العالم الإسلامي.

وفي تحليل الأحداث الجارية في يوغوسلافيا ذهب بعض المحللين إلى أن من أسبابها أن الإلحاد انتشر في المعسكر الشرقي الشيوعي ، والإلحاد في نظر هؤلاء هو الذي أشعل نار العداوة بين الألبان المسلمين والصرب الأرثوذكس.

وهذا الرأي يتجاهل تاريخاً طويلاً من الصراع المرير في الحروب الصليبية والأندلس وتقسم الجسد المريض .. هذا الرأي يتجاهل الخلفيات التاريخية وخاصة في منطقة البلقان ..

صحيح إن دين النصرانية يدعو إلى التسامح المفرط ، والدين الإسلامي يدعو إلى الاعتدال في التسامح ، لكن المؤسف أن مبادئ الإسلام أبعدت عن مناهج التعليم في الشرق ، ومبادئ النصرانية أبعدت في الغرب ، وقال الغرب والشرق كلمة واحدة : الدين لله .. والوطن للجميع ..

لكن أليس من الأفضل أن نقول جميعاً - الغرب والشرق - : إن الدين والوطن والمواطنين جميعاً لله .؟

---

[١] – العدوان هما اليهود والنصارى ، وأشدهما عداوة الذي بالداخل كما أخبرنا القرآن الكريم، في قوله تعالـــى : {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} الـــمائدة آية ٨٢ والآية تشير إلى أن النصارى أقل عداوة ، ولا تنفي وجود العداوة !!

أليس هذا أفضل من رد هبة الدين على واهب الدين والحياة.؟

فنحن نتعبد لله بالدين ونتعامل مع بعضنا بالدين ، ونتعاون أيضا بإلزام من الدين .. فكيف نبعد الدين عن الحياة .. وأي حياة تلك التي تكون بلا دين !!

والحق أن الألبان لا ناقة لهم ولا جمل في هذا الصراع، ففكرة استقلال كوسوفو لم تكن واردة لديهم بعد أن شاهدوا احتراق البوسنة بسبب المشكلة ذاتها .. ولكن لأسباب خافية عليهم وعلينا وجدوا يدهم في يد دول المعسكر الغربي .. وجدوا أنفسهم يدخلون إلى مفاوضات ويخرجون منها كما دخلوا ، وبالطبع سارت الأحداث بسرعة وعلى غير ما يشتهون ، بل كما يشتهي حلف شمال الأطلنطي ، الذي لم يفكر في حماية المسلمين ولا أرواح أطفال ونساء المسلمين بقدر ما فكر في بسط سلطانه السياسي بعد أن يقضي على ما تبقى من المعسكر الشرقي المنهار (الشيوعية) ولو فكر الغرب في حماية الألبان ما كان يغيب على القادة العسكريين فكرة تسليح جيش تحرير كوسوفو قبل أن يبدأ الحلف في عملياته العسكرية ، التي لم يكن واضحاً متى تنتهي منذ بدايتها ، ففي الوقت الذي كان جيش الحلفاء يدمر الكباري والمنشآت الاقتصادية ، كان المسلمون يدفنون في مقابر جماعية، وقد كشفت الأمم المتحدة العديد من هذه المقابر ، وما خفي كان أعظم . وأتعجب عندما تخرج علينا التصريحات بأن هذه العمليات العسكرية لم تحقق أهدافها كاملة.. بينما إسرائيل حققت أهدافها كاملة ضد الدول العربية في أيام معدودات !!

هكذا أراد الغرب أن تظل المشكلة قائمة ، وأن تظل يوغوسلافيا غارقة في مشاكلها الداخلية ، لأنها أقوى حليف للشيوعية في أوربا ، وحتى يستمر تدخل الحلف قائماً ويظل مهيمنا على مجريات السياسية العالمية يجب أن تستمر المشكلة، وأن تصبح مشاكل كثيرة بدلاً من مشكلة واحدة ، مشكلة لاجئين ، ومشكلة إبادة جماعية ، ومشكلة الأرض المحروقة ، وعودة اللاجئين ومستقبل وإعمار كوسوفو وغير ذلك.

أظن أننا ندرك الآن أن سبب عدم تحقيق نصر حاسم في معركة الأطلنطي هو أن دول التحالف تضرب على الأطراف .. وبرفق وبحساسية ..أما إسرائيل فكانت تضرب على الدماغ.

د . إنشاء الحركات التي تقضى على الوحدة الإسلامية

عمل التبشير على إنشاء نوعين من الحركات للقضاء على الوحدة الإسلامية ، إحداهما تعمل على القضاء على الهوية الإسلامية. وتقف سداً مانعاً ضد إقامة دولة إسلامية واحدة ، والأخرى تقف ضد إقامة حركة جهاد ضد المبشرين.

- القضاء على الهوية الإسلامية.

كان ظهور مصطفى كمال على مسرح الأحداث في تركيا فاصلاً بين عهدين :

عهد كانت الدولة العلية تحرص فيه على بقاء أملاكها الإسلامية في إفريقيا وأسيا ، معتزة بتراثها الإسلامي .

وعهد اتجهت فيه الدولة إلى المدنية الأوربية والثقافة الغربية ، وظهرت المؤلفات التي تعالج الوسائل التي يمكن بها إنهاض تركيا وتجديد شبابها .

ومن براعة التخطيط نرى أن جميع الحركات القومية في البلاد العربية التي كانت تابعة لتركيا في عهدها الأول ، اتسمت في أول أمرها بميل بارز إلى التسامح الديني، ثم إن هذا التسامح بدأ يتطور حتى انتهى ميلاً ظاهراً عن الدين.

ثم ظهر بوضوح أن هذه الحركات القومية ترمى إلى إضعاف الشعور الإسلامي خاصة بين البلاد الإسلامية ، وإلى قصر الصلات بين بلادنا على العنصر القومي وحده ، فالصلة بين سوريا ولبنان ومصر والجزائر، تقوم في رأى الأحزاب العربية القومية على العروبة ، أو على اللغة العربية ، وأما تركيا وإيران وباكستان فهي عندهم كالأرجنتين والبرازيل والنمسا ..[١]

ويرجع استمرار هذه النعرات إلى أن قوى الاستنارة التابعة للتبشير لا تزال هي المسيطرة على مناهج التعليم في العالم العربي ، وتعمل هذه المناهج على إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة ، الأتراك والعرب ، العرب والعرب ، ومن موضوعات التاريخ التي درسناها في المرحلة الابتدائية ، (مساوئ الحكم العثماني)[٢]

---

[١] – التبشير والاستعمار صـــ ١٧٦.

[٢] – وأذكر أنني حاولت أن أسجل لنيل درجة الدكتوراه موضوع : جهود الأتراك العثمانيين في الدعوة إلى الله ، ولكـــن الموضـــوع توقف لأن بعض الناظرين في الأمر لم يرو للأتراك جهوداً في الدعوة الإسلامية تذكر !

ونحو هذا تراه على الصعيد التركي ، فالتعليم يعمل على مبادلة العداوة بعداوة، وشعار الأتراك الجدد (ما أسعد من يقول أنا تركي)

وأما كلمة عرب (Arap) فإنها تساوى عند الأتراك الجدد كلمة (Para) أي نقود !

وقد يتهم من يحاول الكشف عن خطط التبشير والاستعمار من قبل قوى الاستنارة بأنه يثير القلاقل والاضطرابات ، وإثر هذا الاتهام يصبح من المطاردين إجرامياً ، مع أنه في حقيقة أمره من المخلصين لبلدهم ولدينهم. فالأولى به التكريم لا التجريم !

ومن الذين أصيبوا بهذا التجريم عبد الله نديم الذي ولد ١٨٤٥م لأب رقيق الحال، فقد علت نغمته وأخذ ينتقد الإنجليز صراحة في سياستهم في الهند ومصر ، ويسب من يلوذ بهم ، ويهيج الناس على المبشرين ، وطرق التبشير ، ويقول :

إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له في مذهبه من إنجليزية وعربية (!) وحذرت منه ، وقالت : إنه يعد البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيئ لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت لأولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه ، وإلا ساءت العاقبة ، وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمز والديلى نيوز ، وقالت إنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوربيين ، وأنه ثوري مهيج ، وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن وبعض الجرائد الفرنسية.[1]

ولا زال يحارب كل من يحاول كشف خيوط المؤامرة من قبل رواد الاستنارة ، ويوصف بالتعصب والجمود ، في وسائل الإعلام بأنواعها .

- القضاء على فكرة (الجهاد في سبيل الله)

عمل الاستعمار على صنع أبطال يقضى بهم على الوحدة الإسلامية [2] فأخرج إلينا من بين المسلمين من يدعى النبوة ، ويكون أتباعاً وجماعات ، ويدعى أنه نزلت عليه شريعة تحرم قتال الإنجليز ، مثل البهاء ، وغلام

[1] – نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث صـ ٩٢

[2] – أراد اليسوعيون أن يصنعوا إلهاً يوهن قوى الدولة السورية الناشئة ، فجنوا على رجل ثم قادوه إلى المشنقة، هذا الرجل هو : سليمان المرشد ، وهو رجل إقطاعي شجعه الفرنسيون على أن يدعى الألوهية ، ولذلك تسمى بالرب ، وأخذ يعامل قومه العلويين

أحمد. وعندما لاحظ المبشرون أن مثل هذه الحركات لم تحل دون ميلاد دول إسلامية مثل (باكستان) عمدوا إلى طريق آخر ، أعم وأشمل من الحركات المحدودة زماناً ومكاناً ، فركزوا جهودهم على التعليم ، وعملوا على حذف الموضوعات التي تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، والعداوة بين العرب واليهود.

ولجئوا إلى الإعلام ، فتغيرت اللهجة العدائية ، وحذفت عبارات كانت تتصدر نشرات الأخبار من نحو (العدو الصهيوني) وحلت عبارة (الإرهابيين) على الذين كانوا بالأمس القريب ينعتون بالفدائيين ، وبعض المستنيرين يحلمون بيوم يعم فيه السلام بعض القضاء على هؤلاء الفدائيين ، ولكن عندما يأتي هذا اليوم تكون الطريق قد أصبحت معبدة أمام قوى الاستعمار والتبشير لتدخل البلاد التي كانت إسلامية، وهى آمنة مطمئنة ، ويومئذ يفرح المستنيرون !!

وبعد نجاحهم في تحريف مفهوم الجهاد، وحسبانهم أن الأمر قد حسم لصالحهم، ظهرت مشكلة تتمثل في أن نصوص (الجهاد) يحويها كتاب لا يمكن أن يمحى منه شيء ، بل في إمكان المسلمين الرجوع عن المعنى المحرف إلى المعنى الحقيقي في أي وقت شاءوا .

وما انتظر المبشرون إلى أن يظهر فشلهم ، بل قاموا على الفور بالتفكير مرة ثانية وتدبروا أمرهم فرأوا أن يحولوا فكرة الجهاد من جهاد خارجي إلى جهاد داخلي ، لا بمعنى أن المسلم يجاهد نفسه وشهواته في هذه المرة، وإنما يجاهد الحكومات والأنظمة التي تحكمه، ثم عملوا على دعم موقف هذه الحكومات في حربها ضد الخارجين عليها ، فكانت شبه حرب أهلية في البلاد الإسلامية

فخرجت جماعة الجهاد تحمل المفهوم الجديد ، وكان خطأً وقعت فيه هذه الجماعة ، عندما وجهت حربها إلى رئيس الدولة، وقد كتب المتهم الأول في قضية اغتيال السادات محمد عبد السلام فرج كتاباً بعنوان (الفريضة الغائبة) يعنى (فريضة الجهاد) وقد قال : إن العلم لا يكفى ، وإلا فماذا فعل علماء الأزهر بعلمهم يوم أن وطئه الجنود الفرنسيون بخيولهم .

وقد ربح التبشير الكثير من المكاسب على إثر هذا الحادث ، فاشتدت العداوة بين الحكومة وبين عامة الجماعات الإسلامية ، وركب المستنيرون الموجة ، ووجدوا الفرصة سانحة لمحاربة الوسطية الصحيحة ،

على هذا الأساس ، ثم تطوح فجعل ينهب ويسلب ويقتل حتى ألقت الحكومة السورية القبض عليه وأدانته بما ارتكبه من حوادث سلب وقتل وشنقته. التبشير والاستعمار صـ ١٥٧

فادعوا أنهم أصحاب الوسطية الإسلامية ، بعد أن اتهموا العديد من أتباعها بالتطرف ، فأصبح رائجاً أن من يقول (الشريعة الإسلامية) يجب القضاء عليه لأنه قد ينتمي انتماءً خفياً إلى جماعة الجهاد أو غيرها من الجماعات !!

وبعض الدول الإسلامية فكرت في رعاية هذه الجماعات الدينية ، فاخترعت أمريكا - على الفور - قائمة الدول التي ترعى الإرهاب. وأخذت هذه القائمة ذريعة لضرب بعض الأقطار الإسلامية.

وعلى الجانب الإعلامي ، عمل الإعلام الغربي على تشويه صورة الإسلام ، بما ينعكس على الصحوة الإسلامية في العالم العربي. وعملت قوى الاستنارة على توجيه طعنها إلى الإسلام وشريعته. بدلاً من جعل نقدها منصباً على سلوك طائفة معينة من الناس .

ومما سبق يتضح لنا أن تخطيط المبشرين وتنفيذ المستنيرين قد أتى ثماره ، وما كان شيء من ذلك ليتحقق لو لم يعتمدوا على اللين وإظهار العطف ومنح المعونات والقروض ، وعقد الحوارات والمؤتمرات والندوات وإقامة المنظمات التي تجمع بين الشرق والغرب. أو بين الإسلام والمسيحية .

- المستنيرون ونقطة الانطلاق

تأمل كيف يبدأ تاريخ مصر الحديثة ؟ إنه يبدأ بظهور قوى الاستنارة ، ويرتبط ذلك بظهور محمد على باشا في بداية القرن التاسع عشر ، وقد حفل عصر هذا الوالي الألباني الأصل بكثير من التحولات في الحياة المصرية ، تمثل ذلك في الاتجاه نحو تكوين دولة قوية ، تظل محتفظة بوجودها بل بنفوذها أمام القوى الاستعمارية.

ومحمد على الذي يعتبر أوربيا جنساً آمن بإمكانية الاستعانة بدول أوربية كفرنسا. وكان الغرض الأول الذي دفعه إلى إرسال البعثات المختلفة إلى ممالك أوربا أن يكون في مصر جيلاً من الأساتذة والعلماء تلقوا العلم الأوربي في أوربا وبلغات أوربا ليحلوا بعد عودتهم محل الأساتذة والأطباء والمهندسين والضباط والصناع من الأجانب ، وقد نجح محمد على في تحقيق غرضه هذا إلى حد كبير .

أما غرضه الثاني فهو أن يكون أعضاء هذه البعثات أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه ، وترجمتها إلى اللغة العربية.

وفى الحديث الذي أدلى به محمد على للدكتور بورنج مندوب الحكومة الإنجليزية إيضاح كامل للبرنامج الذي وضعه نصب عينيه ليتحقق على أيدي أعضاء البعثات ، وفيه أيضاً دليل قوى على عبقرية محمد على ، ذلك الرجل الأمي الذي ساقته العناية الإلهية لتعليم شعب بأسره - كما يقولون - قال محمد على لبورنج : إن أمامي الشيء الكثير لأتعلمه أنا وشعبي ، فأنا الآن مرسل إلى بلادكم أدهم بك ، ومعه خمسة عشر شاباً مصرياً ليتعلموا ما يمكن لبلادكم أن تعلمه ، فعليهم أن ينظروا إلى الأشياء بأعينهم ، وأن يتمرنوا على العمل بأيديهم ، وعليهم أن يختبروا مصنوعاتكم جيداً ، وأن يكتشفوا كيف ولم تفوقتم علينا ، حتى إذا ما قضوا وقتاً كافياً بين شعبكم عادوا إلى وطنهم وعلموا شعبي ..)[1]

وقد ذكر الدكتور جمال الدين الشيال في بحثه القيم عن حركة الترجمة في عهد (محمد على) أسماء الكتب التي ترجمت في عصره من الفرنسية إلى العربية والتركية فبلغت ١٩١ كتاباً ، وجميعها كتب علمية ، منها ٦٤ كتاب في الفنون الحربية فقط.[2]

أما ما يؤخذ على محمد على نفسه فهو أنه مال إلى فرنسا ، ولهذا قوى النفوذ الفرنسي ، وكسبت فرنسا الجولة ضد إنجلترا إذ نجحت في أن ضمت محمد على إلى صفها ، وجعلت منه أداة لتنفيذ أغراضها الاستعمارية أو التمهيد لها لتكون وريثته بعد موته.

وقد أصبح نفوذها هو السائد في مصر ، وأصبح رجالها مستشاريه ، وعملت على أن يكون لها التأثير الأقوى في الحياة المصرية وفى الشرق، فأذن لها الوالي بأن ترسل بعثاتها التبشيرية ، فوفدت هذه البعثات إلى مصر ثم إلى سوريا ، وهى - أي فرنسا - التي أوحت له بالنزاع بينه وبين سلطان الآستانة لينشغل عنها، إذ أنها كانت قد هاجمت الجزائر سنة ١٨٣٠ م واستطاعت أن تضع أقدامها فيها ، وأيضاً لتجنى الفوائد من الحروب التي نشبت في داخل البلاد الإسلامية في الشرق.[3] مثل الحرب التي قادها إبراهيم باشا ضد الوهابيين في الجزيرة العربية .

وقد كان الإمام محمد بن عبد الوهاب مصلحاً ولكنه لم ينظر إلى المدنية الحديثة كما نظر إليها محمد على، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية فحسب ، وإنما اتجه إلى العقيدة، يحاول إصلاحها مما شابها من أمور تخل بمبدأ التوحيد.

---

[1] – تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على د/ جمال الدين الشيال صـــ ٣٣ ، ٣٤ ط/ دار الفكر العربي ١٩٥١م

[2] – ارجع إلى القائمة المطولة الملحقة بالكتاب والتي تبلغ نحو ٣٥ صفحة .

[3] – تباشير النهضة في العالم الإسلامي د/ محمد ضياء الدين الريس صـــ ٣٧ ، ٣٨ ط / دار الأنصار.

وقد أدرك الاستعمار خطر اتحاد الحركتين ، حركة محمد على وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فسعى إلى أن تقضى إحداهما على الأخرى ، فكلف السلطان واليه على مصر بإخماد الوهابية ، وانتهز محمد على الفرصة ، وقضى على هذه الحركة ، ويعتبر هذا أكبر أخطاء محمد على ، فماذا كان سيحدث لو أخذ بمبادئ الوهابية ونشرها في مصر .؟ إذاً لضمن انضواء الحجاز تحت سلطانه ، ولشملت نهضته المادة والروح معًا بدلاً من قصرها على جانب المادة ، وهذا ما أعطى فرصة للفلسفات الأوربية أن تتسرب إلى عقول المسلمين عن طريق رجال البعثات العلمية، أو البعثات التبشيرية.

وأعطى الفرصة لبريطانيا فجنت الثمار بإنهاك قوى الدولة المصرية الصاعدة، مما ساعد على اضطراب الرؤية السياسية أمام محمد على وأبنائه من بعده ، فحين احتل بلاد الشام عمل ابنه إبراهيم على إتباع سياسة ترمى إلى ترجيح كفة المارونيين، وجعلهم أصحاب السيادة ، واضطهد الدروز ، وذلك على الرغم من أنهم وجميع أهل لبنان وسوريا رحبوا بحكمه في بادئ الأمر أملاً في أن يجدوا عهداً يقضى على مساوئ الحكم السابق ، وكانت هذه السياسة محققة لمقاصد الفرنسيين لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حماة الكاثوليك في كل مكان من بلاد الدولة العثمانية .

كما أن محمد على - إتباعاً للسياسة نفسها - أذن للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى لبنان وسوريا ، وسمح لها بمباشرة نشاطها في أثناء حكمه الذي استمر نحو تسع سنوات ١٨٣١- ١٨٤٠م فكان في مقدمة الوافدين بعثات (الجزويت) أي اليسوعيين التي بدأت عملها في ١٨٣٣ بعد أن كان نشاطها متوقفاً منذ صادر البابا جماعتهم قبل ستين سنة ، ثم لحقت بها - فيما بعد - البعثات الأمريكية والإنجليزية ولم يكن نشاط تلك الإرساليات قاصراً على الدين ، بل كل منها كانت تمهد لنفوذ سياسي ، وتعمل على خلق الجو الثقافي المناسب لاستعمار الدولة التي هي تتبعها أو للاستعمار الأوربي بوجه عام.[١]

وما يؤخذ على محمد على يؤخذ على خلفائه ، فقد حولوا أغراض البعثات العلمية إلى أوربا إلى العلوم الاجتماعية ، في الوقت الذي ضعفت فيه الدولة بأفول نجم محمد على ، ولا زلنا إلى اليوم نرسل البعثات ، ونحن كما نحن، لأن القائمين على الأمر شاءوا أن لا ننقل عن الغرب إلا ما يضعف قوتنا. يفتحون الباب على مصراعيه لنقل الأخلاق والفلسفات الغربية ، ويجعلون نافذة صغيرة للعلوم تضمن بقاء سيطرتهم علينا ، غداً وما بعد الغد .

---

[١] – تباشير النهضة الإسلامية صـــ ١٢١

ومن الناحية الأخرى عندما أراد محمد على أن يدخل المدنية الأوربية إلى مصر، طمح المبشرون إلى أن يتسللوا بفكرهم إلى عقائد المسلمين ، وظلوا يتمتعون بالحرية وبالامتيازات حتى جاء عباس الأول عام ١٨٤٨ وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير .

ولا حاجة إلى القول بأن وجود حاكم قوى أو ضعيف يؤثر كثيراً في موقف حكومته من التبشير والمبشرين ، فعندما تولى الخديوي سعيد باشا أريكة مصر ١٨٥٤ –١٨٦٣م وكان حاكماً مستضعفاً أحبه المبشرون ، لأنه لم يسمح لأحد أن يمسهم بسوء ، ثم إنه وهب المبشرين البروتستانت عام ١٨٦٢ قطعة أرض ثمينة في القاهرة أسوة بالإرسالية الكاثوليكية التي كان قد وهبها مثل هذه الأرض من قبل . ولهذا نعته المبشرون بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوربي أن يعود سائداً في وادي النيل ، مع أن عهد سعيد باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين.

ولم تكن الكارثة الكبرى هي مجرد استغلال الدول صاحبة الامتيازات لموارد البلاد الإسلامية ، أو تمكنهم من بسط نفوذهم السياسي أو الثقافي

بل كانت الكارثة العظمى هي أن روحاً من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسرى بين الشعوب الإسلامية ، وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق ، وبرزت قوى الاستنارة تدعو إلى إتباع الغربيين ، وتقليدهم في أساليب حياتهم ، دون نظر إلى ما كان منها صالحاً أو فاسداً ، وكان هذا كله مؤدياً أو سيؤدى لا محالة إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه ، أو زعزعة ثقته بمبادئه وثقافته .

وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كان هناك عاهلان في الشرق على رأس هذه الدعوة ، بل كانا يبذلان كل جهد في سبيل إقناع الناس بها ، ويضحيان بالأموال ليروجا لها، هما:

- السلطان عبد العزيز خليفة آل عثمان في تركيا (١٨٦١- ١٨٧٤م)

- والخديوي إسماعيل حفيد محمد على في مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٤م)

فقد كان كل منهما مفتوناً بأوربا ، مغرماً بما شاهده من المظاهر المادية ، مدفوعاً إلى تقليد الغربيين في فنون عيشهم ولهوهم ، حتى جهر الأخير أن مصر قطعة من أوربا ، وإن كانت أوربا لا ترضى إلا بأن تكون ذيلاً لها.[1]

---

[1] – تباشير النهضة الإسلامية د/ محمد ضياء الدين الريس صـــ ١٤٣.

ولئن كانت أعمال التبشير قد تقدمت في أثناء حكم سعيد باشا ، فإن البعض يظن أن الحال تبدلت لما جاء إسماعيل باشا عام ١٨٦٣ م ، لأن إسماعيل باشا كان قوياً فضيق على المبشرين كثيراً. من أجل ذلك وصف المبشرون إسماعيل بأنه متكبر مستبد.[1] كل ذلك لأنه أراد أن يضع حداً للنفوذ الأوربي في مصر ، لما اهتدى إلى الأصابع الحقيقية التي كانت تهرب ذلك النفوذ إلى مصر فقطعها. وعندما أراد الخديوي إسماعيل باشا أن يغلق مدارس المبشرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتدخلون في السياسة ، ويثيرون الاضطراب في البلاد ويزيدون مشاكل الحكومة ، أيدت القنصليتين الأمريكية والإنجليزية المبشرين ، وحملتا الحكومة المصرية على أن تتقيد بالخط الهمايوني (الدستور العثماني) الذي ينص على احترام الحرية الدينية)[2]

ولئن بدا لنا أن موقف إسماعيل كان موضع جدل ، وخاصة في السنوات الأخيرة من حكمه ، فإنه لا جدال في أن الدول الأوربية قد نصبت له فخ الديون وأوقعته فيه، فقد أمدته بالأموال حتى أغرقته في الديون ، ثم اقتضته تلك الديون مرة واحدة فاستطاعت من هذه الطريق أن تشترى في سنة ١٨٧٥ أسهم الحكومة المصرية في قناة السويس ، وأن تتدخل في إدارة القناة عملياً ، وأخيراً انتهزت إنجلترا فرصة الثورة العرابية فضربت الإسكندرية وأنزلت جيوشها إلى البر المصري عام ١٨٨٢ ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر تحت الحماية الإنجليزية [3]. وهكذا جاد الزمان على المبشرين بالفرصة التي طالما راودت حلم القديس لويس التاسع.

وبهذا أصبح إسماعيل هو الرجل الذي مهد وادي النيل للاحتلال الأجنبي ، واجتاح أموال العباد ليهلكها في شهواته ومباذله ، ونظر إلى أوربا نظرة الحيوان المنهوم ، فلم يرقه منها إلا الفسق عن أمر الله ، فقرر أن يجعل مصر قطعة من أوربا. ولهذا يرى الشيخ محمد الغزالى السقا رحمه الله أنه لم تكن لهذا الرجل صلة بالدعوة الإسلامية ، والبلاد التي فتحها ، هي أرض يريد أن يزين بها تاجه ، ويرضى بها تطاوله ، مهما ضاع في هذه السبيل من رجال وأموال.

[1] - هذا من أساليب الدعاية الرخيصة التي حظي بها الخديوي وغيره من الحكام ، فإن أعمال المبشرين تقضي عدم كشف أسرار الرجل التابع لهم ، ووصفه بالبطولة حتى يتسنى له أن يخدع شعبه. وينبغي أن نفصل بين نقل الواقع التاريخي ، وبين نقل أساليب الدعاية الرخيصة.

[2] - التبشير والاستعمار صـ ١١٨ ، ١١٩.

[3] - التبشير والاستعمار صـ ١٤٧ ، ١٤٨.

يقول الشيخ الغزالى : ولقد وقفت طويلاً عند حملاته العسكرية على الحبشة فأسفت لها ، وحزنت للضحايا البريئة التي ذهبت هدراً في هذه البلاد ، وآذاني أن ألوفاً من فلاحينا الطيبين يقادون إلى حتفهم على النحو المخزي الذي رسمه (التبشير الفرنسي) و (النفوذ الأمريكي) و (الجشع التركي)

أمر الخديوي إسماعيل بغزو الحبشة ، وأرسل جيشاً مصرياً مكوناً من ثلاث فرق، جعل قائده العام (راتب باشا) وأوصى الخديوي قائده أن يتقيد برأي الجنرال (لورنج) رئيس أركان الحرب ، وهو أمريكي التحق مع نفر من بنى جنسه بخدمة الخديوي لأغراض استعمارية ، فكان دوره في الجيش المصري ، كدور الجنرال (جلوب) في الجيش العربي .

كلهم أروغ من ثعلب !! ما أشبه الليلة بالبارحة !!

وكان الضابط المصري أحمد عرابي مشتركاً في هذه الحملة ، قال أحمد عرابي : وكان أحد القسس الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب (الجنرال لورنج) مستطلعاً أحوال الجيش المصري حتى علم بمقداره ، واتفق معه على الحركة الحربية التي تؤدى إلى هلاك الفرق المصرية عند الصدمة الأولى .[١]

وقد كان !!

اندحر الجيش المصري ، في معركة أشرف عليها قائد أمريكي خائن ، ومبشر فرنسي جاسوس ، وحاكم تركي غر ، وأحقاد صليبية يقظة !!

ثم كان !!

اندحر الجيش العربى ، في معركة ١٩٤٨ م التي أشرفت عليها الأمم المتحدة ، فحددت متى تبدأ ، ومتى تنتهي ، ومن الذي سينهزم !!

ثم كان !!

اندحر الجيش العربى ، في معركة ١٩٦٧ التي انتهت قبل أن تبدأ ، بفضل الجواسيس والخونة الذين باعوا الآخرة بالدنيا وأعراضها الزائلة !!

---

[١] – ظلام من الغرب / الشيخ محمد الغزالى صـــ ١١٤ –١١٧ بتصرف الطبعة الثالثة ١٩٦٥ دار الكتب الحديثة.

ثم أصبحنا بفضل العودة إلى الدين منتصرين في حرب ١٩٧٣ م ، ولكن قوى الاستنارة ترفض أن يقال (الدين) وتتغنى بعبارات من نحو : عبقرية القيادة .. بسالة الجندي المصري .. الخ

وقد نجحوا في تغير ذكرى هذا النصر الذي تحقق في رحاب نفحات رمضان، إلى يوم السادس من أكتوبر من أجل أن تفقد هذه الذكرى الغالية روحها الإسلامية !!

الفصل الثالث

التبشير الخفي ومجالاته

عرف العالم الإسلامي ألواناً شتى من المبشرين على اختلاف مذاهبهم ، تدور أعمالهم التبشيرية ما بين ظاهر وخاف ، ويحكى الشيخ رشيد رضا عن تعرضه لنوع من التبشير الظاهر فيقول : كنت ماراً بشارع محمد على في القاهرة وأنا قريب عهد بالهجرة إليها ، فرأيت رجلاً واقفاً على باب المدرسة الإنجليزية فيه يدعو كل من مر أمامه : تفضلوا .. تعالوا اسمعوا كلام الله ، ولما خصني بالدعوة أجبت فدخلت فإذا بناس على مقاعد من الخشب في رحبة المدرسة ، فلما كثر الجمع قام أحد دعاة النصرانية فألقى ما تيسر من العقيدة الصليبية .

وبعد فراغه وحثه الناس على الأخذ بما قال والإيمان به ، ودعواه أن لا خلاص لهم بدونه ، قمت فقلت : إذا كنتم قد دعوتمونا إلى هذا المكان لتبلغونا هذه الدعوة شفقة علينا ورحمة بنا ، فأذنوا لي أن أبين لكم موقعها من نفسي ، فأذن لي القس بالكلام ، فوقفت في موقف الخطابة وأوردت عليهم ما يترتب على هذه الدعوة من العقائد الباطلة ، والقضايا المتناقضة، وطلبت الجواب عنها ، فكان الجواب : إن هذا المكان خاص بالوعظ والكرازة دون الجدال فإن كنت تريد الجدال والمناظرة فموضعها المكتبة الإنجليزية ، فلما سمع المسلمون الحاضرون هذا الجواب صاحوا : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله وانصرفوا)[١]

هذا لون من ألوانا التنصير الظاهر بات المسلمون يعرفونه ، وتأباه نفوسهم ، ولا يستمعون إلى دعاته ، وقد جرب المبشرون هذا النوع كثيراً ، وحيث إنهم لم يظفروا بشيء مما يبتغون ، قرروا أن يستتروا ، وأن يغيروا جلدهم، وأن يخفوا وجوههم خلف أقنعة كثيفة من أعمال البر والخير.

لقد لاحظ القائمون على العملية التبشيرية أن التبشير المكشوف لا يأتي بخير، وأنه لم يجعل مسلماً واحداً يصبأ إلى النصرانية ، ففكروا في وسيلة تجعلهم يقتربون من المسلمين بطرق غير مباشرة ، فبحثوا عدة مجالات تساعدهم على توثيق صلتهم بالمسلمين كالتعليم والطب والإعلام ، ولكنهم

---

[١] - عقيدة الصلب والفداء محمد رشيد رضا صـ ١٧. الفتح للإعلام العربي

اتفقوا على أن التعليم هو أفضل الطرق للوصول إلى غرضهم ، وما عليهم إلا أن ينتظروا عشرات السنين حتى يروا بأعينهم ثمرة جهودهم ، فيفرحوا بما صنعت أيديهم، عندما يروا الأطفال الذين تعلموا على أيديهم وقد صاروا قادة ، يقودون سفينة بلادهم نحو الغرب ، مولين ظهورهم للإسلام ولتراثهم الثقافي ، أولئك الذين حصلوا مناهج المبشرين في المدارس القومية، أو أولئك الذين حصلوا على الثقافة الغربية من أوسع أبوابها ، في مدارس الإرساليات وكلياتها ، وكثيراً ما تثير الأخيرة مشاكل كتلك التي حدثت منذ عامين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة بتدريس كتاب يطعن في الإسلام ، ويسيء إلى نبي الإسلام.

ولأجل هذا يركز المبشرون جهودهم على مدارس اللغات ، حيث تعهد الطبقات الراقية بأبنائها إلى المبشرين، وبعض الذين درسوا في هذه المدارس حكوا لي كيف أنهم نسوا اسم محمد ع لقد تداركت إحدى الأمهات هذا الموقف وأخذت طفلها ليزور مكة ، وراحت تعلمه الصلاة الإسلامية آسفة لأنها قصرت في حقه بوضعه في أيد غير أمينة فشب وهو لا يعرف أن الله واحد !

وعندما وقع العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية رأى المبشرون أن أبواب التبشير صارت مفتوحة على مصراعيها في ممالك الإسلام الواقعة تحت سلطتهم مثل الهند والصين الجنوبية الشرقية ومصر وتونس والجزائر ، ولهذا وجهوا نصائحهم إلى العاملين في حقل التبشير بعدم ممارسة هذا النوع الظاهر من التبشير ، فكانت نصائحهم تدور حول ما يأتي :

١- يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم.

٢- يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين ، لأنه أهم عمل مسيحي.

٣- تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها .

٤- ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين ، وتحرير النساء ، وتنصير أمثال كامل في بيروت وعماد الدين في الهند ، وميرزا إبراهيم في تبريز وأعمالاً أخرى من هذا القبيل من شأنها أن تولد مجهودات جديدة يجب أن يحمد المبشرون بسببها نعمة الله عليهم. [١]

وينقل الشيخ رحمت الله الهندي عن ترجمة سيل للقرآن الكريم المطبوعة سنة ١٨٣٦ م وصيته لإخوانه من المبشرين ، وتتمثل في أمرين :

الأول : لا يقع الجبر منكم على المسلمين .

والثاني : لا تعلموهم المسائل التي هي مخالفة للعقل ، لأنهم ليسوا حمقى نغلب عليهم في هذه المسائل ، كعبادة التماثيل والعشاء الرباني ، لأنهم يعثرون كثيراً من هذه المسائل ، وكل كنيسة فيها هذه المسائل لا تقدر أن تجذبهم إلى نفسها. [٢]

وعلى صعيد الكتب المؤلفة للنيل من العقيدة الإسلامية ينبهنا الشيخ رحمت الله الهندي إلى أسلوب المبشرين في تغيير وتعديل طعونهم حسب الرد :

ألا ترى إلى ميزان الحق ، إن نسخه ثلاث ، الأولى: النسخة القديمة ورد عليها صاحب (الاستفسار) ولما رد عليها وتنبه مصنفها أصلح النسخة القديمة فزاد في بعض المواضع ، ونقص في البعض ، وبدل في البعض ، ثم

---

[١] – الغارة على العالم الإسلامي أ . لُ شاتليه ، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ومساعد اليافي صـ ٢٩ ، ٣٠. ط/ مكتبة أسامة بن زيد بيروت.

[٢] – إظهار الحق جـ٣ صـ ٧٣٤ ، ٧٣٥.

طبع هذه النسخة المصلحة ، وكتب جواب الاستفسار وسماه بـ (حل الإشكال)[1]

إن العالم يتبدل، فلا بد أن تتبدل خطط المبشرين حتى تواكب الأحوال الجديدة، والأفكار التي تتفق مع البوذيين لا ينفع أن تقال للمسلمين ، ولهذا اتصفت حملات التبشير في أول الأمر بالإكراه ، ثم عدل المبشرون خططهم بعد أن تبينوا أحوال العالم الإسلامي ، وعلموا أن بإمكانهم باللين وبالوسائل الخفية تحقيق ما لم يستطيعوا أن يحققوه بالقوة الظاهرة. ومن الأساليب الخفية التي انتهجها المبشرون واستتروا خلفها ، التعاون في مجال الثقافة والحوار ومجالات الصحة والاجتماع وغيرها .

أولاً : التعاون في ميادين التربية والثقافة.

والهدف من هذا التعاون هو تهيئة الناشئة بأساليب مختلفة لقبول الثقافة العربية، ومن هنا نرى بوضوح أن المبشرين ينصحون لأنفسهم بالتلون في سبيل الوصول إلى أهدافهم . في بداية الأمر كانوا يتساءلون : كيف أن المدارس في البلاد التي يحتلونها تعلم القرآن والعلوم الإسلامية ، ولا تعلم الكتاب المقدس.؟ تلك أمانيهم أن نكفر كما كفروا فنكون سواء ، ولما عجزوا عن إبدال هذا بذاك، تمنوا أن نصبح بلا دين ، فإن ابتغينا العودة بعد ذلك إلى الدين كان أمامنا الكتاب المقدس ، الذي يتصور المبشرون أننا سنقبله عندئذ بكل سرور.

وقد تحقق جانب من أهدافهم بجعل الدين مادة غير أساسية في مراحل التعليم المختلفة ، تم هذا بسعي المبشرين ، وجهودهم المستمرة ، فقد اعتقدوا أن الأثر (المفسد) للإسلام يبدأ من الطفولة ، فالطفل الصغير عندما يساق إلى عقيدة معينة ويشب عليها يصعب تخليه عنها بعد البلوغ .

---

[1] - السابق جـ٤ صـ ١١١١

والمعروف أنه كان ثمة نوعان من المدارس : مدارس الإرساليات ، وتلك يشرف عليها المبشرون والمبشرات مباشرة ، والمدارس القومية ، وقد عُهد بها إلى رواد التنوير ، فخلت مناهجها من التاريخ الحقيقي لأمتنا الإسلامية ، وشوه تاريخ الإمبراطورية العثمانية ، وأبعدت دارسة الدين أو أسئ إليها في بعض المقررات ، فتعلمت المرأة ، ولكنها لم تتعلم إلا على النظام الغربي. ففقدت الهوية الإسلامية وأصبحت تتطلع إلى حياة كلها لهو ومتعة ، تتقلب فيها من لذة إلى مرح ، ومن لهو إلى عبث . وأبعد ما تفكر فيه أن تصبح أماً صالحة قانتة لله رب العالمين.

وبعد أن ألغيت المدارس التبشيرية في عام ١٩٥٦م في مصر والسودان ، وطلب إليها إذا كانت تريد أن تستمر أن تتقيد بأنظمة الحكومتين وبمنهاجهما.[١] بدأت عملية توفيق الأوضاع بتعديل المنهج ، دون الهدف ، وعهد إلى منظمات يسيطر عليها الغرب مثل اليونسكو القيام بمهمة إتمام تعديل المناهج في المدارس القومية.

وفي ظل قيام هذه المنظمات بدورها يخيل لكثير من المسلمين أن التبشير قد زال، وبالتالي يتعاملون بلا حساسية مع بعض المؤسسات ذات الأهداف التبشيرية غير الظاهرة .

وكانت الدول الكبرى قد بدأت بعد الحرب العالمية الأولى في بناء مؤسسات للتعاون الفكري بينها وبين الدول المهزومة ، وقد نتج هذا عن الإدراك الكامل بأن الخاسر دائماً هو الأضعف ، ومن هنا جاءت فكرة إنشاء معهد دولي يهتم بألوان متعددة من النشاطين التربوي والثقافي.

وقد اهتم هذا المعهد الدولي بمصر منذ المرحلة المبكرة من وجوده ، ويرجع بعضهم ذلك إلى أن المعهد كان يحاول أن يدعم صفته الدولية بضم

---

[١] – التبشير والاستعمار صـــ ١١١ هامش

عدد من الدول التي تنتمي إلى حضارات غير أوربية ، وكان وضع مصر الثقافي والحضاري يؤهلها في رأى المسئولين عن المعهد إلى أن تصبح حلقة الوصل بين الحضارة الأوربية والشرق الإسلامي ، وقد مثل مصر في المعهد شخصيات من أمثال أحمد لطفي السيد ومحمد عشماوى وطه حسين.

يقول مدير المعهد في خطاب بعث به إلى الملك فؤاد :

إن انضمام مصر إلى منظمة التعاون الفكري يعنى إبراز رغبتها في دعم الجهود الرامية إلى التقارب الفكري والروحي بين الشعوب ، وفى هذه الحالة سوف تبدو مصر كهمزة وصل بين الحضارة الأوربية والحضارة الإسلامية ، وذلك دور رائع يؤهلها كل تاريخها للقيام به)[1].

ولم يكن اهتمام المعهد بمصر صارفاً عن اهتمامه بدول عربية أخرى كسوريا ولبنان، ويتضح من مذكرة مؤرخة في ١٤ إبريل ١٩٤٥م وموقعه من السيد / مونتناك سكرتير اللجنة الدولية للتعاون الثقافي ، بعد زيارة له في كل من سوريا ولبنان أنه اقترح على اللجنتين الوطنيتين في كل من سوريا ولبنان الاهتمام بالموضوعات التالية:

- الإعداد والتوجيه المهني للشباب.

- دراسة محتوى الكتب الدراسية وكيفية معالجة القضايا الدينية والتاريخية في هذه الكتب معالجة موضوعية .

- الدور التربوي والتثقيفي لوسائل الإعلام الحديثة .. الخ

كما تساءل هناك عن إمكانية نشر الكتابة بالحروف اللاتينية في دول الإسلام.[2]

---

[1] – العرب واليونسكو تأليف حسن نافعة صـــ ٢١ ، ٢٢ ط/ عالم المعرفة ١٣٥

[2] – السابق صـــ ٢٩ ، ٣٠

ولا ريب أن هذه الأفكار تتجاهل الخصوصيات الثقافية واللغوية ، فتجعل ميدان عمل المعهد الثقافة العالمية، مؤمنة أن مسألة ذهاب الأضعف باتت أمراً لا مفر من حدوثه.

وكما أن فكرة إنشاء منظمات دولية مثل عصبة الأمم المتحدة قد انبثقت من معسكر الدول المنتصرة ، فقد جاءت فكرة الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية ، بإقامة مؤسسات عديدة تابعة لها مثل (اليونسكو) التي أنشئت لمعالجة القضايا المتعلقة بالتربية والثقافة ، ومنظمة الصحة العالمية التي أنشئت لمعالجة المشاكل الصحية وغيرها من المنظمات ذات الأهداف الاجتماعية والثقافية.

ونطاق عمل اليونسكو يدور حول أهداف التبشير لكن بشعارات وأفكار غامضة من نحو :

١- تسهيل حرية تداول الأفكار عن طريق الكلمة والصورة ، وتمكين الشعوب جميعها من الاطلاع على ما ينشره كل شعب منها.

٢- اقتراح الأساليب التربوية المناسبة لتهيئة أطفال العالم أجمع للاضطلاع بمسئوليات الإنسان الحر.

٣- صون وحماية التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار التي لها أهميتها التاريخية أو العلمية.[١]

ومن هذه المهام يظهر لنا أن المنظمة لا تعمل على تأمين استقلال الثقافات في الدول الأعضاء ، وإنما الهدف هو وحدة الثقافة والفكر ، مع احتفاظ الطرف الأقوى بالسبق في مجال العلوم والتكنولوجيا ، وبقاء الأضعف مؤمناً بضعفه ، وبحاجته الماسة إلى من يطور له مناهج وأساليب الدراسة، ولهذا لا نعجب عندما يفتخر بعض المسئولين عن التعليم بأنهم يستعينون بخبراء أجانب في مجال تطوير مناهج التعليم،

---
[١] – السابق صـ٤٧ ، ٤٨

وكأننا لم نلبث أن شعرنا بالعجز بعد أن طردنا الاستعمار فألجأتنا الحاجة إلى الاستعانة بمن يصنع لنا العقول التي تكفر بقيم وثقافة الأجداد.

هكذا يتضح لنا أن الهدف غير المعلن للتعاون الثقافي بين الدول الإسلامية والغربية هو تهيئة الناشئة من أبناء المسلمين بأساليب مختلفة لقبول الثقافة الغربية . وفي سبيل ذلك يعمل النفوذ التبشيرى على الفصل بين الديني والمدني في التعليم ، وقد ملك المستعمرون في بلادنا كل مرافقها وكل خيراتها وهيمنوا على التعليم والثقافة وشطروا التعليم إلى شطرين ديني ودنيوي ، ودعموا الثاني وحاربوا الأول، وقصروا الوظائف والمنح والبعثات على المتخرجين في التعليم الذي وضعوا هم مناهجه وخططه، فارتمى الناس على أعتابهم وتعلقوا بأذيالهم ، وحاربوا كل ثقافة إلا ثقافتهم ، وكل تعليم إلا تعليمهم ، ولا نزال حتى يومنا هذا نعاني من نتائج هذه السياسة ، سياسة محاربة المسلمين في مستقبلهم وأرزاقهم أو أن يذوبوا في حضارة الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده

وقد تستمع إلى نغمات الود ، فترى من يحاول إظهار المودة بالثناء على الإسلام ، فإذا ما قال : إن للإسلام دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية ، فعلينا أن لا نعجل بالفرح ، فإن هذا الكلام لا يعنى غير أنه يدخر الدور الأكبر ليعطيه للنصرانية.

ثانياً : العمل على نشر اللغات الأجنبية ومحاربة الفصحى .

يرى المبشرون أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم ما دام هناك لغة واحدة يتكلمها العرب ، ويعبر بها العرب والمسلمون عن آرائهم ، وما دام هناك (حرف عربي) يربط حاضر المسلمين بماضيهم ، فإذا حمل المبشرون والمستعمرون العرب على الكتابة باللغة العامية أصبح لكل قطر عربي لغته الخاصة . وكان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية

والحـرف اللاتينـي الاسـتعماريون الفرنسـيون وعلـى رأسـهم المستشـرق الفرنسي والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية لـويس ماسينيون ، ولقد حـاول أن يبث دعوتـه هذه في المغرب وفى مصـر وفى سوريا ولبنان خاصة [١].

وهكذا نجد بوضوح أن الحملة على العربية الفصحى إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين اللغة والدين ، وحملة علـى العروبـة والإسـلام ، وأمنية في أن يصبح القرآن لا صلة له بالحياة .

ولهذا تجاهلت الإدارات الاستعمارية ثقافة المسلمين ، وتحول هذا التجاهل إلـى عداء فعلى ، وبوجـه خـاص تجـاه اللغـة العربيـة والـدين الإسـلامي ، ولـم تكـن ريـاض الأطفـال ومـدارس المرحلـة الابتدائيـة فـي المسـتعمرات سـوى وسائل لنشر لغة المستعمر، وكان معظم المدارس خاضعاً للكنيسة الكاثوليكية كتعبير عن وحدة الكنيسة والدولة.

وفى بعض المستعمرات كان التعليم يقوم على أساس إلغاء استخدام التلاميذ للغـات المحليـة ، وغـرس التقـوى فـي قلـوبهم ، وكـان يـتم الإنعـام بأسـماء القديسـين علـى مـدارس أفريقيـا المسـتعمرة ، أو يطلـق عليهـا أسـماء الحكـام والمكتشفين والحكام العموميين للسلطة الاستعمارية.

وقـد نفـذ البلجيكيـون فـي المجـال التعليمـي سياسـة لغويـة يمكـن أن تـروق للمـواطنين المعاصـرين ، فقـد أصـروا علـى أن تكـون لغـة التعلـيم الابتـدائي واحدة من اللغات الأفريقية الرئيسية الخمس في المنطقة ، ومع ذلك فـإنهم فـي التطبيق استخدموا هذا القرار لإبعـاد المتعلمين عن العـالم الأوسع للمعرفـة ،

---

[١] – التبشير والاستعمار صـــ ٢٢٥

وذلك لأن البعثات التبشيرية لم تترجم إلى اللغات المحلية سوى الأشياء التي اعتقدوا أنها مرغوب فيها .[١]

وعلى غرار ما تفعله قوى الاستنارة كانت القوى الاستعمارية الفرنسية بشمال أفريقيا لا تقبل بارتياح المدارس التي أقامها الجزائريون والتونسيون بالجهود الذاتية، فقد تمثل هدف المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء الإصلاحيين في الجزائر في ضرورة أن تكون مدارس حديثة وعلمية على أن تقدم في الوقت نفسه التعليم في سياق الثقافة الجزائرية والعربية.

وكان التلاميذ بمدارس جمعية العلماء يبدءون دروسهم بأن ينشدوا معاً (العربية لغتنا ، والجزائر وطننا ، والإسلام ديننا) ومن ثم لم يكن من المستغرب مطلقاً أن ينتقم المستعمرون من التلاميذ والآباء ، وأن يتخذوا إجراءات قمعية بحجة أن تلك المدارس مرتعاً للعصيان.

وقد طلبت البعثات التبشيرية الإشراف على المدارس لأن ذلك كان من بين خططها لجذب انتباه الكنيسة ذاتها ، ولأن هذه البعثات كانت تعتبر نفسها من الخبراء فيما يتعلق بالإمبريالية الثقافية ، والتي أطلقوا عليها التمدن.[٢] والتي كانت الأساس الذي ارتكزت عليه ، وانطلقت منه قوى الاستنارة في الوطن العربي ، ولا تزال الحملة على اللغة العربية قائمة إلى اليوم حيث تقوم القنوات الإقليمية للتلفزيون المصري بإذاعة نشرات الأخبار باللغات الأوربية ، وأتعجب عندما يتجاهل القائمون على إعداد هذه النشرات وإذاعتها ميول الفلاحين والعمال في وسط الدلتا وجنوب الصعيد الذين لا يعنيهم أن يستمعوا للأخبار بالعربية فضلاً عن الإنجليزية.

---

[١] - السابق صـــ ٣٦٥ ، ٣٦٦.

[٢] - أوربا والتخلف في أفريقيا صـــ ٣٩٨ ، ٣٩٩

ثالثاً : الحــوار

الحـوار بـين الإسـلام والنصـرانية هـو الثـوب الجديـد الـذي يخفـي إرادة التنصير ، يقول دكتور السيد محمد الشاهد : إن طرح هذه القضية أصبح يثير عند المسلمين إحساساً بـالخطر الـذي يتهددهم من وراء محـاولات التنصـير بأساليبه الخفية التي قد لا يكتشفها المسلم إلا بعد فوات الأوان ، ويزداد هذا الإحسـاس بـالخطر الـذي يـدفع أكثـرهم إلـى الابتعـاد عـن كـل مـا يـدعو إليـه النصارى ، وإن كان مظهره مقبولاً لا يبدو فيه سوء النية ، لأن المبشرين لم يتركوا باباً إلا طرقوه طلباً لتنصير المسلمين ، وخاصة في بلاد أفريقيا وآسيا الفقيـرة حيـث الحاجـة الماسـة إلـى الطعـام والعـلاج والتعلـيم ، فكانـت هـذه المجالات هي أوسع الأبواب التي دخلوا منها واستطاعوا بالفعل تحقيق كثير مما كانت تصبو إليه أنفسهم ، وإن لم يتم لهم كل ما أرادوا وخططوا له.

هذا الماضي الذي يدفع إلى الحـذر بـل والتشـاؤم كـان سـبباً فـي إسـاءة الظـن بكل ما يدعو إليه النصـارى ، وخاصـة إذا كانـت الـدعوة موجهـة مـن الكنيسـة بشـطريها الكـاثوليكي والبروتسـتانتي أو غيرهـا مـن الكنـائس ظنـاً مـنهم بـأن الحوار هو الثوب الجديد الـذي يخفـي إرادة التنصـير ، ولا يسـعى إلـى شـيء آخر مما يظهر فيما يقال في هذا الشأن مثل (محاولة التقريب بين الـديانات) و (إفشـاء السـلام بينهـا) أو (توحيـد صـفوفها تجـاه الإلحـاد) أو مـا إلـى ذلـك مـن أهداف معلنة من المؤسسات أو الأفراد الذين ينظمـون ويـدعون إلـى مثـل هـذه الندوات.

ويقـوى هـذا الاحتمـال مـا يصـدر عـن بعـض كبـار المنصـرين حـول فشـل الأسـاليب التقليديـة للتنصـير وضـرورة البحـث عـن وسـيلة أخـرى تكـن أكثـر فعالية وأبعد أثراً.

ويتساءل المسلمون : لماذا تـأتي الـدعوة إلـى الحـوار مـن جانـب الكنـائس أو المؤسسات الدينية النصرانية التي تعيش في أوربـا ، بينما لا نجد حماساً شديداً

في الدعوة إلى مثل هذا الحوار من جانب الكنائس الشرقية التي كان ينتظر أن تكون أكثر اهتماماً بالحوار مع المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، ويشكلون الأغلبية الساحقة في المجتمعات التي يعيشون فيها.؟

لعل السبب في هذه الظاهرة أن الكنائس الشرقية أعلم من غيرها بأحوال المسلمين، وبتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية ، وعدم جدوى هذه الوسيلة لتنصيرهم.

وإن كان لهذا التفسير ما يبرره ، إلا أن هناك تفسيراً آخر لعله أقوى وأقرب إلى الصحة وهو أن الكنائس التي تعيش بين المسلمين ويتكلم تابعوها العربية التي هي لغتهم الأم يقرؤون مؤلفات المسلمين ويعرفون حججهم في الدفاع عن دينهم ، الحجج المثبتة لصحة الدين الإسلامي ، وكذلك الحجج المثبتة لتحريف الأناجيل التي بنى دينهم عليها ، هذا من شأنه أن يجعل نتيجة الحوار في غير صالحهم ، ولعلها تؤدى إلى عكس ما ينتظرونه.

ولعل وجود النصارى في المجتمع الإسلامي كأقلية ضعيفة الشأن في مقابل أكثرية ساحقة من المسلمين لا يكون مناسباً أو مساعداً على ظهورهم بمظهر الواثق من نفسه ومن قوة حجته ، على عكس وضع الكنائس الغربية التي تدعو إلى الحوار على أرضها حيث تكون الأغلبية الساحقة لأتباعهم ، ولا تشكل المجموعة الإسلامية سوى أقلية ضعيفة الشأن .

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون تفسيراً لعدم حماس الكنائس الشرقية للدعوة إلى الحوار مع المسلمين ، وهو تخوفهم من احتمال أن يسبب دفاعهم عن عقيدتهم وإبداء حججهم إثارة فتنة طائفية في المجتمع الذي يعيشون فيه .[1]

وقد أخذ الحوار الإسلامي المسيحي طابعاً خاصاً منذ المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥م) فقد ناقش المجمع على مستوى مذهبي - عقائدي مشكلة العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية.

---

[1] - دكتور : السيد محمد الشاهد - التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام (المقدمة) ط / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع أولى سنة ١٩٩٤م

كما أولى هذا المجمع اهتماماً خاصة بالإسلام ، فللمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين ، معترفاً بوضعهم الديني المتميز ، ولهذا شبهت المطبوعات الكاثوليكية التغيير الحاصل في موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ (الانقلاب الكوبرنيكى) وهو تشبيه غير مبالغ فيه ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، أن رسالة البابا بيوس الثاني عشر الصادرة في أواخر الخمسينات رأت في انتشار الإسلام في أفريقيا خطراً على الكنيسة ، وأن كتاب (تاريخ الإرساليات الكاثوليكية) المؤلف من أربعة مجلدات والصادر في المرحلة نفسها ، نظر إلى نشاط الإسلام وفعاليته العالمية ككارثة تضاهى خطر الشيوعية.[1]

وبعد تصحيحات وتعديلات كثيرة أثناء مناقشة المجمع المذكور جرى الاقتراع علنية في الخامس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٦٥م على نص التصريح الخاص بـ (علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية) فوافق عليه ٢٢٢٦ أسقفاً في حين عارضه ٨٨ صوتاً فقط ، وقد جاء فيه :

إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد ، ألحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء ، خالق السماء والأرض ، ومكلم البشر، الذين (أي المسلمين) يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية ، كما خضع له إبراهيم ، الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي ، وأنهم يجلون يسوع كنبي ، وإن لم يعترفوا به كإله ، ويكرمون أمه مريم العذراء ، كما أنهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً (!)

علاوة على ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت ويعظمون الحياة الأخلاقية أيضاً ويردون العبادة لله لا سيما الصلاة والزكاة والصوم .

---

[1] - الإسلام والمسيحية تأليف أليكسى جورافسكي ترجمة خلف الجراد صـ ١٣٧ ، ١٣٨. ط / عالم المعرفة ١٣٢.

وإذا كانت قد نشأت على مر القرون ، منازعات وعدوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين ، فالمجمع المقدس يحضُّ الجميع على أن يتناسوا الماضي ، وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل)

وأثناء إعداد هذا التصريح اصطدم اللاهوتيون الكاثوليك بمشكلة جديدة تتمثل في إيجاد المصطلح الذي يناسب العقيدتين المسيحية والإسلامية على حد سواء ، وهكذا فإنه بسبب عدم إمكان العثور على مكافئ دقيق في اللغة العربية للمفهوم المسيحي (الرب الشخصي) أو (شخص الرب) (شخص الآب) استبدل في المشروع النهائي للتصريح بمفهوم (ألحي القيوم) المتطابق مع القرآن ، والسبب في استبعاد مفهوم (الشخصي) أنه يتضمن في اللغة العربية لوناً من (التجسيم) وتشبيه الله بالناس ، وهو ما يتعارض مع الجوهر الإلهي وفق العقيدة الإسلامية.[١]

والمعروف أنه كانت قد تشكلت هيئة رسمية من قبل الكنيسة الكاثوليكية لإجراء الحوار مع المسلمين ، وأصبحت هي أمانة السر (السكرتارية) لشؤون الديانات غير المسيحية، وبدءاً من عام ١٩٧٩م أصبحت السكرتارية تنظم نوعاً من المدارس الصيفية للقساوسة والمبشرين العاملين في البلدان الإسلامية ، بهدف رفع تأهيلهم في حقل العلوم الإسلامية ، وتصدر مجموعة من الدوريات المهمة .

وفي الحادي والثلاثين من آذار ١٩٦٥ م تحدث كاردينال الكنيسة الكاثوليكية ف. كينيغ أمام العلماء المسلمين في جامعة الأزهر (بالقاهرة) وهو حدث ذو أهمية رمزية بالنسبة للكنسية ، إذ أنه للمرة الأولى منذ ألف سنة تقرباً من وجود هذا المركز العلمي الأضخم في العالم الإسلامي يتحدث

---

[١] - الإسلام والمسيحية صـ ١٤٣ ، ١٤٥

عالم مسيحي ، ومنذ ذلك الحين تجرى لقاءات إسلامية - مسيحية بصورة مستمرة .[١]

وممن دعوا إلى إقامة حوار ولكن مع المستشرقين الأستاذ الدكتور : محمود حمدي زقزوق في كتابه الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، فإنه رأى أن الحوار مع المستشرقين المعتدلين دعماً لموقفهم وتقوية لجانبهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة في يوم من الأيام تياراً عاماً في الغرب ، يكون له تأثيره الفعال في تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام في الغرب.

وفى الوقت الذي تدعو فيه الكنائس الغربية إلى الحوار أذاع راديو لندن مساء الجمعة ٥ / ١٢ / ١٩٩٧م خبر زيارة رئيس أساقفة كانتربرى إلى باكستان ، وقد ناشد رئيس الأساقفة باكستان بالسماح بحرية العقيدة ، كي يدخل الناس في المسيحية (حسبما أذاع الخبر) وقد أدلى رئيس الأساقفة بهذا التصريح في كلمة ألقاها في الجامعة الإسلامية بباكستان .

وفى هذا الوقت كانت روز اليوسف تعمل بواسطة قوى الاستنارة على الهجوم على حد الردة المعطل بموجب سريان القوانين المدنية، ولعلهم كانوا يودون إسقاط الحد الذي يمنع من تحقيق رغبة رئيس الأساقفة.

وتجد فرقاً كبيراً بين كلام شيخ الأزهر الذي زار بريطانيا في نفس الفترة، ووقف يطالب بالتعايش السلمي بين أتباع الأديان الثلاثة ، ودعا إلى الحوار البناء ، وزار وكيله روما تمهيداً لمواصلة الحوار ، وفى الحقيقة تبرز هنا مشكلة حول الصلة بين الحوار والدعوة إلى الإسلام ، حيث لا يفكر المسلمون في ذلك ، وليست لديهم نزعة تقاوم في هذا الشأن، وقد جرت في المجمع الفاتيكانى الثاني محاولات لمقاومة النزعة الرامية إلى جعل الحوار

---

[١] - الإسلام والمسيحية صـ ١٥٥

ذا طابع إنجيلي تبشيري ، كما ورد في مقررات المجمع ، ولكن يمكن القول بعبارة مقتضبة :

إن الحوار الذي أريد به أن يكون أسلوباً جديداً للتبشير المسيحي لم يعد كافياً على الإطلاق ، حيث إن التحول الحالي في توجه الكنيسة بالنسبة لموقفها من العالم أدى بدوره إلى إعادة النظر في ما يخص مفهوم الرسالة المسيحية ، ومهام التبشير المسيحي في الشرق ، ويفضل اللاهوتيون الكاثوليك المعاصرون استعمال صيغة (الاهتداء إلى المسيح) بدلاً من الصيغة القديمة (التحول إلى المسيحية) بحيث إن ذلك التحول أو الاهتداء يجرى ليس على حساب القضاء على الديانات الأخرى ، وإنما من خلال (نضجها) الطبيعي.

فالمبشر المسيحي يتوجب عليه أن يساعد في تسريع ذلك النضج ، بحيث ينطلق من أن تلك الديانات والعقائد (غير المسيحية) تشكل أحد المداميك في البناء الإلهي للخلاص ، وعلى المبشر المعاصر ألا يحصر اهتمامه بجذب أكبر عدد من الأتباع وبـ (النمو الكمي) للكنيسة فقط لأن الذي يهدى ليس المبشر ، بل هو الرب ، أو إسقاط فهمه الخاص على الحقيقة الإنجيلية (ليس أنا الذي أملك الحقيقة ، لكن الحقيقة هي التي تملكني) بل عليه أن يدرس بانتباه شديد ودون نظرة مسبقة الآراء والتصورات والعقائد الدينية المحلية ، التي يحتك بها في عمله الميداني ، ساعياً بذلك إلى إيجاد لغة للتفاهم مع أصحابها.

وبهذا يلقى على عاتق المبشر دور القائد الروحي ، المؤثر في تكوين الصفوة الفكرية المحلية ، أما إلى أي مدى يمكن أن توجد القيم الإنجيلية في

ثقافة هذه الصفوة ؟ فإن ذلك يرتبط بالحد ، الذي يستطيع المسيحيون بلوغه في استيعاب ، وتمثل هذه أو تلك من الثقافات غير الأوربية.[١]

هدف الحوار

يحتار المسلمون دائماً من أجل الوصول إلى الهدف الحقيقي الذي تنشده الكنيسة من وراء هذا لحوار ، وبالقطع لا تهدف الكنيسة من وراء ذلك الوصول إلى الحقيقة ، وإنما تهدف إلى خلق ثوب جديد لإنعاش أعمال التبشير التي أصبحت مكشوفة للعالم الإسلامي ، الظاهر منها والمستتر سواء ، وفي رأى ماسينيون أن بإمكانية أن تتخلى المسيحية عن بعض الشيء ، في مقابل أن يتخلى الإسلام عن كل شيء ، وهذا يعيد إلى ذاكرتنا الأحداث الأولى في تكوين المسيحية ، فقد قبل آباء الكنيسة المجتمعين في نيقية عقيدة الصلب ، كي يربحوا انضمام الإمبراطور الوثني إليهم .

لقد زعم ماسينيون أن المسلمين يعتقدون في شأن عيسى بن مريم على ما جاء في القرآن ، من أجل ذلك يرجو أن توجه الجهود إلى جعلهم يعتقدون بعيسى ابن مريم نفسه ولكن باسمه المسيحي.[٢] يسوع المسيح .. الرب يسوع .. حتى يصلوا إلى (الإله الابن).

وإذا كان الإسلام في نظر بعض المستشرقين عبارة عن بدعة (هرطقة) مسيحية ، وأراء محمد لصيقة بتعاليم آريوس ، وبالتالي فإنه تأسيساً على ذلك طرح أمام المبشرين المسيحيين مهمة إكمال عقيدة نبي الإسلام (الناقصة) وتطهيرها من الأفكار الهرطقية التجديفية تجاه شخص المسيح ، فإن الإسلام بالنسبة لماسينيون أكبر من أي بدعة مسيحية ، فهو أي الإسلام يشكل وحدة عقائدية مستقلة ، تتمتع بمباركة الرب لأنها ترجع من حيث منابعها إلى الصلاة الثانية لإبراهيم في بئر سبع عن ولده البكر إسماعيل ، وشعبه العرب

---

[١] - الإسلام والمسيحية صـ ١٧٠ ، ١٧١

[٢] - التبشير والاستعمار صـ ٤٤

وبرأي ماسينيون فإن الحلاج الملتزم بالعقيدة الصحيحة للإسلام كان أقرب شخص مسلم إلى فكرة المسيحية حول وحدة اللاهوت والناسوت ، وبناءً على ذلك فإن تصور ماسينيون للدين الإسلامي يستند بالدرجة الأولى إلى نقطتين :

١- انتماء الإسلام للملة الإبراهيمية أو للشجرة الإبراهيمية.

٢- النهج الذي سلكه الحلاج في تفسيره وممارسته للإشكالية اللاهوتية للإسلام.

لقد أولى ماسينيون أهمية كبيرة أيضاً لدراسة المسائل اللاهوتية العامة ، التي تتسم بأهمية رمزية ، وتشكل محطات أساسية في تاريخ العلاقات التفاعلية المتبادلة بين الإسلام والمسيحية ، مثل تبجيل مريم العذراء في الإسلام والمسيحية ، وتأثير المريمية المسيحية في إجلال فاطمة الزهراء ، وتقديسها عند المسلمين ، والتقديس المشترك (الإسلامي - المسيحي) لأهل الكهف السبعة ، الذين ناموا في كهفهم الواقع في أفسس ثلاثمائة وتسع سنين ، ومعاهدة نجران بين محمد والنصارى ، والبعثة السلمية لفرنسيس الإسيزى إلى الشرق الأدنى وخطبته العقائدية في قصر السلطان المصري (الملك الكامل) والملامح المشتركة بين الزهد المسيحي والإسلامي ويعتقد لويس ماسينيون أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة للحوار.[١] أو بالأحرى للتبشير !

رابعاً : الخدمات الاجتماعية

وإذا كان المبشرون يستطيعون أن يصلوا عن طريق المدارس إلى التلاميذ ، وإلى الخواص عن طريق الحوار ، فللوصول إلي العوام طريق آخر ، هو طريق الخدمات الاجتماعية ، وقد أدرك المبشرون أن أهم المجالات

---

[١] - الإسلام والمسيحية صـ ١٢٣ –١٢٧

الاجتماعية هو المستشفيات ، لأن الناس لا يمكن أن يستغنوا عن خدمات المؤسسات الطبية ، ولهذا أنشئوا في بلادنا العديد من المستشفيات ، لا حباً فينا ، وإنما لأجل الأعمال التبشيرية ، وقد انتشرت هذه المستشفيات في العديد من محافظات الجمهورية.[١]

وكذلك يحرص المبشرون على نشر الكتب الثقافية التي تهز الثقة في الإسلام ، وبأرخص الأثمان ، وقد شاهدت أحد باعة هذه الكتب في معرض الكتاب ، يبيع مجموعة كبيرة من قصص الأنبياء الخاصة بالأطفال، والمأخوذ من العهد القديم ، مقابل ثمن زهيد ، (جنيه ونصف الجنيه لمجموعة كبيرة من القصص) ونظراً لرخص الثمن ينكب على شراء هذه الكتب الأمهات والأباء من معدومي الدخل الذين يرغبون في إدخال البهجة على أطفالهم بهذه الكتب .

وعلى صعيد المؤتمرات والندوات نرى الدعوة إلى الرفق بالحيوان ، وحقوق الطفل، وغيرها من أمور يتسلل من ورائها المبشرون حتى يكونوا على صلة بالعمال الذين ما كان لهم ليتقبلوا أفكار المبشرين لو كانت ظاهرة ، لأن الإسلام في نظرهم نظام اجتماعي كامل ، وكل ما يأتي به المبشرون أقل مما في دينهم.

وتوجد على المستوى الثقافي والاجتماعي ظواهر عديدة تساعد في الإبقاء على اندماج البلدان المتخلفة في النظام الرأسمالي الغربي ، وأن تظل في الوقت نفسه رهن إشارة البلدان الاستعمارية، وقد كانت الكنيسة المسيحية

---

[١] – في مدينة منوف إحدى هذه المستشفيات ، وتسمى (هرمل) فيها العديد من الأطباء الأجانب، يعملون من أجل راحة المرضى ، ولا تحس بشيء غير عادى ، غير أن تذكرة العلاج التي تحملها طوال مدة العلاج مكتوب عليها عبارة من الكتاب المقدس تقول (أنا الرب شافيك) وبطريق غير مباشر يتحدث الأطباء والعاملون أحياناً عن الرب يسوع ، فيخرج المريض من كل ذلك ، أن يسوع هو الرب الشافي ، وإذا حدثت بعض العوام : عما إذا كانوا يعتقدون أن المسيح له القدرة على شفاء المرض .؟ يقولون : إنهم ذهبوا للعلاج ، وهذا الكلام لا يفهمونه ، ولا يعلقون أنفسهم به ، ويبدو بوضوح أن جهود المبشرين تضيع سدى ، وكما يقال في الأمثال العامية : رزق الهبل على المجانين.

دوماً إحدى الأدوات الرئيسية للتغلغل الثقافي والهيمنة الثقافية ، وفي بعض الأحيان تقوم أشياء رئيسية مثل اللغة بتعزيز آليات الدمج والتبعية ، وإن اللغتين الإنجليزية والفرنسية تستخدمان على نطاق أوسع في أفريقيا كأدوات للتخاطب بين الإفريقيين ومستغليهم أكثر منها أدوات بين الأفريقي والأفريقي ، وعلى سبيل المثال لا يمكن أن يوجد ما هو أقل ضرراً وأكثر تسلية من الموسيقى ، ومع ذلك فقد بلغ الأمر بالأمريكيين أن يأخذوا الموسيقى الشعبية ، أي موسيقى الجاز التي تعتبر نموذج موسيقى الشعب الأسود المضطهد ، ويجعلوا منها دعاية أمريكية عبر إذاعة صوت أمريكا الموجهة إلى أفريقيا.[1]

الفصل الرابع

المرأة بين جمود الجاهلين وجحود المستنيرين

[1] - أوربا والتخلف في أفريقيا صـ ٤٥.

كانت المرأة في الجاهلية توضع مع ما تركه الرجل من متاع ، تورث كما يورث المتاع لا حق لها ولا حرية، وإذا مات الرجل قام أكبر أبنائه فألقى ثوبه على امرأة أبيه فيورث نكاحها.[1] واستمر ذلك إلى صدر الإسلام حيث أنقذها الله بنهى المؤمنين عن ذلك ، قال تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا] [2]

وكان الجاهليون يفضلون البنين على البنات ، لأن البنين يصبحون محاربين مدافعين عن القبيلة، التي ينتمون إليها ، بينما البنات كن يحتجن إلى من يدافع عنهن ، فالبنت من الناحية الحربية كانت تمثل عبئاً ثقيلاً على الرجل ، ونتيجة لذلك لجأ إلى وأدها مخافة للمذلة والعار.

كذلك كانوا يئدون من البنات من كانت زرقاء أو برصاء أو كسحاء تشاؤما منهم بهذه الصفات ، وقد يتأخر وأد البنت لسفر الوالد أو شغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات[3] .

ولم يكن وأد البنات عادة جماعية ، حتى يقال أنها بلغت لدى عرب الجاهلية مبلغ العرف ، وإلا أدى ذلك إلى انقراض نسلهم ، وإنما ظلت هذه العادة محصورة في نطاقها الفردي والشخصي بين الوالد وابنته ، بمعنى أن الوأد لم يكن منصباً على المرأة بوصفها امرأة ، أماً أو زوجة أو أختاً ، وإنما كان قاصراً على الابنة وحدها ، ولم يكن يقدم عليه سوى الأب وحده باعتباره المسئول أولاً عن إعالتها ، والمسئول ثانياً عن حمايتها والذود عن عرضه في شخصها ، فكان الوأد لتقديره الشخصي ، وقد يختلف من أب إلى

---

[1] - الإسلام والحضارة العربية صـــ١٣٢

[2] - النساء ١٩

[3] - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوى صـــ٥٨ ط / مكتبة السنة

أب ، بل قد يختلف لدى الأب الواحد من ابنة إلى أخرى، تبعاً لما يدخله من شعور بالعجز عن الإنفاق على ابنته، وتحمل عبء حمايتها ، وقد لا يئد الأب ابنته الأولى والثانية ، ولكنه يئد الثالثة عندما يشعر بزيادة العبء[1]

ورغم هذه المساوئ وافقت الجاهلية الإسلام في فضائل كثيرة ، فكانوا لا ينكحون الأمهات ، وأقبح ما صنعوا الجمع بين الأختين ، وعابوا المتزوج بامرأة أبيه وسموه الضيزن[2] وكان لهم نظام ثابت في الزواج ، فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثيرون منهم يستشيرون البنات في زواجهن[3].

ولم تكن كل امرأة في الجاهلية محرومة من حقوقها ، وإنما كان ذلك في حالات قليلة في بعض القبائل ، وخاصة في بنى أسد وبنى تميم، ومن كان يمنع النساء من التزوج بعد انقضاء عدتهن كان يفعل ذلك حمية جاهلية.

والمرأة الجاهلية كان لها شأن أكثر مما يخيل إلى كثيرين من الكتاب ، ومن تتبع أشعار الجاهلية يجزم بأنها كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية وتستشار في مهام الأمور ، وتشارك الرجل في كثير من أعماله، وكانت علاقتها بزوجها على درجة كبيرة من الرقى ، وكان في نساء الجاهلية حكيمات ، تزينت بذكر مآثرهن صحائف التاريخ. وممن نبغن في الرأي والحزم خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال ، تنتقي من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، ولما سمعت بأمانة وكرم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم - قبل الدعوة- بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه

---

[1] - حقوق المرأة حسنى نصار صـ ٦١ ط/ أولى مطبعة دار نشر الثقافة .

[2] - تاريخ ابن الوردي جـ١ صـ١١٥

[3] - تاريخ الإسلام / حسن إبراهيم جـ١ صـ٦٤

أفضل ما كانت تعطى من الرجال ، فلما نجح في تجارته ، عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها ، وهى أول من أسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت على ذلك حتى ماتت ..)[١]

- تعليم المرأة.

لم يكتف الإسلام بأن أجاز تعليم المرأة العلوم الدينية ، بل قد حث عليه ، وجعل تعليمها لازماً كلزومه للرجال ، فكانت النساء على عهد النبي ع يتعلمن منه الدين والأخلاق ، وكان أمهات المؤمنين مدارس تعلم على أيديهن الكثير من الأصحاب والأتباع ، وقد بلغت المرأة المسلمة بفضل المبادئ الجديدة التي أتى بها الإسلام ، مركزاً ملحوظاً في توجيه السياسة العامة للمجتمع الإسلامي الأول ، فاشتركت بطريق مباشر أو غير مباشر في مناقشة هذه السياسة ، وساهمت برأيها فيها بل واشتركت في الحروب ، وتولت في بعض الأحيان مركز الصدارة والتوجيه.[٢] وقد رأينا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقود جيشاً، وهذا يعنى بمفهوم عصرها وعصرنا أنها كانت تمثل زعامة سياسية ، لأن القيام بالأعمال الحربية لا يتأتى إلا إذا كان وراءه نزعة سياسية.

كما ظهر في النساء خطيبات يخطبن في أعمال الحروب والسياسة ولم ينكر عليهن أحد ، من ذلك أم الخير بنت الحريش البارقية ، كانت من الفصحاء ولديها المقدرة على ارتجال الكلام ، حكى أنها لما وفدت على معاوية قال لها . كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر .؟

---

[١] - تاريخ الآداب العربية جورجى زيدان جـ١ صـ ٣٩.

[٢] - حقوق المرأة صـ ٦٨.

قالت : لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة)[١]

وإذا كان الدين الإسلامي قد دعا إلى المساواة بين الأفراد وعدم التمييز بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الوطن ، فإن المساواة في المعاملة أو التعامل ، أو في العلاقات العامة أو الخاصة يجب أن تتدرج مع ما يوجد من مساواة في الخصائص الطبيعية ، وإذا جاء القرآن بالدعوة إلى العلم، فليس ثمة ما يمنع من تعليم البنات كما يتعلم الصبيان ، وليس ما يمنع من ذهابهن إلى الكتاتيب في الصغر ، فانتشار التعليم في البنات روح جديد لم يكن معهوداً في هذه العصور عند الأمم الأخرى.

والمعروف أن كثيراً من النساء نبغن في العلم والأدب والشعر ، وجاء ذكرهن ونوادرهن في كتب الأدب والتاريخ . وقد (عد البلاذرى بعض النساء الكاتبات في صدر الإسلام ، فذكر الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، وحفصة زوج النبي ع وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد التي قالت : علمني أبى الكتاب.

هذا ما كان من شأن المتعلمات في فجر الإسلام ، وقد استمرت هذه السنة متبعة جيلاً بعد جيل ، فكان الأمراء يعلمون بناتهم في داخل القصر ، ويجلبون لهن المعلمين والمؤدبين.

ونستدل مما كتبه القابسى أن البنات كن يتعلمن في الكتاتيب حيث قال : ومن صلاحهن ومن حسن النظر لهن ألا يخلط بين الذكران والإناث ، وقد

---

[١] - نهاية الأرب جـ ٧ صـ ٢٤١ ، ٢٤٢ ، والعقد الفريد جـ١ صـ ٣٠٠

قال سحنون أكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان ، لأن ذلك فساد لهن) [١]

ولهذا تقدمت النساء في العلوم ، ونبغ منهن جماعة اشتهرن بصناعة الطب ، ففي أيام بنى أمية بالشام اشتهرت امرأة اسمها زينب طبيبة من أود ، كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة ، فضلاً عمن اشتهر منهن بالعلم والأدب كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما.

وفى الدولة الإسلامية في الأندلس اشتهرت أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ، ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الأندلسي وأهله ، لا يقبل المنصور سواهما)[٢]

واستمرت المرأة تعيش أزهى عصورها ، حتى دبرت ضدها المؤامرات ، وقد حدث في تاريخ المرأة المسلمة مؤامرتان ، دارتا بين الإفراط والتفريط ، فمن ناحية الإفراط نرى الدولة الإسلامية في عصور التدهور قد جعلت المرأة خادمة للرجل ، وأقل شأناً منه في الحياة العامة ، مع أن المرأة هي التي تلد الرجل، وترضعه وتربيه وتشاركه البؤس والرخاء .

ومن ناحية التفريط نرى المرأة وقد عظموها ، وأكبروا من شأنها على حساب الرجل ، وبدرجة أخلت بقيم السلوك ، فاتخذها المشرعون في القوانين الجديدة مطية لأهوائهم ، والمرأة الجميلة يفسح لها في مجالات العمل ، فتسبق الأكثر علماً ونشاطاً بجمال جسدها ، وكثراً ما تقرأ في إعلانات الوظائف (حسنة المظهر)

---

[١] – التربية في الإسلام د/ أحمد فؤاد الأهواني صـــ ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨. ط/ دار المعارف.

[٢] – تاريخ التمدن الإسلامي جـــ ٣ صـــ ٢٠٤.

إنهم لا يريدون ذات المرأة ، ويظنون أنهم يحترمون المرأة.؟

وإذا كانت المؤامرة الأولى تمثل عدواناً على قيمة المرأة ، فإن الثانية تمثل تفريطاً في هذه القيمة ، وإهداراً لحقوقها كامرأة وكإنسان !

- المؤامرة الأولى: إفراط الجاهلين .

لم يكن أشد غيرة على العرض من العرب، وفى أخبارهم ما لا يحصى من الدفاع عن المرأة وعرضها ، وكثيراً ما نشبت الحروب في هذا السبيل ، وقد كان سبب الحرب التي قتل فيها زهير بن جذيمة العبسى ، أن ابنه شاساً اغتسل بجانب أبيات لبنى غنوى بماء لبنى عامر فناداه رجل غنوى أن يستتر فلم يحفل به فرماه بسهم فقتله ، وجر ذلك إلى حرب قتل فيها زهير المذكور وغيره .

وفى الوقت الذي كان العربي يموت في سبيل الدفاع عن شرفه وكرامته ظهرت في بلاد فارس دعوة مزدك (ولد ٤٨٧م) الذي أعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته ، كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب المساواة والاشتراك فيه.

ومن هنا أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والكلأ والنار ، وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين ، وصادفت هوى في نفوسهم ، وسعدت كذلك بحماية البلاط ، حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية ، وطغيان الشهوات ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه [١]

وتمثيلاً للفرق بين العرب والفرس في هذا الجانب قابل ما قاله عنترة العربي بما قاله أبو نواس الفارسي ، قال عنترة :

---

[١] – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـــ ٥٨ والغريب أن دعاة التنوير يعكسون هذا الواقع التاريخي، فيذكرون أن بلاد فارس كانت على درجة من المحافظة ، في الوقت الذي كان النساء المسلمات في صدر الإسلام سافرات ، ثم حدث أن استعرن الحجـــاب بـــاختلاطهن بأهل فارس !!

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي .. .. حتى يوارى جارتي مأواها

وقال أبو نواس:

كان الشباب مطية الجهل .. .. ومحسِّن الضحكات والهزل

والباعثى والناسُ قد رقدوا .. .. حتى أتيت حليلة البَعْل[١]

وقد ظل العرب يفخرون بالعفة ، حتى امتزجوا بالموالي، وقرب بنو العباس الفرس، فتغيرت الحال ، وظهرت نزعة التحرر الفارسية ، وكادت أن تتغلب على النزعة العربية الأصيلة ، فحدث رد فعل عنيف ضد هذا الغزو الأخلاقي ، كان من نتيجته أن حدث الانصراف عن تعليم البنت ، بسبب تدهور الدولة الإسلامية ، وشعور المسلمين بالضعف والخوف الذي دفعهم إلى مناهضة الغزو الأخلاقي القادم من بلاد فارس وغيرها ، ودفع الأجيال اللاحقة إلى التشبث بعدم تعليم الإناث ، ولم يكن هذا أمراً أساسياً في دينهم ، ولكنه تقليد لليهود والنصارى ، الذين لم يكونوا يحفلون بتعليم الإناث إلى هذا العصر.

وربما كانت فتوى كتلك التي كره فيها سحنون للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان ، لأن ذلك فساد لهن ، مشجعاً في ظروف معينة على هذا النهج الجديد.

وقد انعكس هذا الوضع الجديد الذي خلق في عصور التدهور على كافة مجالات أنشطة المرأة ، فقد ألف الوزير نظام الملك كتاب (سياسة نامة) أي كتاب السياسة ، وفيه يوصى الأمراء بأن يحذروا نفوذ النساء ، فهو يقول إنهن يعشن منزويات ، ولا يتمتعن بعقل كامل ، ويفقد الأمير الذي توجهه زوجته نفوذه ويسعى في خراب نفسه.[٢]

وهذا التحذير من نفوذ النساء ، لا يقدح في قدرهن في السياسة ، وإنما يدل على محاربة استغلال النفوذ أيا كان مصدره من الرجال أو النساء ، ولكن في هذا العصر ، ظهر نفوذ النساء على غيره ، مما أدى إلى فساد بعض الحكام الذين يخضعون لضغوط النساء ، وهذا الأمر قد لا يسلم منه العديد من المجتمعات العصرية.

---

[١] - تاريخ الآداب العربية جورجى زيدان جـ١ صـ ٩٥ ن ٩٦

[٢] - الغزالى البارون كارادوفو / ترجمة عادل زعيتر صـ ١٢٩ ط/ عيسى الحلبي . والمعروف أنه في عصر نظام الملك درست السياسة دراسة نظرية من قبل الأحكام السلطانية للماوردى

وزاد الأمر سواءً عندما اشترط بعض الفقهاء في بعض الوظائف (الذكورة) دون نص على ذلك ، وقد ذكر القلقشندى الذكورة ضمن الصفات المطلوب توافرها في كاتب الإنشاء ، وراح - شأنه في ذلك شأن كثيرين من كتاب عصره وما بعد عصره - يذكر العديد من الروايات التي يكذبها واقع التاريخ الإسلامي ، والنصوص القرآنية الصريحة .

ومما ذكره في ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال في حق النساء (جنبوهن الكتابة ، ولا تُسكِنُوهن الغرف ، واستعينوا عليهن بلا ، فإن نَعم تضَرِّيهنَّ في المسألة)

ومر على كرم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط فقال : لا تزد الشر شراً ، ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : أفعى تسقى سماً ، ثم يقول القلقشندى : ولله در البسامى حيث يقول :

ما للنساء وللكـــتا ** بة والعمالة والخطابة

هذا لنا ولهن مـــــنا ** أن يبتن على جنابـــة

ولا يفوت القلقشندى ذكر اعتراض الذين يرون تعليم المرأة ((فإن قيل : قد كن جماعة من النساء يكتبن ، ولم يرد أن أحداً من السلف أنكر عليهن ذلك ، فقد روى أبو جعفر النحاس بسنده إلى الحسن أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كانت تكتب في مكاتباتها بعد البسملة (من المبرأة عائشة بنت أبى بكر ، حبيبة حبيب الله ..)

وحكى جعفر بن سعيد أنه ذُكر لعمرو بن مسْعدة كاتب المأمون توقيعات جعفر بن يحيى، فقال قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني.

وذكر محمد بن على المدائنى في كتاب القلم والدواة أن عاملاً لزُبيدة كتب إليها كتاباً فوقعت في ظهره : أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عملك ،

فتأمله فلم يظهر له فيه شيء ، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه في الدعاء لها (وأدام الله كرمتك) فقال : إنها تخيلت أنك دعوت عليها ، فإن كرامة النساء دفنهن، فغير ذلك ، وأعاد الكتاب إليها فقبلته، ومن كان هذا شأنه فكيف يقال : إنه لم يؤهل للكتاب؟

ولم يتأخر صاحب صبح الأعشى في الرد على أصحاب هذا الاتجاه الذين اتهموا دوماً بأنهم يمثلون النزعة الفارسية الدخيلة ، فالجواب عنده : أن حديث عائشة لم يصرح فيه بأنها كتبت بنفسها، ولعلها أمرت من يكتب ، فكتب كذلك بإملائها أو دونه، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يقاس عليها، ومن عداها من النساء لا عبرة به)[(١)]

والحق أن هذا الجواب به الكثير من الغرابة ، فلم تكن عائشة وحدها من بين أصحاب رسول الله ع هي التي تجيد الكتابة ، فقد كانت الشفاء بنت عبد الله العدوية ، وحفصة زوج النبي ع وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد، وغيرهن ..

كما أنه لم يرد أن النبي ع نهى عن تعليم المرأة ، وإنما الوارد عنه ع أنه أوصى المسلم بطلب العلم ، ولم يفرق في هذه الوصية بين رجل وامرأة ، فهل نأخذ تشريعاتنا من رسول الله أم من الحكماء الذين يعتبرون التعليم الذي يرفع الله به الناس درجات سماً تشربه أفعى !.

وربما أفتى أنصاف الفقهاء في عصور التدهور بحرمة تعليم البنت إلى جانب الولد، أو مطلقاً خشية فسادها، مما أدى في نهاية الأمر إلى الامتناع عن تعليم البنات في الكتاتيب مطلقاً. واستمر ذلك أمراً قائماً حتى قامت حركة تحرير المرأة في القرن العشرين ، أو حتى وقعت المرأة تحت المؤامرة الثانية.

---

[١] - صبح الأعشى جـ صـ ٦٤ ، ٦٥

- المؤامرة الثانية : تفريط المستنيرين

بعد وقت غير طويل من إهمال تعليم المرأة في المجتمع الإسلامي ، اتجهت أوربا إلى الأخذ بهذا الاتجاه الذي تركه المسلمون ، ولكن جاء ذلك في نوع من الاستفاضة والتحلل والإباحية ، حتى عادت بلاد أوربا ، تشبه بلاد فارس في عهد مزدك أو بعده بعدة قرون .

والأمر المثير في أحداث التاريخ أن أوربا التي خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً استطاعت أن تتقدم على المسلمين في الناحية الحربية ، وقد دفعها ذلك إلى القيام بغزو العالم الإسلامي ، حتى سقطت الدول الإسلامية التي كانت تعانى من الركود والتخلف ، الدولة تلو الأخرى تحت أقدام الاستعمار الأوربي .

وفى ظل الاستعمار ظهرت قوى الاستنارة ، التي أخذت تنظر إلى الحياة بمنظار الغرب، وتبني حياتها الاجتماعية على فلسفات الغرب.

تلك القوى التي أوجد بعضها المبشرون ، والبعض الآخر التقت أهدافه مع أهدافهم ، فنشأت أجيال تنادى بتحرير المرأة ، وأن تصبح المرأة في مجتمعنا الشرقي مثل المرأة الأوربية التي شاهدها ووصفها رفاعة الطهطاوى في كتابه (تلخيص الإبريز).

والذين نادوا بذلك إنما هم تلامذة المستشرقين ، وبعض المستشرقين كانوا في الأصل مبشرين ، وقد ترجمت دراستهم وأبحاثهم ، وتربى عليها قادة التنوير ، وكثيرون من الذين ذهبوا إلى أوربا بهدف التعليم عادوا إلينا وهم يحتقرون تاريخهم، وينبذون كل مقومات الحياة الاجتماعية في أوطانهم.

والغريب أن المستشرقين الذين أصبحوا أساتذة لأبناء المسلمين ، بسبب حاجة المسلمين إلى التعليم ، وحاجتهم إلى تنصير المسلمين ، كانوا حريصين على أن ينسبوا كل تخلف في مجالات الحياة عند المسلمين إلى تخلف المرأة

عندهم ، حتى الدراسات النفسية عند العرب ، إنما تخلفت بسبب تخلف المرأة ، فيذكر بعضهم.[١] أن هناك سببين حالا دون تقدم الدراسات النفسية لدى الأمة الإسلامية وهما :

- حال المرأة الذي جعل من المتعذر وقوع دراسات دقيقة في الشعور كالتي أفرد لها في الغرب طراز القصة البالغ الخطورة.

- وخلو الدين الإسلامي من عادة الاعتراف السمعي

ومن هنا بدأت فكرة تعليم المرأة من قبل تلامذة المستشرقين والمبشرين ، ولهذا لم تبدأ البداية الصحيحة ، حيث أخذ المبشرون بزمام الأمر ، ثم عهدوا إلى المستنيرين من تلامذتهم بإتمام دورهم ، إن بدا أنهم عاجزون أو حدث النفور العام من أسلوبهم.

فكانت (أول مدرسة للبنات في الإمبراطورية العثمانية فتحها المبشرون في بيروت عام ١٨٣٠م ، ومن ثم فتحوا مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها ، وفى الهند والأفغان .

وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات أشد ، قالوا : إن التبشير يكون أتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة ، إن المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق ، ولأنها تنتزعهن من نفوذ بيئة غير مسيحية .

ويفرح المبشرون إذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيتهن أعظم ، وتتكلم المبشرة أنا ميليجان فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات

---

[١] - كارادوفو في كتابه عن الغزالي صـــ ١٤٩.

تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمت طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة) [١]

ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها ، ونزعت عنها حجابها ، ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك فحسب ، بل لأن فعلها هذا يتيح لهم أن يتغلغلوا عن طريقها إلى الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية ، ولهذا السبب أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالمبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات .

وبعد كتابي قاسم أمين (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة)[٢] ببضع سنوات ظهر موضوع المرأة في صورته الحقيقية في المؤتمر التبشيرى الذي عقد في القاهرة ١٩٠٦م فيما تمخض عنه هذا النداء الذي وضعته الأعضاء المبشرات : (.. لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح ، إن عدد النساء المسلمات عظيم جداً لا يقل عن مائة مليون ، فكل نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن، نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة ، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل معها فرعها النسائي على العمل واضعة نُصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل ..)[٣]

---

[١] – التبشير والاستعمار صـــ ٨٧

[٢] – والكتابان نشرتهما قوى الاستنارة ، ضمن سلسلة التنوير . وقد نقل كتاب تحرير المرأة رأى الفقهاء في كشف الوجه واليدين ، وإجماعهم على أن ما عدا ذلك لا يصح كشفه ، ولكن عند تطبيق الفكرة تجاوز الأمر الحدود الشرعية ، إلى كشف الشعر والذراعين والساقين ، وفى حالات الفخذين ، ويرجع مقدار ما تكشفه المرأة من أعضاء جسدها إلى مدى شعورها بالنقص الذاتي ، حيث تطلق قوى الاستنارة علي المرأة المتبرجة (عصرية) و (متحضرة) تبعاً لمدى مبالغتها في التبرج.

ومن هنا نشأت مشكلة في عالمنا الإسلامي اسمها (الحجاب) ولو كان الأمر موكولاً للإسلام ليقول كلمته لوضح لنا الأمر في أحاديث الرسول وآيات القرآن الكريم ، ولكن الواقع أن هذه المسألة نشأت لأن الغرب الذي أخذنا نقدس أراءه قد نظر إلى الحجاب بعين المقت والازدراء ، وعد حبس المرأة لزينتها التي أنعم الله عليها بها أو لشيء منها من أبرز عيوب الإسلام.

فليكن الإسلام بلا عيوب ، ولتكشف المرأة جسدها للشباب المتسكعين على نواصي الشوارع والأماكن العامة.

[٣] – التبشير والاستعمار صـــ ٢٠٤

ولـم ينس الاستعمار قبل أن يرحـل أن يعمـل علـى تقويـة رواد التنـوير ، ودفعهم إلـى الصدارة ، وجعلهم رموزاً يحتفي بهم ، واكتفى بأن يقوم هو بـدور المراقـب للصـراع بـين الأصـالة والمعاصـرة ، بـين الرجعيـة وقـوى الاستنارة التي احتقرت كل مقومات الفكر الإسلامي ، ثم عملت بطرق خفيـة أو غير مباشرة على إبعاد العناصر التي تمثل الفكر الإسلامي عن مشاركتها في مهمة التوجيه.

لم تنته إذن مشاكل المرأة عند رحيل الاستعمار إذ سرعان ما اكتشفنا عالماً كنا عنه غافلين قبل الاستعمار ومعه ، إنه عالم المرأة ..

الاتحـادات النسـائية فاقت الحصـر .. حكوميـة وشبه حكوميـة .. المجـلات والصحف النسائية في كل مكان .. حواء .. المرأة .. نصف الدنيا .. الخ

أمـا آدم فلا توجد مجلـة واحدة - فيمـا أعلم _ تحمل اسمه أو تعبر عنـه أو تطالب بحقوقه، واذكر أن توفيق الحكيم كان قد توقع في أحد مؤلفاته أن زمانـاً سيأتي يتمنى الرجل أن يتساوى مع المرأة.!!

الندوات والمؤتمرات المتعلقـة بـالمرأة لا تنتهـي ، كلمـا انتهـى مؤتمر بـدأنا نعد لآخر، كل هذا لمناقشـة قضـايا المرأة، لمـاذا حجـاب الإنـاث .؟ لمـاذا لا تحصل المرأة على حقها في الحرية .؟ على حقها في العمل .؟

لمـاذا لا نضـيق الفـرق بـين المسلمة وبـين المـرأة الأوربيـة ، فيصـبح قرنـا واحـداً بـدلاً مـن خمسـة قـرون .؟ بـل قـل لمـاذا لا نسـبق أوربـا فـي الابتـذال والخلاعة ؟

المرأة في أوربا لا تختن .. لماذا تختن هنا في الشرق .؟

وحول المسألة الأخيرة تكلم رجال الدين تارة ، وتحدث رجـال الـدنيا تـارة ، ووقفت المرأة محتـارة ، أيهمـا تصـدق ، وخلـف مـن تسير ، ومضـت سنوات على إثارة المشكلة ، ودخلنا عصر الفضاء ، وجاءتنا القنـوات الأوربيـة تنشر

الإباحية ، وقامت حملات إعلامية ودعائية ، وبدأت الفتيات اللائى طبق عليهن قوانين منع الختان سن المراهقة ، ليشاهدن الدعارة تقتحم عليهن بيوتهن ، وغرف نومهن، فنتج عن ذلك كثرة الزواج العرفي بين طلبة وطالبات المدارس والجامعات. وانتشرت ظاهرة الاغتصاب، وكالعادة عقب ظهور المشاكل ، يبدأ المشرعون في طبخ التشريعات ، ناقش البرلمان المادة الخاصة بالعقوبة المقررة في حالة زواج الغاصب بالمغتصبة، فخطب زيد ، وعارضه عبيد ، وانتهت المحاورات دون أن يتحدث كلاهما أو أحدهما عن دوافع الإجرام ، ولا عن مشاكل المراهقات اللائى يعشن أتعس أيام حياتهن ، فالبنت المراهقة محاطة بوسائل الإغراء ، الأب غافل ، والأم التي لم تمن عليها بنعمة الختان لا تشعر بمدى تأثير الصور الخليعة التي تشاهدها صباحاً ومساءً

وهذا ما يريده منا أعداء الإسلام ، وما يطالبنا به أشياعهم المستنيرون، يريدون أن يستبدل شبابنا عنصر اللذة والشهوة بعنصر القوة ، فإذا ما حدث خلاف فكرى أو سياسي أو ديني كان شبابنا غارقاً في عالم الشهوة ، وعالم الشهرة.

وأنت إذا تأملت موقفهم من المرأة تجدهم لا يبغون لها حرية ، ولا يحفلون بأن تكون لها حياة سعيدة ، وإنما يطلبون أن يروا جسدها ، استجابة لدوافع الشهوة الحيوانية لديهم ، فهذا البرلمان التركي يرفض أن تجلس فيه امرأة منتخبة من شعبها لأجل أنها غطت شعرها ، وقد خيرت بين كشف شعرها وبين حجب الثقة عنها، ووقف الرجال العلمانيون في البرلمان على قلب رجل واحد ضد امرأة ، حتى تمكنوا بالحيل الأمريكية من إخراجها من البرلمان بل ومن وطنها .

والحق أن قضية المرأة أصبحت تجارة مربحة لدى رواد التنوير ، فتاجروا بها محلياً، وتاجروا بها دولياً ، تاجروا بها دولياً بالتهكم على تعاليم الإسلام

القاضية برجم الزاني المحصن ، والزانية إذا كانت كذلك ، ووصفها بالقسوة ، والتهكم على حجاب المرأة وعفافها، ونشر الكتب التي تهاجم هذه التعاليم ، ووصفها بالرجعية، ووصف تعاليم الغرب بالتقدمية ، وكل هذا ينتج عنه نيل الحظوة عند الغربيين. وحصول رواد الاستنارة على الأوسمة والنياشين من جامعات الغرب ، ومراكز الفكر والتوجيه فيه.

وتاجروا بها محلياً بدفعها إلى السقوط ، بنشر الكتب الإباحية ، وإذاعة الأفلام الهابطة ، والتي يرى فيها المشاهد النساء العاريات والذكور العراة ، والتكسب المادي من وراء هذه الأفلام وإنتاجها وإخراجها ، وكافة أعمال التمثيل والمشاركة فيها. وقد ساهم الاستعمار بهيمنته في تحقيق الاتجار المحلى بالمرأة بفرض السند القانوني ، فأصبح البغاء مصرحاً به باللائحة الصادرة سنة ١٩٠٥ في مصر، ثم ألغى بالأمر العسكري رقم ٧٦ في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٩م الذي حل محله القانون رقم ٦٨ سنة ١٩٥١م

على أن هذه الإلغاء لم يتبعه اتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة لعزل ضحايا البغاء من النساء فترة من الوقت ، وإعدادهن لحياة مبرأة من شوائب الماضي الذي كن يعشن فيه ، بل يمكن أن نقرر أن البيوت السرية انتشرت في أنحاء المدن المختلفة بشكل يدعو إلى العمل السريع الذي لا يكفى فيه مكافحة جرائم البغاء السري أو جرائم الاتجار بالنساء في أي شكل من أشكاله ما لم تعالج المشكلة كلها بطريقة اجتماعية وتربوية.[1] وليس بالصورة التي تنتهجها المؤسسات التعليمية والعمالية من سياسة التبرج ورفع القيود عن مشاركة الجنسين في مكاتب العمل وفى الرحلات والأندية وقاعات الدرس .

ومنذ قيام المحاكم المختلطة وهؤلاء العابثون يحاولون تغيير قوانين الله المتعلقة بالمرأة، وكلما صدر تشريع جاء يقترب من التشريعات الغربية ،

---

[1] - حقوق المرأة صـ ٢٥٨ ، ٢٥٩

ويبتعد عن الشريعة الإسلامية ، وقد دفعوا ببعض النساء إلى الانخراط في صفوف قوى الاستنارة ، ومن ثم رحن يطالبن بحقوق لا تناسب طبائعهن، فطالبن بإلغاء حق القوامة الذي جعله الإسلام خالصاً للرجل ، وتحت ذريعة المساواة خرجت المرأة تزاحم الرجل في الحياة استناداً إلى ما ذهبت إليه لجنة المرأة الأمريكية في قراراتها التي أصدرتها في انعقادها التاسع (٧-٢٢ سبتمبر ١٩٥٣م) وأضافت إليها اللجنة النص صراحة على المساواة بين الزوجين في السلطة الأبوية ، وفى اختيار مسكن الزوجية ، وعلى حق المرأة المتزوجة في العمل خارج منزل الزوجية ، وفى التصرف -بغير إذن زوجها - في أموالها بشتى التصرفات التي تراها .

وهذا ما أخذت به قوى الاستنارة في فرض الدساتير والقوانين التي حلت محل الشريعة الإسلامية ، وفي دستور ١٩٥٦م في مصر نصت المادة ٣١ منه على ما يلي: (المصريون لدى القانون سواء ، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة)[١]

وقد لا يقصد من هذه المادة أن تكون قاصرة على المرأة والرجل إلا أنها أصبحت سنداً تهدف من ورائه قوى الاستنارة إلى جعل المرأة تتصرف في الحياة كالرجل ، وليس المساواة الحرفية ، فالمرأة المستنيرة ترتدي ملابس أقل حشمة من الرجل على الدوام . ويهمنا أن نوضح أن سنة الإسلام في التفضيل ، لم تكن قاصرة على العلاقة العامة ، بين الرجال من ناحية وبين النساء من ناحية أخرى ، ولم تكن استثناء خص به هذه العلاقة وحدها ، أو جعل أساس التفضيل اختلاف الجنسين فقط ، كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة ، وإنما شمل التفضيل علاقات أخرى بين الفرد بغض النظر عن جنسه ، كقوله تعالى : [لَا يَسْتَوِي

---

١ - السابق صـــ ١٢٤.

القَاعِدُونَ مِنْ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] النساء آية (٩٥)

وعلى هذا النهج سار الإسلام في القوامة أو التفضيل ، فوضع لهما شروطاً وضوابط لا تتحقق القوامة ، ولا يقع التفضيل إلا بتوافرها ، بمعنى أنه لم يقرر تفضيل الرجل على المرأة كصفة أصيلة يتميز بها الأول على الثانية ، لمجرد أنه رجل فقط، إذ برغم أنه خص الرجل وحده بالقوامة على المرأة إلا أنه اشترط لها - أي للقوامة- صلاحية خاصة ، إذا لم تتوفر في الرجل سقطت عنه ، وأصبح التفضيل في هذه الحالة عارياً من سببه.[١]

وعلى ذلك يجب أن تتوافر في قوامة الرجل على المرأة الشروط التالية :

- أن يبلغ مبلغ الرجال سناً وإدراكاً ، فالصبي أو السفيه أو المجنون أو فاقد الأهلية عموماً لا قوامة له على المرأة

- أن تتوافر له صفة الفضل أو التفضيل ، فالرجل الفاسد ، أو المجرم المطارد أو فاقد الحرية لا قوامة له على المرأة الصالحة .

- أن يقوم بواجبه في الإنفاق على من يعوله من النساء .[٢]

ويتبين لنا كذلك أن القوامة التي فرضها الإسلام على النساء ذات وجهين :

فهي من جهة قوامة عامة ، يقصد بها ، أن تتركز السلطة العامة في أيدي الرجال سواء في الشئون السياسية ، أو الإدارية أو العسكرية الخ .. بحيث

---

١ - السابق صـــ ١١٢.

٢ - السابق صـــ ١١٤.

تكون للرجال الهيمنة العليا ، والرأي النهائي ، في كل ما يتعلق بهذه الشئون ، بغض النظر عن اشتراك المرأة ومساهمتها في كل هذه الأمور .

والقوامة من وجه آخر ، قوامة خاصة ، فحيثما نشأت علاقة بين رجل وبين امرأة أو أكثر من امرأة ، يرتبطن به برابطة الزوجية أو القرابة ، وتوفر له شرط التفضيل والمسئولية ، كانت له القوامة عليهن ، فلا قوامة على المرأة إلا لرجل مسئول عنها ، تربطها به رابطة شخصية خاصة ، دائمة أو مؤقتة ، أو عارضة حيث تستمر القوامة في هذه الحالة باستمرار العلاقة المذكورة ، وتنته بانتهائها.[١]

وهذه المبادئ الإسلامية ليست بجهود بشرية قاصرة ، ولكنها تنزيل ممن خلق الذكر والأنثى ، ويعلم طبيعة كل منهما ، وتؤكد التجارب صحة النظرة الإسلامية ، فالمرأة تحتاج إلى الرجل ، وإذا أصبحت تمارس القوامة عليه انعكست القضية ، وأصبح الراعي رعية ، وعند ذلك يفسد السلوك ، وتنعدم الأخلاق .

---

[١] - السابق صـــ ١١٥.

الفصل الخامس

قوى الاستنارة

د. ومسألة فصل الإسلام عن حياة المسلمين

عملت قوى الاستنارة منذ اللحظات الأولى من ظهورها على أن تفصل بين تعاليم الإسلام وحياة المسلمين ، فقد كان المسلمون يقرؤون القرآن الكريم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ويعتقدون أن كتابهم منزل ممن خلق الأرض والسماوات العلا ، وأنه لهذا لا يتعارض مع السنن الكونية ، حتى جاء التبشير ينشد تغيير تلك الصورة ، ومحو هذه الفكرة ، فاتخذ من أبناء المسلمين من غرر بهم ليكونوا وسيلة ناجحة لتحقيق أهدافه ، وقامت العديد من الأنظمة في البلاد الإسلامية ترفع العلمانية شعاراً ، وتتخذ من الذرائع ما تشاء لفصل الإسلام عن الحكم ، وأوحت إلى بعض المثقفين بفكرة فصله عن العلم ، فأصبح في المسلمين من لا يرى علاقة بين تعاليم الإسلام ومجالات عمله في الحياة.

- فصل الإسلام عن العلم

رغم أن الإِسْلَام قد دعا إلى الْعِلْم، وعده أبلغ داعية إلى الله في كل عصر ، وأهم وسيلة لمعرفته تعالى، ورغم أنه أقر أن العلماء هم الذين يعرفون الحق ويميزون بينه وبين الباطل، قامت قوى الاستنارة تناهض فكرة مساندة الْعِلْم للدين، ووضعوا تلك النظرية الغريبة التي تقول : (إن بين الدين والعلم ما بين كفتى الميزان من تراجح، إذا خفت كفة أحدهما ثقلت كفة الآخر، فحيث يسود الْعِلْم ينكمش ظل الدين، وحين يسود الدين ويغمر المجتمعات تنكسر أشعة الْعِلْم)[1]

---

[1] – قضية الألوهية د / عبد الْكَرِيم الخطيب جـ ١ صـ ٢٤ .

وفـى البدايـة يجب أن نـتفهم الأسباب التـي أدت إلـى هـذا القـول علـى الصعيد الأوربي ، وأهمها يرجع إلى تاريخ الْعِلْم والدين. فقد كانت أوربا في العصور الوسطى تعيش في غمرة من الجهل ثم فاض تعصبها المقيت على الشرق الإسلامي، ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبساً من دين الإسلام وعلوم المسلمين، دفعهم ذلك إلى أن يقولوا : إن لنا الحق في أن نفكر وأن نعلم وأن نستدل، فحاربتهم الكنيسة ورجالها، واستمرت الحرب قروناً حتى ضعف سلطان رجال الدين بظهور البروتستانتية، وخروج ممالك برمتها على الكنيسة الكاثوليكية.

وكانت فرصة عظيمة عندما وجدوا الحقائق العلمية اليقينية تتعارض مع الكتاب المقدس، الذي يدعى رجال الدين عصمته من الخطأ، فاكتفى البعض بأن يتوهم أن قواعد الدين مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة من غير فحص في أصولها وإنها لذلك لا تأتلف مع العقل ولا مع الْعِلْم .

ومن مصر الحديثة التي أسسها محمد على باشا ذهب جماعة من طلاب العلم المسلمين إلى أوربا ، ذهبوا دون أن يكون لأكثرهم أدنى إلمام بالإسلام ، وربما كان منهم ملمين ببعض الجوانب الدينية إلا أن طموحهم إلى الشهرة كان أكبر مما يصبون إلى تحقيقه من مكانة أدبية عن طريق العلم ، هؤلاء وجدوا القول بمعارضة الدين للعلم منتشراً على نطاق واسع في أوربا ، فركنوا إليه ، ثم عادوا يحاجون قومهم بعلمهم الجديد ، ويعلنون رفضهم لفكرة مطابقة العلم للدين.

ولا شك أن هؤلاء المثقفين أو النوابغ الذين يعتقدون أن الْقُرْآن الْكَرِيم بعيد عن الْعِلْم هم جهلة بحقيقة الإِسْلَام وحقيقة العلم ، فقد وضح تماماً أن حقائق القرآن الكريم تتطابق مع اليقيني من الْعِلْم التجريبي.

وإذا تتبعنا الأقوال التي تشير إلى معارضة الْعِلْم للدين نجدها أخذت تروج وتنتشر بعد أن عاد إلينا هؤلاء التلاميذ من أوربا ، ومن شبهاتهم أن الدين

إنما هو معتقدات غيبية وأراء فلسفية لا يمكن أن تخضع للتجريب أو القياس ، بل إنها إذا قورنت بما نعرفه ونعهده فإنها تخالفه ولا توافقه، وحتى الآن لم يصلوا إلى حقيقة علمية واحدة تنافى الْقُرْآن أو تعارضه[١].

ومع ذلك لا تزال شبهاتهم تهب وافدة من الغرب على عقل الشباب المسلم عن طريق الإعلام والتعليم، وفى الثقافة في أكثر ما يؤلف وفى جميع ما يترجم من نواحي الاجتماع والأخلاق.

والعجب أن هؤلاء العلمانيين أو (النوابغ) الذين تهب علينا ثقافة الغرب عن طريقهم يتطلعون إلى النهضة واللحاق بأوربا منذ عشرات السنين، فلا هم ينهضون ولا هم يعودون إلى حظيرة الدين ، ومع ذلك لا يزالون يصرون على وصف الْقُرْآن بأنه إنما كَانَ يصلح لعهد مضى ولم يعد يصلح للحاضر فضلاً عن المستقبل.

والمسلمون المتمسكون بدينهم هم في نظرهم مثل الكاثوليك في العصور الوسطى حيث لم ينصاعوا للنتائج العلمية وظلوا على تمسكهم بالدين الذي لم يؤيده الْعِلْم، ويتمثل هذا الموقف في الرفض الصارم الذي لا يلين للسماح بأي تنازل أمام العلوم والفلسفات الجديدة.[٢]

وقد خيل لمحمد إقبال أن عصره يشبه عصر الإصلاح الكنسي وأكد هذا التشبيه بقوله : (ونحن نمر الآن بعهد شبيه بعهد ثورة الإصلاح البروتستانتي في أوربا ، فينبغي ألا يضيع سدى ما تعلمناه من قيام حركة لوثر ونتائجها)[٣].

---

[1] – بين الدين و الْعِلْم عبد الرازق نوفل صـــ ١١٧ .

[2] – الاتجاهات الحديثة في الإِسْلَام هـــ . أ – جيب صـــ ٧٦ تعريب جماعة من الأساتذة الجامعيين ط المكتب التجـــاري بـــيروت الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .

[3] – تجديد التفكير الديني في الإِسْلَام صـــ ١٨٨ .

ورغم ما توهمه إقبال إلا أنه لم يستطع هو شخصياً ولا غيره من رواد الفكر الذين جاءوا من بعده أن يأخذ دور لوثر في الإصلاح الديني، أو دانتي في النهضة الأدبية، ولا حتى كوبرنيقوس في الحركة العلمية الأوربية، وليس ذلك راجعاً إلى كونهم أقل من زعماء الفكر في أوربا في عصر الإصلاح بل إنه راجع بصورة أساسية إلى اختلاف طبيعة دين الإسلام عن دين أوربا .

فإذا كانت الحرب التي شُنت على الدين لها ما يبررها في أوربا، فليس لها ما يبررها هنا لأن الإسلام لا يعارض الْعِلْم بل يدعو إليه ويتفق معه في نتائجه اليقينية، بل إن الإسلام كَانَ هو السبب في الثورة على الكنيسة دينياً وعلى أرسطو علمياً وعلى اللغة اللاتينية أدبياً إنه باختصار السبب في النهضة الأوربية الحديثة.

وعلى ذلك لا تجد في الشرق نزاعاً بين الْعِلْم والدين، اللهم إلا في مخيلة قوى الاستنارة الذين لا يفرقون بين دين التوحيد ودين التثليث ، ولا بين العلم والجهل، ويودون لو دخلوا التاريخ من الباب الذي دخل منه دانتي ولوثر وكلفن وغيرهم من رجال النهضة والإصلاح.

ولو درس هؤلاء الإسلام قبل أن يحكموا عَليه لعلموا أنه لَيْسَ كالنصرانية فالإسلام دين إلهي نقي ، وأما النصرانية فهي تحريف بشرى لدين المسيح υ وحضارة الغرب ليست كما يتصورونها بناءً كاملاً لَيْسَ به ثغرات.

ولو كَانَ في الغرب في عصر الإصلاح مؤمنون بالْقُرْآن الْكَرِيم لبحثوه ولحاولوا الجمع بينه وبين الْعِلْم كما فعلوا مع الكتاب المقدس، وإذن لرأوا التطابق التام بين آياته وسنن الفطرة في الكون وفى النفس، وبالتالي لآمنوا به ولحال بينهم وبين سوء استعمال ثمرة الْعِلْم، فإن أكبر الظن أن العقول التي تحسن استنطاق الفطرة للكشف عن أسرارها ستحسن

الاستمساك بدين الفطرة إذا تبين لها، وإذن لحلت بركاته عليهم وعلى النَّاس، ولساد الأمن بينهم لا الخوف الذي يسود اليوم.

وأما المسلمون فرغم أنهم يؤمنون بالقرآن إلا أنهم حرموا بركاته، أو كادوا لأنهم يؤمنون به قولاً لا عملاً، يقرؤونه للتبرك ويطلبون الحق في سواه [١] .

وإذا كَانَ رجال الدين في الغرب قد وقفوا في طريق الْعِلْم فلا يصح أبداً أن ننقل هذا الصراع إلى الشرق ونفتعل حرباً لا مبرر لها بين الإسلام والعلم ، فمتى حارب الإسلام الْعِلْم ؟ وهل تورط رجاله في جريمة محاربة العلم حتى تقوم ضدهم هذه الحرب ، وحتى يتحدث أمثال دكتور جابر عصفور عن سطوة رجال الدين !

لقد سلم علماء الإسلام للعلم حتى في بعض نتائجه الخاطئة خشية أن يخالفوا صريح الْقُرْآن الْكَرِيم الذي دعا إلى الْعِلْم وحض عَلَيْهِ وأمر بطلب الزيادة فيه. ومن أجل ذلك لجأ كثيرون من المفسرين القدامى إلى تفسير الآيَات الْكَوْنِيَّة مستعينين بما وصل إليه عصرهم من علوم رياضية وفلكية كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وكالإسرائيليات التي أخذوها عن اليهود بحسن نية، وهؤلاء وإن كنا نحمد لَهُمْ مسعاهم إلا أننا يجب أن نأخذ الدرس فلا نفسر الْقُرْآن إلا باليقيني الثابت من الْعِلْم.

والآن نقضت العلوم الْكَوْنِيَّة النظريات الفلسفية اليونانية ونقضت الإسرائيليات التي تمسك بها بعض المسلمين قروناً طويلة، وأبعدت التفاسير والشروح التي كتبت في عهد النظريات المنهارة، والتي لم يقبلها الْقُرْآن إلا بعد تأويل لآياته وتحميلها من المعاني ما لا تطيق.

---

[1]- الإِسْلَام في عصر الْعِلْم د / الغمراوى صـ ١٧٢ ، ١٧٣ .

والإسلام بذلك يعتبر ديناً علمياً وعالمياً لأنه يلتقي مع الْعِلْم في أي مكان وفى أي زمان، وهذا هو معنى قوله تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] فصلت (٥٣)

أي سنقيم عليهم الحجة بهذه الآيَات الْكَوْنِيَّة والنفسية حتى لا يبقى لَهُمْ أدنى عذر في عدم الإيمان ، ولضمان بقاء الحجة قائمة إلى قيام الساعة وعد الحق بحفظ آخر كتبه ، وهذه سنة مؤكدة لا تنتقض ولا تتزعزع بما يرى من واقع المسلمين في كونهم مغلوبين ومقهورين لأن المسلمين بابتعادهم عن كتاب الله يكونون بعيدين عن دائرة الحماية الإلهية وبالتالي لا يتحقق لَهُمْ النصر الذي وعده الله للمؤمنين لأن سنة الله هي في نصر المؤمنين الموصوفين بصفات ومقاييس بينها الله في كتابه العزيز.[1]

- فصل الإسلام عن الدولة.

في مارس عام ١٩٢٤ أعلن كمال أتاتورك رئيس تركيا إلغاء منصب الخلافة من بلاده ، فكان لهذا دوى بالغ في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وفى إبريل عام ١٩٢٥ أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضي الشرعي إذ ذاك بالمنصورة كتاباً تضمن أموراً مخالفة للدين ، ولنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين منها :

- جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا .

- وأن الدين الإسلامي لا يمنع من أن جهاد النبي ε كان في سبيل الملك ، لا في سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين.

---

[1]- (الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها وأساليبها من خلال سورة طه) رسالة دكتورة للمؤلف . مخطوط بمكتبة أصول الدين – القاهرة

- وأن نظام الحكم في عهد النبي ε كان موضع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص موجباً للحيرة.

- وأن مهمة النبي ε كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ.

- وإنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

- وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية .

- وأن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده - رضى الله عنهم - كانت لا دينية.

وقد أحدثت هذه الأفكار ضجة كبيرة في مصر وسائر البلاد الإسلامية ، ومنذ ذلك الحين لا تزال الكتب والصحف تتحدث عن هذا الكتاب ، وتشيد به ، وتصفه بأنه من أهم الكتب التي صدرت في العالم الإسلامي في القرن العشرين .

وقد اهتم الصحفيون والمستغربون المستنيرون بهذا الكتاب ، فنشروا ما فيه من أوهام وكأنها حقائق مسلمٌ بها ، حتى صار الكتاب وصاحبه أسطورة .

تحدى الأزهر .. وتحدى الملك . وتحدى الإنجليز !!

ورغم أن دولة الخلافة قد زالت ولم يعد ما يبرر ضجة أعوان المبشرين ، إلا أنهم يخشون دائماً أن تتحول فكرة الخلافة إلى واقع ، والمسلمون الممزقون إلى دولة تُحْكَم من قِبل رجل واحد هو (خليفة المسلمين).

وكل المقالات التي كتبها هؤلاء المستغربون تجمع بينها أفكار مشتركة نلخصها فيما يلي :

أولاً : إنهم قرروا أن الشيخ على عبد الرازق مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم، بطل وطني ، وذلك لأنه تحدى بريطانيا العظمى ، التي كانت تريد أن تقيم الخلافة الإسلامية في مصر ، وتنصب الملك فؤاد خليفة على العالم الإسلامي ، فتحداها الشيخ وأصدر كتابه هذا فأحبط مشروعها ، وقضى على سعيها لإقامة الخلافة في مصر .!

ثانياً : إنهم قرروا أن الشيخ عبد الرازق بطل الحرية والدستور والديمقراطية ، وذلك لأنه تحدى الملك فؤاد - ملك مصر والسودان - وهو في عنفوان قوته وجبروته، وطغيانه .

ثالثاً : إنهم قرروا أن الشيخ عبد الرازق إمام مجتهد ، ومفكر فذ ، وذلك لأنه تحدى كبار العلماء في الأزهر ، وأتى برأي جديد يناهض ما أجمع عليه علماء المسلمين .

ومن الصحفيين الذين اهتزوا طرباً لنغمة (الإسلام وأصول الحكم) الكاتب الصحفي أحمد بهاء الدين الذي عرض بالمدح لهذا الكتاب في فصل كامل من كتابه (أيام لها تاريخ) الذي أصدره في عام ١٩٥٤م عن دار روز اليوسف ، فقد صور الشيخ عبد الرازق بأنه بطل تحدى كل القوى الكبيرة التي كانت موجودة.

يقول أحمد بهاء الدين في كتابه (أيام لها تاريخ) : (في تلك السنوات سقطت الخلافة الإسلامية في تركيا تحت أقدام أتاتورك الذي طارد في بلاده الخلافة والإسلام على السواء ، وخلت الدنيا من الخلافة الإسلامية لأول مرة منذ أكثر من ألف عام)

ويستمر السيد / بهاء الدين في عرض أحقاده فيقول : (والتقط الإنجليز فكرة الخلافة الواقعة على الأرض ، نعم : لماذا لا ينشئون هم خلافة إسلامية جديدة تنمو في رعايتهم ، وإن الخلافة لحجة قديمة للتغرير

بالمسلمين ، وخلف عباءتها الواسعة تنكرت أنواع من المظالم والخطوب) (وسمع الملك فؤاد هذه القصة ، فبدأ يحلم وإن لم يطلق لحيته كما صنع فاروق من بعد ..!

(وأدرك القصة أيضاً الأذناب وتجار الدين ، فبدءوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة ، التي علقوا بقيامها شرف الإسلام)

(ولكن الشيخ الشاب قاضى محكمة المنصورة الشرعية زين له شبابه وتحرره أن يقف ضد هذا كله ، وأن يعكف على البحث بضع سنين ، ثم يخرج على الناس بكتاب صغير ، لا تزيد صفحاته على المائة إلا قليلاً اسمه الإسلام وأصول الحكم ، فيكون له دوى القنبلة ويكون من شأنه أن يسقط وزارة ويفض ائتلافاً ويحول في السياسة المصرية تياراً خطيراً) [١]

ويردد رائد التنوير في العصر الحاضر دكتور : جابر عصفور كلام أحمد بهاء الدين من أن الشيخ عبد الرازق أحبط محاولة الإنجليز في إقامة الخلافة الإسلامية، تأمل .. الإنجليز - في نظر المستغربين - يعملون على إقامة الخلافة الإسلامية **!!**

ورغم أن هذا الكلام لا يصدر عن رجل عاقل ، إلا أن أدعياء التنوير ينشرونه اعتقاداً منهم أنه كلما تكرر أخذ طابع المسلمات.

وبهذا تقتنع الأجيال القادمة بأن النظم التي تهدم العمل بشريعة الإسلام ، إنما قامت - في بادئ أمرها على الأقل - مناوئة للإنجليز، الذين حاولوا فرض هذا النوع من الحكم علينا، ولكن قوى الاستنارة بزعامة الشيخ عبد الرازق تصدت لها وأفسدت مخططاتها !

---

[1] – الدكتور / محمد ضياء الدين الريس / الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم صـ ٤١ -٤٤ ط / دار الجيل

ومـن السـذاجة أن نقـول بمـا يؤمنـون ، أو أن نـؤمن بمـا يقولـون، لأن ترتيب الأحداث كما ذكروها لا ينسجم وكلام الشيخ على عبد الرازق نفسه في مقدمة كتابه المذكور . يقول على عبد الرازق : (وليت للقضاء بمحاكم مصـر الشـرعية ، منـذ ثـلاث وثلاثـين وثلاثمائـة وألـف هجريـة ١٩١٥م فحفزنـي ذلـك إلـى البحث عن تـاريخ القضـاء الشـرعي ، والقضـاء بجميـع أنواعه فرع من فروع الحكومـة ، وتاريخـه يتصل بتاريخهـا اتصـالاً كبيـراً ، وكذلك القضـاء الشرعي ركن من أركـان الحكومـة الإسلامية ، وشعبة من شعبها ، فلا بد حينئذ لمن يدرس تاريخ القضاء أن يبدأ بدراسة ركنـه الأول أعني الحكومة في الإسلام .

وأسـاس كـل حكـم فـي الإسـلام هـو الخلافـة والإمامـة العظمـى - علـى مـا يقولون - فكان لا بد من بحثها.

شرعت فـي بحث ذلك كلـه منـذ بضـع سـنين ، ولا أزال بعدُ عنـد مراحـل البحـث الأولـى ، ولـم أظفـر بعـد الجهـد إلا بهـذه الورقـات ، أقـدمها علـى استحياء إلى من يعنيهم الموضوع)

فلم يذكر الشيخ في دوافع تأليفه أنه تحدى الإنجليز - وهذا أمر لا شك أنه كان سيشرف به - بل ذكر أنه بدأ العمل في كتابه هذا منذ ولى القضـاء سنة ١٩١٥م قبـل أن تسـقط الخلافـة ، فـي مـارس عـام ١٩٢٤م . أي قبـل تسـع سنوات مـن سقوط الخلافة. وقبل أن تفكر إنجلترا فـي إقامـة الخلافـة التـي سقطت .

كما أن السبب الذي ذكره ليس مقنعًا ، فكيف نقول : إن تعيين قـاضٍ فـي إحـدى المحـاكم الشـرعية - وهـى محـاكم كانـت ولا زالـت منـذ أن وطـئ الاستعمار أرضنا - محـاكم مـن الدرجـة الثانيـة ، كيـف نقـول مـع الشيـخ إن توليه وظيفة كهذه حفزته إلى البحث عن تاريخ القضاء الشرعي ، وبالتـالي البحث فـي الحكومـة والخلافـة .؟ وهل الذين يعملـون بالقضـاء يكـون لـديهم

الوقت للتفكير في البحث والدراسة ؟ والغريب أن يثابر هذا الباحث في بحثه تسع سنوات ، مع أن الدافع الذي ذكره لا يحتمل كل هذه الصعوبات ، إذ بإمكانه أن يستقيل من وظيفته إذا كان لا يعتقد شرعيتها، ولكنه يقتطع تسع سنوات من حياته بحثاً عن الأسانيد والحجج التي يبطل بها وظيفته التي لو شاء تخلى عنها !

والكتاب الذي صار ضجة في العالم الإسلامي أصبح على حد تعبير أحد المستغربين من وثائق التنوير الهامة ، وقد نشرته مؤخراً الهيئة العامة للكتاب ضمن سلسلة التنوير بسعر رمزي خمسة وعشرون قرشاً ، أي ثمن تذكرة أوتوبيس، وأرخص من ثمن أية جريدة تصدرها قوى الاستنارة ، كل هذا لأجل أن يتثقف شعب مصر ، ويعرف أن دينه ليس فيه شريعة ولا حكم ولا نظام !!

ولو سألنا أنفسنا : ما هو الهدف الذي تسعى من ورائه قوى الاستنارة إلى طبع هذا الكتاب ضمن سلسلة أطلقوا عليها زوراً وبهتاناً اسم (التنوير) وما الحكمة في تبنى آراء عَدَلَ عنها صاحبها .؟ [1].

وحتى لو لم يعدل عنها ألا تقضي هذه الأفكار على هوية الدولة الإسلامية.؟

لقد كتب دكتور / جابر عصفور ـ من رواد الاستنارة ـ مقدمة لهذه الطبعة، جاءت غير معبرة عما في الكتاب ، ولا حتى ملخصة لما فيه، وإنما فقط جاءت لمدح الكتاب وصاحبه. والمدح الدائم هو دائماً حيلة ضعفاء الثقافة من أهل الباطل. فالكتاب من وجهة نظره نسف فكرة الخلافة التي

---

[1]– وهذا ما كتبه الشيخ على بنصه يعلن به تراجعه عن آرائه ، ونشرته له (رسالة الإسلام) في عددها الصادر في مايو **١٩٥١**م فقال : في شأن دعوى أن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة :

(إنني لم أقل ذلك مطلقاً ، لا في هذا الكتاب ولا في غيره ، ولا قلت شيئاً يشبه هذا الرأي أو يدانيه) الأستاذ الدكتور / السيد تقي الدين في مقدمته لرد هيئة كبار العلماء الذي نشرته مجلة الأزهر عدد ربيع الأول **١٤١٤**هـ

كان يحلم بها الملك فؤاد وأعوانه، ونسف الكتاب الكثير من الرواسب العالقة في أذهان القراء عن الدولة الدينية. وفي نظره أن الكتاب الطاعن في الخلافة الإسلامية وثيقة بالغة الأهمية لدى قوى الاستنارة ، وإليك ما جاء في هذه المقدمة : (بعد أن قام كمال أتاتورك بحركته الإصلاحية في تركيا ، وما ترتب على ذلك من إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية ، بدأت محاولات متعددة لإقامة الخلافة في أكثر من قطر ، بعض هذه المحاولات حدثت في القاهرة ، وكانت مرتبطة بدافع تنصيب الملك فؤاد خليفة جديد للمسلمين ، وبينما كانت محاولات أنصار الملك فؤاد قائمة ، متصلة ، وفى الوقت الذي كان فيه الحوار دائراً حول معنى الخلافة في عصرنا ، أصدر على عبد الرازق القاضي الأزهري الذي كان يعمل رئيساً للمحكمة الشرعية في المنصورة كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي فرغ منه في مطلع إبريل عام ١٩٢٥ ، وطبع في العام نفسه أكثر من مرة ، وكان الكتاب قنبلة بكل معنى الكلمة ، وعلى مستويات متعددة، نسف الكتاب فكرة الخلافة التي كان يحلم بها الملك فؤاد وأعوانه ، ونسف الكتاب الكثير من الرواسب العالقة في أذهان القراء عن الدولة الدينية ، ونسف الكتاب السطوة التي يزعمها بعض رجال الدين.[١] عندما يتحدثون عن الحكم ، وكان الكتاب بمثابة تأكيد من أزهري مستنير لدعائم الدولة المدنية ، وفى الوقت نفسه ، كان ثورة هائلة على المفاهيم السائدة عند أقرانه من المشايخ.

---

[1] – ليشهد التاريخ على كذب هذا الكلام ، فإن علماء الدين عندنا لا يملكون سطوة ولا سلطان ، ولكن الكاتب خيل إليه أنه يعيش في أوربا في عصر الإصلاح ، فتخيل نفسه مارتن لوثر الذي راح يرسل مثل كلمات د / عصفور إلى البابا ليو العاشر ، ودائماً يتوهم دعاة التنوير أن الأزهر يشبه الكنيسة الكاثوليكية في أوربا في عصر النهضة والإصلاح ، وأنهم هم رواد النهضة وزعماء الإصلاح ، فأي سطوة لرجال – أقصد لعلماء – الدين عندنا ؟ وأي سلطان لهم ، وهل رجل الدين عندنا غير مواطن عادى ؟ بل هو غالباً محتقر من قبل بعض وسائل الإعلام والثقافة التي يتربع على عرشها ذوو المكانة والسلطان من رواد التنوير ، على أن دوام الحال من المحال.

وكان من الطبيعي أن يحارب الكتاب ، وأن يعاقب صاحبه ، واتفق القصر مع لجنة كبار العلماء على العقاب ، صدر قرار بسحب شهادة العالمية من الرجل ، وتبع هذا القرار فصله من عمله في القضاء ، وقامت الدنيا ولم تقعد ، وتولت الدفاع عن الكتاب كل قوى الاستنارة في مصر ، وكل الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية ، وكل دعاة الدولة المدنية والمجتمع المدني .

وكان الانقسام واضحاً في المعركة ، دعاة الحكم المطلق في السياسة ، وأنصار الإتباع والتقليد في الفكر الديني والاجتماعي في جانب ، ودعاة الاستنارة والعقلانية والتقدم مع كل الحالمين بالديمقراطية والحرية والمجتمع المدني.

صحيح أن الرجل أوذي وظيفياً [١] وصحيح أن الضغوط تكاثرت عليه لكن الأصح أن الكتاب ظل وثيقة بالغة الأهمية ، علامة ناصعة من علامات التنوير في وطننا ، وظلت أجيال الاستنارة اللاحقة تردد الأصداء التي استهلها هذا الكتاب الذي خطه فقيه أزهري مستنير ، فقيه أزهري ذهبت به شجاعة الاجتهاد إلى أن قال : إن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ، وإن الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية ، ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة، ذلك لأن هذه كلها خطط سياسية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا ، لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم ، وقواعد السياسة ، إنها مثل تدبير الجيوش وعمارة المدن لا شأن للدين بها ، وإنما يرجع الأمر فيها إلى العقل والتجريب ، ويختم

---

[1]– من الغريب أن الشيخ بآرائه أنكر وظيفته ، لأنه أنكر القضاء الشرعي في الإسلام ، وحكم على نفسه بالفصل ، قبل أن يحكم عليه أحد ، فكيف يكون أوذي في وظيفته ، إذا كان يؤمن بأنها ليست من الدين ؟ وهل أذى أحد القضاة بمثل ما آذاهم الشيخ على الذي أنكر شرعية وظيفتهم .. ولا أتخيل أن السادة الإنجليز لم يمنوا عليه بما يفوق أجره أضعافاً مضاعفة.

الفقيه الأزهري كتابه بقوله : إنه لا شيء في الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم أو نظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم .

تلك كانت دعوة الفقيه الأزهري العظيم رئيس المحكمة الشرعية الذي فصله القصر لأنه ناهض مصالح القصر السياسية ، وتحالف مع القصر لجنة كبار العلماء من رجال الأزهر الذين غضبوا من استنارة الشيخ على عبد الرازق كما غضبوا من استنارة أستاذه محمد عبده ، فهاجموا الأخير كما هاجموا الأول.[1] ولكن ذهب خصوم الرجل ، وذهب الملك فؤاد ، وبقى الكتاب نفسه وثيقة رائعة من وثائق التنوير ، وثيقة تعلمنا أننا ننتمي إلى تراث عظيم ، وان لنا من المشايخ ما نفخر به، رفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده وعلى عبد الرازق وأمثالهم.

هؤلاء هم الذين ننتمي إليهم ، وهؤلاء هم الذين أسهموا في صنع وعينا الحديث، وإيماننا الراسخ بالدولة المدنية وبالمجتمع المدني ، وهؤلاء هم

---

[1] – الإمام محمد عبده لم ينكر فروض الإسلام كالقضاء والجهاد ، وهو –كغيره من علماء المسلمين – يقول بوجوب الخلافة وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في جميع أحكام المعاملات ، فأراء الإمام والآراء المنسوبة إلى الشيخ عبد الرازق على طرفي نقيض ، ولكن د / عصفور يريد أن يوهمنا بكثرة أنصار هذا الاتجاه من علماء الأزهر ، والواقع الذي لا يمكن إنكاره أن الشيخ على عبد الرازق في هذا الميدان وحده.

ولكن يقال : إن أوربا متقدمة في صناعة النظارات ، وأن الأوربيين يصنعون نظارات عجيبة تُمَكِّن رواد الاستنارة عندما يسلطونها على واقعنا ، من رؤية صورة مخالفة لما نراه نحن بالعين المجردة ، فقد رأوا الشيخ على عبد الرازق فيلقاً من العلماء ، ورأوا أنصاره لا يحصيهم عاد . هذا عدا الأفندية الذين يتحدث عنهم د / عصفور بقوله : وإذا أضفنا إلى هؤلاء المشايخ العظام أقرانهم من الأفندية دعاة التنوير أدركنا أن ما تقوم عليه نهضتنا وثقافتنا أقوى وأعظم من أن يتأثر بأية هبة من هبات الإظلام)

مع ملاحظة أن الأفندية دعاة التنوير يستبدلون حرف السين بحرف الظاء في الكلمة الأخيرة. !!

الذين علمونا أن لا تناقض ولا تعارض بين الدين والدولة المدنية التي تسعى إلى التقدم ، أو بين رجل الدين والمجتمع المدني الذي يتسلح بالعلم ، ويبنى مستقبله بهذا العلم ، وإذا أضفنا إلى هؤلاء المشايخ العظام أقرانهم من الأفندية دعاة التنوير أدركنا أن ما تقوم عليه نهضتنا وثقافتنا أقوى وأعظم من أن يتأثر بأية هبة من هبات الإظلام

تحية لهذا الشيخ الجليل في عصره ..

وتحية لأشباهه في عصرنا.)[١]

ويعتبر د / جابر عصفور إصدار هذا الكتاب ضمن سلسلة التنوير نوع من الدفاع عن الكتاب من قوى الاستنارة في مصر، وكل الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية، وكل دعاة الدولة المدنية والمجتمع المدني .

وما أكثر حديث رواد التنوير عن الديمقراطية، وما أقلهم عملاً بها ، فالديمقراطية تفرض عليهم أن يصدروا في سلسلة التنوير كتاباً يحمل الوجه المقابل لفكر الشيخ على عبد الرازق ، لأن هذه السلسلة - التي ينفق على إصدارها من خيرات بلدنا مصر - ينبغي أن تأتى معبرة عن أفكار كل المصريين، وليس فقط المستنيرون منهم.

لكن هؤلاء المستنيرين يأبون أن ينتشر فكر سوى فكرهم، وقد ركبوا الموجة برغبة الدول في القضاء على الإرهاب المسلح ، فتسلحوا هم بالإرهاب الفكري ، وعملوا من وراء ستار على القضاء على الإسلام نفسه بنشر الكتب التي أساءت إلى الإسلام على مدار القرن العشرين .

هؤلاء هم حزب الاستنارة ، وأولئك هم المستغربون ، الذين ينتمي إليهم د / جابر عصفور، والذين لا يودون أن يكون للمسلمين شريعة، ولا دولة، ولا هوية مستقلة.

---

[1] – د / جابر عصفور مقدمة كتاب (الإسلام وأصول الحكم) سلسلة التنوير مطابع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م

أولئـك هـم أعـداء الديمقراطيـة التـي يرفعـون شـعارها ، وإلا فليعرضـوا فكرهم على هذا الشعب المسلم بكل حرية. ليروا ماذا ستكون النتيجة ؟

إن النتيجــة التــي تخيـف قـوى الاسـتنارة هــي فشـل محــاولاتهم التــي استهدفت إبعاد المسلمين عن دينهم . فلا زال أصحاب فكرة فصل الدين عن الدولـة ، ينظـرون إلـى أنفسـهم علـى أنهـم قليلـون ومنبـوذون فـي المجتمـع الإسلامي

ويعيـب الـدكتور عصـفور علـى الأزهـر ، فـي معاقبـة الشـيخ ، ويـذكر أن القصر اتفق مع لجنة كبار العلماء على العقاب ، صدر قرار بسحب شـهادة العالمية من الرجل، وتبع هذا القرار فصله من عمله في القضاء.

ومسألة اتفاق القصر مع الأزهر غير مقبولـة من حيث أن الهدف منهـا إظهار شجاعة الشيخ على عبد الرازق ، وكيف نقول بإجماع علمـاء الأزهـر علـى الخـوف مـن القصـر، الـذي لـم يخـش بأسـه الشـيخ علـى عبـد الـرازق.؟ وحسـب فكـرة الأسـتاذ / أحمـد بهـاء الـدين ينبغـي إضـافة طـرف ثالـث وهـو الإنجليـز ، ليصـح أن نقـول : إن الشـيخ تحـدى الأزهـر والقصـر والإنجليـز مجتمعين!!

والواقع التاريخي يقول : إن الأزهر أصدر ذلك بمقتضى القانون المعمـول به ومن حيث إنه تبين أن التهم الموجهة إلى الشيخ على عبد الـرازق ثابتـة عامة ، وهى مما لا ينـاسب وصف العالمية وفقاً للمـادة (١٠١) مـن القـانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١م ونصها (إذا وقـع مـن أحد العلمـاء أيـاً كانـت وظيفتـه أو مهنته ما لا ينـاسب وصف العالميـة يحكم عليـه من شيخ الجـامع الأزهـر بإجماع تسعة عشر عالماً من هيئة كبار العلماء المنصوص عليها في البـاب السابع من هذا القانون بإخراجه من زمرة العلماء، ولا يقبل الطعن فـي هـذا الحكم .

ويترتب على الحكم المذكور محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى ، وطرده من وظيفته وقطع مرتباته في أي جهة كانت ، وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية دينية أو غير دينية)

فبناءً على هذه الأسباب :

حكم شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ، ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء.[1]

ولم يكن الأزهر وحده في هذا الحكم ، بل إن المسلمين جميعاً استنكروا ما قاله الشيخ على عبد الرازق ، وأذكر هنا اسماً من ألمع الأسماء ، إنه الزعيم سعد زغلول، فماذا كان رأيه في كتاب الإسلام وأصول الحكم .؟

قال سكرتير سعد زغلول الخاص الأستاذ / محمد إبراهيم الجزيرى في كتابه سعد زغلول ذكريات تاريخية صـ ٩٢ : قلت له -أي لسعد باشا - ما رأيكم في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فقال مهتماً كمن يستعد لإلقاء محاضرة ، لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب ، فعجبت : كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في هذا الموضوع ، وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق ، فقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه بل بالبسيط من نظرياته ، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدني ، ولا هو بنظام يصلح للحكم ، فأي ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام ، هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أي نوع آخر من المعاملات .؟ ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر .؟ أو لم يقرأ

---

[1] – صدر هذا الحكم بدار الإدارة العامة للمعاهد الدينية في يوم الأربعاء ٢٢ من المحرم سنة ١٣٤٤ هـ ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م انظر (رد هيئة كبار العلماء) مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٤١٤هـ

أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة ، كانت أندر العصور، وأن أمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة ، فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم ، وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة ، أين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية في الأزهر .؟ إني لا أفهم معنى الحملة المتحيزة التي تثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع ، وما قرار هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه ، لأن لهم حقاً صريحاً بمقتضى القانون أو بمقتضى المنطق والعقل أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم ، فهذا أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأي التي تعنيها السياسة)[1]

فأي قوى الاستنارة دافعت عن الكتاب ؟ وأي الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية وقفت بجانب صاحبه.؟

ويجب أن نقرر أن فكرة الشيخ على عبد الرازق لم يقل بها أحد مطلقاً من المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم وآرائهم- فهو يخالف علماء كل المسلمين منذ بدء تاريخ الإسلام حتى وقته ، ومعنى ذلك أن المسلمين جميعاً مر عليهم أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، ولم يكونوا يفهمون حقيقة الإسلام والخلافة حتى جاء الحبر العلامة .. البحر الفهامة .. واضع هذا الكتاب أو هذه الدعاية ليبين في آخر الزمان حقيقة الإسلام ونظامه ، ذلك أن كل المسلمين أجمعوا بعد وفاة الرسول ε على أنه لا بد أن يوجد من يخلفه ، ويقوم مقامه لحفظ الدين واستمراره ، وتنفيذ شريعته وحماية أمته وتبليغ رسالته إلى سائر أنحاء العالم ، ولم يقل أحد أبداً إنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك ، وأن المسلمين كان عليهم أن يتفرقوا ويفككوا وحدتهم ويهدموا نظامهم ، ويسرحوا جيشهم ، ويعيشوا كأفراد متقطعين لا شأن لهم بالدنيا، حتى يجئ أعداؤهم فينقضوا عليهم ويحتلوا وطنهم ، ويمحوا

---

[1] – د / محمد رجب البيومى (الإسلام وأصول الحكم في الميزان) صـ ٦٠ ، ٦١ نشر / مجلة الأزهر عدد صفر ١٤١٤هـ

دينهم ، وهم لا يصنعون شيئاً ، لأن دينهم لم يأمرهم بذلك، لأنه دين فقط ، والدين لا شأن له بالدنيا ولا بالحرب ولا بالسياسة ـ كما يريد أن يقول هذا الشيخ ـ بل معاذ الله : هذا الشخص غير المسلم الذي وضع هذا الكتيب بإشارة المخابرات البريطانية.[١]

- من مؤلف (الإسلام وأصول الحكم) ؟

لا نبحث الآن في جزئيات الكتاب لنرد عليها ، فقد رد عليه كثيرون من العلماء المسلمين ، ولكن نتعرض لمسألة نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه الشيخ على عبد الرازق . حتى يتضح لنا مدى صلته بقوى التبشير التي تعمل بليل ، وتكيد للإسلام بالمسلمين أنفسهم ، وتجند من بين صفوف المسلمين من يقوم بدورها في العالم الإسلامي .

لقد أخذت شكوك عديدة تثار حول نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، واتخذت هذه الشكوك جانبين ، شكوك نابعة من الكتاب نفسه ، وأسلوبه والتواريخ المذكورة فيه والهدف من تأليفه ، وغير ذلك ، وأخرى تدور حول شهادة بعض العلماء بأن الشيخ على عبد الرازق نفى نسبة هذا الكتاب إلى نفسه .

- شكوك نابعة من الكتاب نفسه

نلاحظ أن المؤلف يتحدث عن المسلمين كأنه أجنبي عنهم وهم منفصلون عنه ، فيذكرهم بضمير الغائب ، ولا يقول عندنا أو العرب أو نحو ذلك كما يقول المسلم عادة.

ويتحدث عن حكومة النبي ε بعبارات لم تعرف من قبل في الفكر الإسلامي مثل (الزعامة النبوية) وهناك تعبيرات تراها استشراقية بحتة مثل قوله (ولا شك في أنه ε قد امتد بصره إلى ما وراء جزيرة العرب) فتعبير (امتد بصره) لا تجده في غير كتب المستشرقين

[1] – د/ محمد ضياء الدين الريس – الإسلام والخلافة صـــ ٢٤٦ ، ٢٤٧

عجيب أن يذكر الشيخ عبد الرازق - لو كان هو المؤلف - عيسى وقيصر مرتين، ويكرر هذه الجملة التي سماها (الكلمة البالغة) (دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله)

فهل الشيخ كان يتعلم في الأزهر عيسى وقيصر ، ومتى .؟

وهل الشيخ يريد من المسلمين أن يقتدوا بالمسيحيين ، ويؤمنوا بقيصر ، ويذعنوا لسلطانه مثل إذعانهم لسلطان الله .؟!

- وهل المسلم الذي يحب دينه وأمته ، يتعاطف مع (المرتدين) الذين خرجوا على الإسلام ، وشنوا الحرب على المسلمين ، فيدافع عنهم - في نفس الوقت الذي يحمل فيه على أبى بكر الصديق - فينكر خلافته ، ويقول : إن محاربته لهؤلاء المرتدين لم تكن حرباً من أجل الدين

- نقرأ في طبعة سلسلة التنوير صـ ٢٥ (ولكن أيسهل الشك في أن علياً ومعاوية رضى الله تعالى عنهما لم يتبوءآ عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيوف ، وعلى أسنة الرمح ، وكذلك الخلفاء من بعد إلى يومنا هذا ، وما كان لأمير المؤمنين محمد الخامس سلطان تركيا ، أن يسكن اليوم يلدز لولا تلك الجيوش التي تحرس قصره وتحمى عرشه)

- ونلاحظ شيئاً غريباً وهو أنه ذكر في صـ ١١ عبارة تفيد أن تأليف الكتاب في سنة ١٩٢٤ م فقد ذكر اسم كتاب مترجم عن اللغة التركية، ترجمه عبد الغنى سني بك ، ونص على تاريخ طبعه ١٩٢٤م بمطبعة دار الهلال بمصر، بينما في صـ ٢٥ بعد ذلك نص على أن تاريخ التأليف قبل سنة ١٩١٨م لأنها ذكرت اسم السلطان محمد الخامس وقد ذكر في الهامش (كتبنا ذلك يوم أن كانت الخلافة في تركيا ، وكان الخليفة محمد الخامس ، وقد ذهبت بعد ذلك الخلافة من تركيا ، وذهب محمد الخامس

وغير محمد الخامس من الخلفاء ، لما ذهبت تلك القوة التي قلنا إنها أساس الخلافة..

ومعنى هذا أن صـ ٢٥ وصفحات بعدها كتبت قبل صـ ١١ بثماني سنوات على الأقل ، فما هو سر هذا الاختلاف العكسي .؟

فأظهر الاحتمالات - كما يقول د / محمد ضياء الدين الريس - أن مؤلِفاً آخر أضاف فقرات أو صفحات على نص الكتاب الأصلي بعد ثماني سنوات أو أكثر ، وهذا يتفق مع الافتراض السابق أن الشيخ على عبد الرازق أضاف بعض فقرات أو تعليقات وغير ذلك على الكتاب الأصلي الذي وضعه وغيره.

وهناك أمثلة أخرى على هذا التخالف ، منها أن كتاب السيد رشيد رضا الذي لم يظهر إلا في سنة ١٩٢٣ ذكر في صـ ١٧ أي قبل صـ ٢٥ التي ذكر فيها اسم السلطان أيضاً ، ففي الكتاب تواريخ معكوسة واضطراب ، وأقرب تفسير لذلك أن الكتاب ليس من تأليف شخص واحد .

- وأخر ما نقوله عن الشيخ على عبد الرازق أنه لم يكن كاتباً تمرس في الكتابة، ومرن على التأليف ، وكأن كتابه - أو بالأحرى الكتاب المنسوب إليه - كان بيضة الديك كما يقولون، ولهذا نقل فضيلة المفتى الشيخ محمد بخيت عن كثيرين من أصحاب الشيخ المترددين عليه ، أن مؤلف الكتاب شخص آخر من غير المسلمين.

وكانت هناك أسباب أو دوافع مختلفة دفعت الشيخ إلى إصدار هذا الكتاب ، ولكن أقواها في نهاية الأمر حب الظهور والرغبة في الشهرة ، وأن يوصف بأنه باحث أو محقق ، أو فيلسوف أو مجدد ، كما فعل كثير غيره من قبله ومن بعده - وخصوصاً في عصره ، ونحن نعرف أن مسألة انتحال الكتب أو عدم الأمانة في نسبة الأمور أو المعلومات مسألة مألوفة

وملحوظة في الأوساط العلمية ، ولا سيما في النقل من الكتب الأجنبية ، وفى هذا الحادث بالذات كانت الحالة أسهل، لأن النقل أو الترجمة عن كتيب مجهول ، أو كانت المسألة بتصريح أو اتفاق لخدمة غرضين ، فالطرف الأول يريد نشر آرائه لغايات سياسية ودينية ، والثاني له مآرب سياسية أيضاً أو غيرها ، ولكن الدافع الذاتي أنه يريد الشهرة والظهور ، فقاتل الله حب الشهرة والظهور أو الغرور ، فكم أدت هذه بالناس إلى عثرات مهلكة ، أو سببت مصائب أو قادت كثيراً من الرجال إلى مصارعهم وفى التاريخ أمثلة كثيرة.[1].

- شهادة بعض العلماء

نشرت جريدة الجمهورية في عددها الصادر يوم الجمعة الموافق ٢٨ مايو ١٩٩٣م الصفحة السابعة شهادة الشيخ أحمد حسن مسلم عضو مجمع البحوث الإسلامية فيما أسر له به الشيخ على عبد الرازق من أن المؤلف الحقيقي لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) هو الدكتور طه حسين.

هذه الشهادة المفاجئة أحدثت ردود فعل واسعة في كافة الأوساط الأدبية ، ووقعت وقع الصاعقة على الكثيرين الذين ينصبون من أنفسهم مدافعين عن الدكتور طه حسين ، وقابلها البعض بارتياح شديد ، وإن كان أحد لا يستطيع التشكيك في صحة الشهادة وذمة قائلها

وقد سألت الجريدة الشيخ أحمد حسن مسلم عن سبب تأخر الشهادة كل هذه الفترة الطويلة ، فقال : هذا الأمر حدث وأنا في مطلع حياتي في وظائف الدولة فيما بين عامي ١٩٤٢ ، ١٩٤٨م حيث عينت واعظاً في بنى مزار ، وأتذكر يومها أنى كنت ألقى محاضرة في قرية (المودة) بجوار قرية (أبو جرج) وهى بلدة الشيخ على عبد الرازق ، وخرجت بعد صلاة العصر ،

---

[1] - د / محمد ضياء الدين الريس (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) صـــ ٢١٧ -٢٢٣ بتصرف.

وكان يوم خميس قاصداً بنى مزار إلا أنني لم أدرك الأوتوبيس الأخير ، فذهبت إلى الشيخ على عبد الرازق في منزله ، بقرية أبو جرج المجاورة عسى أن أجد لديه ما أنتقل به إلى بنى مزار ، وحضرت صلاة المغرب ، فصليناها في جماعة ، وبعد الصلاة وجدته يصلى ست ركعات سنة بعد المغرب ، أطال فيها القراءة والركوع والسجود ، فاضطرني الموقف أن أسأله : كيف يكون حرصك على أداء السنة بهذه الطريقة ، وأنت مؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وهو كتاب عليه كثير من المآخذ ، التي تقدح في العقيدة ؟!

فسكت الشيخ على عبد الرازق وقال لي - أي للشيخ مسلم- هل أنا الذي ألفت هذا الكتاب ؟ ! إنما ألفه الدكتور طه حسين !! فسألته : ولماذا نسبه إليك.؟ فقال الشيخ على عبد الرازق : لقد فاجأني بالكتاب وعليه اسمي ، ولما سألته عن سبب ذلك . أجاب دكتور طه حسين مازحاً : لكي تكون لك شهرة عالمية ، وذلك بعد أن تنقل عنك وسائل الإعلام الأجنبية والعالمية ، تتحدث عن هذا الكتاب ، وما به من فكر !!

وهذا خبر هام ينقله إلينا رجل فاضل من علماء الأزهر ، والقرائن تؤيده ، فلو افتراضنا أن أسلوب الكتاب يختلف عن أسلوب الدكتور طه حسين ، فإن مؤلف هذا الكتاب يكون شخصاً غير مسلم ينكر الفروض وبصفة خاصة فروض الجهاد، ويهدم التشريع العملي للإسلام .

والأسلوب الذي كتب به الكتاب أسلوب غريب ليس مألوفاً في الكتب العربية، فهو أسلوب مناورات ومراوغة ، ويتصف بالالتواء واللف والدوران ، فهو يوجه الطعنة، أو يلقى بالشبهة ، ثم يعود فيتظاهر بأنه ينكرها ، ولا يوافق عليها، ويفلت منها، ثم ينتقل بشبهة أو طعنة أخرى ، وهذا أسلوب المبشرين والمستشرقين.

وهناك من يرى أن الشيخ أخذ هذا الكتاب أو كثيراً من محتوياته عن المستشرقين مباشرة دون وساطة الدكتور / طه حسين ، فقد سافر الشيخ على عبد الرازق إلى بريطانيا عامين للدراسة في جامعة أكسفورد ، ولكن الحرب العالمية الأولى حالت دون إتمام دراسته (وقد كان الأستاذان مارجليوت وأرنولد من كبار أساتذة أكسفورد التي التحق بها الأستاذ على عبد الرازق على مدى عامين متتابعين، وموضوع حديثهما في الجامعة هو السياسة الإسلامية ، فاستجاب الأستاذ لما سمع ، وهذا هو موضع العجب ، لأنه أزهري يفترض فيه أن يكون قد درس أصول الحكم في الإسلام، وقرأ ما كتبه أساطين العلماء ، ولكن كتابه الذي ألفه ينطق بأنه لم يلم بما قاله هؤلاء الأعلام ، فكان فريسة سهلة الوقوع)[١]

وكتاب (الخلافة) - طبع في أكسفورد سنة ١٩٢٤ - للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد الذي كتبه عقب الثورة الكمالية في تركيا ، تمجيداً لهدم الخلافة ، وإبعاده الإسلام عن مجالات الحياة العامة في تركيا ، من المصادر الموجهة لكتاب الإسلام وأصول الحكم[٢]

والدكتور / محمد ضياء الدين الريس يرى احتمالية أن لا يقتصر الأمر على مجرد اقتباس الأفكار ، بل يرجح أن يكون كاتب (الإسلام وأصول الحكم) إنجليزياً يكتب في أيام الحرب العالمية الأولى ، ولهذا يشن الهجوم على الخلافة والخليفة ، لأن بلاده (بريطانيا) في حرب مع تركيا ، وقد أعلن الخليفة العثماني الجهاد الديني ضدها ، والنصوص في الكتاب قاطعة بأنه كان موجهاً ضد الخلافة العثمانية .

يتساءل الدكتور الريس : من يكون إذن هذا الشخص غير المسلم الذي كتب عن الخلافة بهذه الصورة .؟ الأظهر أنه كان أحد المستشرقين الإنجليز

---

1 - د / محمد رجب البيومى (الإسلام وأصول الحكم في الميزان صـ ١٣.

2 - د / محمد البهي صـ ٢٧٤ ، ٢٧٥. ونرى كتاب (الخلافة) لأرنولد من بين مراجع (الإسلام وأصول الحكم)

، ويغلب على الظن أن يكون هو المستر (مرجوليوت) اليهودي الذي كان أستاذاً للغة العربية في بريطانيا ، وتدل كتاباته عن الإسلام على أنه كان صهيونياً معادياً للإسلام وللمسلمين ، ويكتب عن الإسلام بجهالة ونزعة حقد.

ومن المعروف أن المستشرقين يتعاونون مع حكوماتهم ، ولا سيما في فترات الحروب ، وغالباً ما تكلفهم المخابرات بكتابة نشرات أو كتب ، لتستخدم كأسلحة في الدعاية أو الحرب السياسية .

وكان الشيخ عبد الرازق قد اطلع على هذا الكتاب أو عثر عليه - هذا إن لم نفترض أن هذا كان باتفاق بينه وبين المستشرق الذي اتصل به حين كان الشيخ في إنجلترا قبيل الحرب العالمية الأولى ، أو إن لم نقل إن طه حسين هو الذي قام بمهمة الوساطة في هذا الأمر كما روى الشيخ أحمد حسن مسلم ، في شهادته أمام مجمع البحوث الإسلامية.

وهذا هو الذي فهمه الصحفي الكبير (أمين الرافعى) الذي كان متصلاً بالدوائر الصحفية والسياسية ، فكتب في الأخبار يقول : إنه لم يستغرب أن يقدم الشيخ على عبد الرازق على إصدار هذا الكتاب لما عرف عنه من الضعف في تحصيل العلوم والإلحاد في العقيدة.

وهناك قرائن وأدلة أخرى تضاف إلى ما تقدم ، وهى تؤيد هذا الاستنتاج منها :

- تأويل ما لقيصر على أنه خارج حدود الدعوة الدينية

الفكرة التي قام عليها كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ليست وليدة المجتمع الإسلامي ، فلم يحدث في المجتمع الإسلامي صراع بين السلطة الدينية والسياسية، وإنما هذه فكرة غربية خالصة ، فقد شهدت العصور الوسطى الصراع المرير بين البابا والإمبراطور : أيهما يحكم .؟ انتهى الأمر بالفصل

الكامل بين سلطة البابا ، وسلطة الإمبراطور ، وعلى أساس من هذا الفصل حدد الغربيون معنى الدين عندهم، فأرادوا به التوجيه الروحي للأفراد ، كما حددوا معنى الدولة ، فقصدوا بها تنظيم العلاقات بين الأفراد ، واستعانوا في هذا بقول الإنجيل (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله).

ومن ثم جاء المستنيرون وهم أولئك الذين تأثروا بالغربيين في نظرتهم إلى الحياة كلها فقرروا في نظرتهم إلى الدين مفهوم الغرب ، وحاولوا أن يجدوا تخريجاً لهذه (الفضلة) في الإسلام ، حتى يبقوه ديناً ، وحتى ينالوا في الوقت نفسه رضاء علماء الغرب عن الإسلام والمسلمين ، لا كدين ولا كمؤمنين ، وإنما كمشاركين للغربيين في الحياة الحاضرة.

هذه (الفضلة) هي موضوع التخريج ، أو هي موضوع من موضوعات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث. . وترجع هذه التخريجات المتنوعة كلها أو تؤول إلى شيء واحد هو : إلغاء شخصية الجماعة الإسلامية.

وقد جاء كتاب (الإسلام وأصول الحكم) يستمد تحديده للإسلام كـ (دين) من فكرة الفصل بين الكنيسة والدولة في الغرب ، دون أن يستشير في هذا التحديد بادئ ذي بدء مصدره الأول ، وهو القرآن الكريم !!

ويعالج الكتاب أو يعرض دعوى أن : الإسلام دين لا دولة . وفى عرضه لهذه الدعوى يستعير من الدراسات الإسلامية للمستشرقين، القساوسة الصليبيين واليهود الحاقدين ، ما لهم من آراء في هذا الجانب ، وما لهذه الدراسة من أصول تواضعوا عليها عند النظر إلى الإسلام ، لا نتيجة لبحث نزيه ، ولكن انبثاقاً عن غرض خاص.

والكتاب - في سير حركة التفكير فيه - يتخذ الطابع الذي عرفت به المسيحية بين أتباعها أساساً في تقدير الإسلام كدين ، على نحو ما صنع الغربيون في حكمهم عليه، وحين يواجه الكتاب بعد ذلك ما ورد في

المصدرين الأصليين للإسلام ، وهما: القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، مما يجعل الإسلام متجاوزاً حد الدين في عرف الغرب المسيحي إلى ما يسمى بـ (الدولة) عندهم يتخذ الكتاب موقفاً مرجحاً بين أمرين متقابلين:

الأمر الأول : تأويل هذا الزائد عن حد الدين في عرف الغربيين بأنه لا يتصل بما يسمى بـ (الدولة) أو السياسة في قليل ولا كثير !!

والأمر الثاني : قبول هذا (الزائد) على أنه من مظاهر السياسة ومن شئون الدولة، ومع ذلك هو خارج عن حدود الدعوة الدينية التي كلف بها الرسول ، ولكن اقتضته فقط (الزعامة النبوية) على عهده.

وكان لا بد للكتاب من أن يتعرض لفكرة (الجهاد) في الإسلام ، كمظهر واضح من المظاهر التي تجعله دين (جماعة) وليس ديناً لمجموعة من الناس ، مما لا يساعد على الوقوف بالإسلام عند حد (الدين) في عرف الغربيين !!

وقد تعرض لها فعلاً ، وشرحها أخيراً على أنها من خصائص (الزعامة النبوية) فهي إذن موقوتة بوقتها !! ولذا فقد انتهى أمر (الجهاد) بوفاة صاحب هذه الزعامة ، وانتهت بذلك شخصية (الجماعة الإسلامية ، وبقى المسلمون بعد وفاته أفراداً ، يختار كل فريق منهم الاتجاه السياسي الذي ينزع إليه ، ولو كان اتجاهاً شيوعياً !!

وهذا الذي انتهى إليه هو ذات النتيجة التي انتهى إليها تفكير السيد (أحمد خان) ومذهب القديانية ، من إلغاء الشخصية الإسلامية !

وهذه النتيجة أو هذا الهدف ، هو دائماً المركز الذي تلتقي عنده معاول الهدم باسم الدراسات الإسلامية في دراسات المستشرقين.[1] فإذا ما اتخذت قوى الاستنارة في مصر فكرة المستشرقين حول الدولة سبباً تبدأ منه أو

[1] - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي صــ ٢٥٢ - ٢٦٥ بتصرف

نتيجة تحاول الوصول إليها فإن هذا يعنى الهدم ، ويعنى أننا نتخلى عن ديننا ، ونتخلى عن تاريخنا ، ونتخلى عن كتاب ربنا الذي أنزله بلغتنا يتحدى العرب والعجم أن يأتوا بمثله ، وليست العربية هي موضع التحدي بل ليأت من استطاع بكلام يشبه كلام القرآن في أي لغة من لغات العالم بحيث يستحيل على المتحدثين بلغته أن يأتوا بمثل كلامه كما استحال على العرب أن يأتوا بمثل القرآن .

ومع ذلك فإن قوى الاستنارة ستهاجم القرآن والسنة والشريعة وكل مقومات الإسلام ، زاعمة أنها وحدها صاحبة الفهم الصحيح للإسلام ، وما تفعله هذه القوى بسيطرتها على وسائل الثقافة والإعلام يفوق خطره الجيوش التي جيشها الغرب لمحاربة الإسلام في القرون العشرة الماضية .

ولهذا فنحن عازمون على مواصلة الرد على حزب الاستنارة ، في نطاق توجيهات القرآن من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن.

الفصل السادس

القرآن الكريم

بين المستنيرين والمبشرين

ليست محاولة تشويه القرآن الكريم حديثة أو معاصرة ، وإنما هي ممتدة في التاريخ الإسلامي ، حمل لواءها أعداء الإسلام من يهود ونصارى ووثنيين ، ولهذا لا نهدف إلى تتبع هذه الحركات ، وإنما يعنينا أن نبين كيف نجح المبشرون النصارى في تجنيد المستنيرين المسلمين للقيام بدورهم .

في الخطوة الأولى ، وقبل أن يجد التبشير من يحمل أفكاره من أبناء المسلمين وقع على طائفة من أهل ملته الشرقيين ، وعهد إليهم بقيادة الركب ، وليس غريباً أن نلاحظ كيف أن حاملي الأفكار التنويرية كانوا في غالبيتهم المطلقة من المسيحيين.

والحقيقة أن ظهور حركة التنوير السورية يرتبط بنشاط الشيخ ناصيف اليازجى (١٨٧١م) الأديب والكاتب ، المنتمى مذهبياً إلى الروم الكاثوليك ، وبالماروني بطرس البستاني ١٨٨٣م ، أما الماروني سليم البستاني فقد ترجم إلى اللغة العربية الإلياذة وألف الأرثوذكسي جرجى زيدان ١٩١٤ م وهو الأديب والمؤرخ المعروف عملين مهمين للغاية هما : تاريخ التمدن الإسلامي ، وتاريخ آداب اللغة العربية، وفى الوقت نفسه كتب فرح أنطون ١٩٢٢ مجموعة الروايات التاريخية الفلسفية ، أما الأديب الماروني مارون نقاش ١٨٥٥ فهو بحق رائد المسرح العربي، فقد أسس مسرحاً على النمط الأوربي ، ونظيراً لمسرحه هذا أنشأه في الإسكندرية أديب إسحاق وسليم نقاش.

غير أن الاعتراف الأكبر حصل عليه المسيحيون السوريون في ميدان الصحافة على وجه التحديد ، إذ أسس خليل الخورى (أرثوذكسي) أول صحيفة مستقلة في سوريا بعنوان حديقة الأخبار ، وحرر أديب إسحاق صحيفة (مصر) وبالتعاون مع سليم نقاش أصدرا معاً جريدة (التقدم) أما الأخوان الكاثوليكيان سليم وبشارة تقلا فقد أسسا في الإسكندرية في عام ١٨٧٦ صحيفة الأهرام التي انتقلت إلى القاهرة ، وما زالت تصدر إلى

اليـوم. بينمــا أصــدر المارونيــان يعقـوب صــروف وفــارس نمــر مجلــة المقتطف.[١]

وأما الخطوة الثانية فقد قام جيل جديد يحمل فكر هؤلاء ، ويحمل لواء التنوير بعدهم. وبينما كان المسلمون يتحسسون الطريق للخروج من مأزق التخلف وضع الغرب المعادلة التي تقول : إما التنوير وإما الظلام ، فالذي يطالب بتطبيق الإسلام إنما يطالب بالعودة إلى عصر الظلام ، والذي يتطلع إلى الحياة العصرية والحرية المطلقة إنما هو تنويري ، فلا بد للتنوير أن يواجه الظلام ، ولا بد للسفور أن يواجه الحجاب ، وللقانون الفرنسي أن يقف في مواجهة الشريعة الإسلامية التي أدت إلى تخلف المسلمين وسيطرة الغرب عليهم !!

والغريب في الأمر أنـه إذا أساء أحد التنـويريين إلـى الإسلام اعتبـر ذلك داخلاً تحت مجال الحريـة الفكريـة ، وإذا قـام أحـد الغيـورين علـى دينـه بـالرد عليه اعتبروا ذلك اعتداءً على الحرية الفكرية !!

وحـزب المسـتنيرين اتسـع حتـى شـمل أجيـالاً مـن المثقفـين ، يقـودون السفينة الآن بمن فيها من مسلمين طيبين تجاه الغرب ، ولهذا فأتباعـه فـي المجالات الثقافية المختلفة يحتقرون كل مقومات تاريخهم ، ويزعمـون أنـهم رواد النهضة ، وقادة الإصلاح ، وإن كانت النهضة لم تتحقق ، والفسـاد لـم ينته إلا أنهم يتمسكون بقيادة السفينة ، فـإذا سمعوا كلمـة (إسلام) اشمأزت قلوبهم ، وسدوا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً.

وقد ضمن الاستعمار الخفي أن يظل هؤلاء محمـولين علـى الأكتـاف، ممـا أغرى كثيـرين مـن ضـعاف النفـوس والثقافـة بالانضمام إلـيهم ، حتـى وصل الأمر إلى الجامعات ، فمن كان سيسمع عن اسم أستاذ فـي كشـوف أسـاتذة جامعة القاهرة اسمه: نصر حامد أبو زيد لو لم يكن نصر هذا قد طعن فـي القرآن الكريم !!

[١] - الإسلام والمسيحية صـــ ٢٠٥ ، ٢٠٦

لقد طعن المستشرقون في كل جزئية في الإسلام ، وأهم مطاعنهم أتت على المصادر الإسلامية من قرآن وسنة ، وقد عرضوا لفكرة بشرية القرآن في إحدى صورتين:

الصورة الأولى : أنه انطباع في نفس محمد ε نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية.

الصورة الثانية : أنه تعبير عن الحياة التي عاش فيها محمد ε بما فيها المكان والزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية.

وإحدى الصورتين ملازمة للأخرى ، ويتوقف اختيار إحدى الصورتين على الأخرى لدى الكاتب الذي يرى (بشرية القرآن) على أحوال البيئة التي يعلن فيها الكاتب الرأي ، فإن كانت بيئة أجنبية غير مسلمة أمكن مواجهتها بالصورة الأولى، وهى أن القرآن انطباع نفسي !

أما إذا كانت بيئة إسلامية ، فيقتضي الأمر أن يتبع فيها أسلوب اللف والدوران. فالمستغربون أو المستنيرون المسلمون يعرضون الصورة الثانية.[1]

والصورة الأولى سلكها (جب) في كتابه (المذهب المحمدي) فقد ذكر أن مكة كانت فيها حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين ، وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء، وأنه وجد ظلم اجتماعي بين سكانها ، وأن الرسول محمد ε (انطبعت) في نفسه كل هذه الجوانب ، وكان على وعى تام بها ، وترى آثارها في حياته : في قرآنه وفى كفاحه إلى أن مات .

أما الصورة الثانية : وهى أن القرآن تعبير عن الحياة التي وجد فيها الرسول ، فيحكيها كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين.

وقد قدم طه حسين كتابه إلى صاحب الدولة (عبد الخالق ثروت باشا) على عادة المؤلفين في عهد الركود الفكري قصداً إلى الترويج والحماية ، وقد نال حظاً وافراً من هذين الأمرين، لا يقل عما ناله صاحب كتاب

---

1 – الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي صـــ ٢٢٥ ، ٢٢٦

(الإسلام وأصول الحكم) الذي ظهر قبل ذلك بعام واحد ، وكأنها هجمة شرسة من المستنيرين أو المبشرين العرب على الإسلام ومبادئه.

وقد أعرب طه حسين عن اطمئنانه إلى أن كتابه هذا وإن أسخط قوماً وشق على آخرين ، فإنه سيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم حقيقة الأمر ، وعدة المستقبل ، وقوام النهضة الحديثة ، وذخر الأدب الجديد.[1]

ويقوم كتاب (في الشعر الجاهلي) على فكرة واحدة هي : أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الإسلام . أي لا يمثل الحياة التي عاش فيها الرسول قبل الرسالة ، بما لها من جوانب وأجواء ، إذ هو شعر مصطنع مفتعل ، ولذا لا يعبر عن حقائقها ، ولا عما دار فيها ! فهو في جملته يعبر عن حياة جاهلية فيها غلظة وخشونة ، وبعيدة عن التمرس السياسي ، والنهضة الاقتصادية .

ومنطق المؤلف : بما أن الشعر الجاهلي لا يصح أن يكون مرآة صافية للحياة الجاهلية ، وهى الحياة التي نشأ فيها الرسول ، وقام بدعوته ، وكافح من أجل هذه الدعوة فيها ، فالشيء الذي يعبر عن هذه الحياة تعبيراً صادقاً وموثوقاً به كل الثقة هو القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي .

وإذا رجعنا إلى القرآن نجده قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية، تنشد أن تكون (قوة ثالثة) بين الفرس والروم .

وإذن فالقرآن دين محلى لا إنساني عالمي ، ولقد وصل الأمر في نظر صاحب الشعر الجاهلي بالنسبة للقرآن إلى أن القرآن لا يعبر فقط عن الحقائق التي وقعت في هذه الحياة العربية الجاهلية ، بل أيضاً عن (الأماني) في هذه الحياة.

ومن ثم يرى أن فكرة العرب المستعربة والعاربة ، قصة مصطنعة تعبر عن أمل قريش في قيام وحدة سياسية . وبناءً على ذلك تكون قصة إسماعيل وإبراهيم خيالية، والقرآن أو محمد لم يشأ أن يغفل شأنها لما لها

---

[1] – في الشعر الجاهلي طه حسين صـــ ١ الطبعة الأولى ١٩٢٦ مطبعة دار الكتب المصرية

من أهمية في الصراع بينه وبين قريش. يقول طه حسين : (أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً ، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية ، واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة، وإن قصة (العاربة) و (المستعربة) وتعلم إسماعيل العربية من جُرْهُم كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيها.

والنتيجة لهذا البحث كله تردنا إلى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي قوماً ينتسبون إلى عرب اليمن ، إلى هذه القحطانية العاربة ، التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن)[١]

وأنت ترى أن المؤلف سار على نهج مخالف لما عليه أمر تكوين اللغات ، من أن اللغة الأصلية ينفصل عنها العديد من اللغات الفرعية ، ثم تموت اللغة الأصلية بعد أن تصبحاً جداً لهذه العائلة اللغوية .

خالف المؤلف هذا ، إذ الثابت أن العربية لم تمت ، ولم تصبح عدنانية وقحطانية ، وإنما بقيت العربية عربية يتكلم بها أهل الجنوب كما يتكلم بها أهل الشمال ، ولم يستطع طه حسين أن ينكر فهم العرب في الجنوب أو في الشمال للقرآن الكريم حين سمعوه تتلى عليهم آياته.[٢] والتاريخ لا يذكر أن أهل الجنوب عجزوا عن فهم القرآن الكريم كما فهمه أهل الشمال ، ولا يذكر أن أحداً ترجم لأهل الجنوب لغة أهل الشمال.

---

1 – السابق صــ ٢٩

2– السابق صــ ١٨٢

وقبل كتاب (طه حسين) ظهر في الغرب كتاب يسمى (بالمذهب المحمدي) للمستشرق (جب) والفرق بين الكتابين، أو بين (المستشرِقيْن) أو بين المستشرق والمستغرب في عرض بشرية القرآن ليس بكبير ، فأحدهما في وصفه للقرآن يقول :

- فيه (أي القرآن) أخذ من الوثنية العربية. وفيه أخذ من المسيحية العربية ، وفيه أخذ من اليهودية العربية .

وهذا هو كتاب (المذهب المحمدي)

بينما كتاب (في الشعر الجاهلي) يذكر أن القرآن :

- فيه رد على الوثنية العربية . وفيه رد على المسيحية العربية. وفيه رد على اليهودية العربية.

وطالما حدد الكاتبان القرآن بالبيئة العربية ، فما وراء ذلك من اختلاف لا يحدث فرقاً أصيلاً.[١]

فكتاب في الشعر الجاهلي يحكى رأى المستشرقين ، ولكن بأسلوب عربي وتبشيري مبين ، فلا تستطيع أن تفرق هل هو يؤمن بأن القرآن أخذ من (..) أو رد على (..) يقول طه حسين : (ولكن في شعر أمية بن أبى الصلت أخباراً وردت في القرآن كأخبار ثمود وصالح والناقة والصيحة، ويرى الأستاذ (هوار) أن ورود هذه الأخبار في شعر أمية مخالفة بعض المخالفة لما جاء في القرآن دليل على صحة الشعر من جهة ، وعلى أن النبي قد استقى منه أخباره من جهة أخرى. ثم يقول : (ولست أدرى قيمة هذا النحو من البحث ، فمن الذي زعم أن ما جاء في القرآن من الأخبار كان كله مجهولاً قبل أن يجيء به القرآن .؟ ومن الذي يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضه عند اليهود ، وبعضه عند النصارى ، وبعضه عند العرب أنفسهم)[٢] (وليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون ، فأنا لا أؤرخ القرآن ، وأنا لا أذود عنه ، ولا أتعرض للوحي وما يتصل به ، ولا للصلة بين القرآن وما كان يتحدث به

---

[1] – الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي صـــ ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ بتصرف

[2] – في الشعر الجاهلي صـــ ٨٥

اليهود والنصارى ، كل ذلك لا يعنيني الآن ، وإنما الذي يعنيني هو شعر أمية بن أبى الصلت وأمثاله من الشعراء)[1] أ . هـ

والهجوم على الإسلام في فكرة بشرية القرآن يقابله رفق ورقة في التعبير ، إن عبر أحدهما عن المسيحية أو عن الكنيسة !

كما تبدو الفجوة واسعة بين قسوة الهجوم على الأزهر ، ورقة الحديث عن الكنيسة القبطية في كتاب آخر لطه حسين هو (مستقبل الثقافة في مصر)

ويأمل طه حسين أن يصبح عقلنا غربياً ، وأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج (ديكارت) كما فعل أهل الغرب : (وإذا كان في مصر الآن قوم ينصرون القديم ، وآخرون ينصرون الجديد ، فليس ذلك إلا لأن في مصر قوماً قد اصطبغت عقليتهم بهذه الصيغة الغربية ، وآخرين لم يظفروا منها بحظ أو لم يظفروا منها إلا بحظ قليل ، وانتشار العلم الغربي في مصر وازدياد انتشاره من يوم إلى يوم، واتجاه الجهود الفردية والاجتماعية إلى نشر هذا العلم الغربي ، كل ذلك سيقضى غداً أو بعد غد بأن يصبح عقلنا غربياً ، وبأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج (ديكارت) كما فعل أهل الغرب في درس آدابهم وآداب اليونان والرومان)[2] كل هذه الآمال والأحلام والآراء قد ضمنت لطه حسين أن يظل محمولاً على الأعناق، وأن يصير وزيراً للمعارف ، ولأول مرة في تاريخ اللغة العربية يصبح لها عميداً ، ويصبح طه حسين هو ذلك العميد.

- دكتوراه لطاعن في القصص القرآني

ماذا يفعل المبشرون .؟ كلما قالوا كلمة ليثيروا شكوك المسلمين ، قامت في وجوههم العامة والخاصة ، لا بد حتى لا يشعر المسلمون بالخطر على عقيدتهم أن يضعوا سمومهم في العسل.

فكر المبشرون ورجال السياسة ، فوجدوا أن خير وسيلة هي جعل المبشرين من المسلمين أنفسهم حتى يطمئن إليهم العامة والخاصة . إنها

---

[1] – السابق صـــ ٨٣

[2] – السابق صـــ ٤٥

عقليات عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي ، و تردي عباءة البحث العلمي أحياناً ، وقد يتصل الجرأة ببعضهم إلى أن يعلن أن القرآن أساطير الأولين ، ولو صدر هذا القول عن أحد من المشركين لانصرف المسلمون من حوله إن لم يقاتلوه بالسلاح.

وأود أن أشير إلى أن أقوال هؤلاء وأمثالهم لا يمكن أن تنال من عظمة القرآن شيئا، ولا يرتفع غبارها إلى سمائه العالية التي تنقلب عنها الأبصار خاسئة حسرى؛ وكل هذه المقولات إنما هي من نافثات الصدور المحمومة ، إذ أن أصحابها ليسوا على شاكلة أولئك الذين تحداهم القرآن ، وهم أرباب البلاغة ، وأصحاب البيان ، وأهل الحكومة في وزن الكلام ، ومعرفة الفاضل والمفضول منه ، فخشعوا وسجدوا بين يديه ، وعرفوا أين يقع كلامهم منه [١]

ومن هنا فإن محاولة بعض المغمورين علمياً أن يغمزوا القرآن ، وأن يقولوا فيه أسَاطِير الأولين إنما هي ليقال عنهم إنهم من أصحاب الرأي والنظر، فمن هؤلاء كان الدكتور / محمد أحمد خَلَفَ الله، زعم أن القرآن يلجأ إلى الأساطيرُ ، وتلفيق الحكايات لغرس معان معينة في نفوس قارئيه ، ولقد كتب في ذلك رسالة جامعية لينال بها درجة (الدكتوراه) ولينال ما نال من شهرة ، ولم يعرف أنه لولا القرآن الكريم لما كانت هذه اللغة التي يدرسها. ويعيش على العمل في حقلها .

لم يشأ أن يجعل رسالته كإحدى الرسائل التي تملأ المكتبات في الجامعات ، ففضل أن يتمرد على اللغة التي يتعلمها أو يعلمها ، والقرآن الذي نزل بها ، فقد درس في أدب العرب وتعلم من لغتهم ما جَعَلَه يطلع برأي لم يستطع العرب ولا غيرهم أن يبرهنوا عليه. ولهذا أثارت فكرته ضجة كبيرة في الأوساط الثقافية والأدبية، وأعلنت جامعة القاهرة رفضها للرسالة ، ووقف الطالب الجامعي - وهو سعيد بما صنع - خلفَ هذه المهزلة يغذيها بالوقود كلما هدأت، والدنيا لا تكاد تسعه من الفرح !

---

[1] -إعجاز القرآن د/ عبد الكريم الخطيب جـ ١ صـ ٣٥٧.

ألاَ يعرف مثله أن الضجة التي ثارت حول كتاب (الأدب الجاهلي) لطه حسين هي التي جَعَلَته عميداً للأدب العربي ؟

ألاَ يعتقد مثله أن الضجة التي ثارت حول كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلى عبد الرازق هي التي جَعَلَته وزيراً للأوقاف.؟ .[1]

من أجل ذلك سال لعاب طالب (الدكتوراه) وراح يحلم أن يسجل التاريخ اسمه ضمن قائمة الخالدين ، من رواد التنوير ، وزعماء الاستنارة .

ومن أجل ذلك شن الشهيد سيد قطب (حملات على الطرفين ، على صاحب الرسالة ، والأستاذ أمين الخولي المشرف عَلَيْها ، وعلى الحاملين عَلَيْهما المهددين بإخراجهم عن دائرة الإسلام)[2]

وهو يريد بهجومه على المعارضين أنهم خدموا الرسالة من حيث يريدون هدمها. وخدموا الطالب بجعله ينال الشهرة التي لم يرغب في الحصول على غيرها.

ووسط هذه الضجة التي كادت أن تعصف بالرسالة وصاحبها ، التجأ صاحبها إلى الكاتب القصصي توفيق الحكيم الذي انتهى تحكمه وتحمسه لترويج الرسالة الجامعية الطاعنة في أمانة القرآن والتي رفضتها الجامعة نفسها .. إلى تهديد رئيس الوزارة المصرية (النقراشي باشا) بقوله : (فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد أطالبك معه بواحد من أمرين ، لا ثالث لهما ، إما أن تدرأ في الحال الخطر المحيق بهذه المناورة الفكرية والروحية ، وإما أن تستقيل)[3]

ولست أدرى كيف استباح توفيق الحكيم لنفسه أن يدعو السلطات السياسية لحسم النزاعات الأدبية بمفهومه والدينية في تقديرنا ، وعلى كل

---

[1] – موقف العقل الشيخ / مصطفي صبرِي جـ ١ صـ ٣٢٥

[2] – السابق جـ١ صـ ٣٢٤ ثم جَاءَ كتاب الشهيد سيد قطب (التصوير الفني في القرآن الكريم) خالياً من أي نقد مباشر للطالب والرسالة ، ولعل الظروف السياسية في حكومة النقراشى باشا لم تكن لتسمح له بأكثر من ذلك .

[3] – السابق جـ١ صـ ٣١٥ . تلاحظ من إهداء طه حسين كتابه لعبد الخالق ثروت باشا ، واستصراخ توفيق الحكيم النقراشى باشا أن قوى الاستنارة تلجأ دائماً إلى السلطة السياسة لحسم النزعات الفكرية ، وفي كل مرة يأتي الحسم لصالحها !

حال فقد هدأت العاصفة عندما نال الباحث الدكتوراه على رسالة بديلة ، ولكنه عاد بعد ذلك لينشر حقده على القرآن المرة تلو المرة ، وفي كل مرة يقدم الدكتور / أمين الخولى للرسالة المرفوضة بالمدح والثناء على صاحبها ، والقدح والهجوم على الجمود الفكري ، حيث لم يتقبل المسلمون الفكرة الطاعنة في نزاهة القرآن الكريم .

- تصوير شبهة طالب الدكتوراه (*)

وإذا كان أتباع هذا الاتجاه من قوى الاستنارة يفخرون في أكثر أوقاتهم بأنهم لم يجدوا من يرد عليهم ، فإنني الآن أقدم على تصوير شبهة الدكتور خلف الله عن القصص القرآني تمهيداً لتفنيدها ، بالأدلة المنطقية .

يقرر الدكتور / مُحَمَّد أحمد خَلَفَ الله في أطروحة الفن القصصى أن (القرآن إنساني العبارة ، بشرى الأسلوب، جَاءَ على سنن العرب في بلاغتها)[1]

(ومصادر الْقصَص القرآني في الغالب هي العقلية العربية ، فالقرآن لم يبعد عنها إلا في القليل النادر .

ومن هنا جَاءَت فكرة الأقدمين القائلة إن القرآن ليس إلا أسَاطِيرُ الأولين، وذلك لأنهم نظروا فوجدوا الشخصيات الْقصَصية والأحداث الْقصَصية مما يعرفون)[2]

أما عناصر القصة القرآنية كما يراها فهي : -

١ - الأشخاص .

٢ ـ الحوادث.

٣ - الحوار .

٤ - القضاء والقدر .

(*) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها وأساليبها من خلال سورة طه / رسالة دكتوراه للمؤلف

1 – الفن القصصي في القرآن الكريم مُحَمَّد أحمد خَلَفَ الله صـ ١٣٧، ١٣٨ طبعة ثالثة – الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

2 – السابق صـ ٢٣٥ .

٥ - المناجاة

وحول العنصر الأخير - يقول د/ خَلَفَ الله في رسالته المشار إلَيْها (ومن العناصر الفنية في القَصَص ، والتي وجدت قليلاً في القَصَص القرآني ، عنصر المناجاة وهو في القرآن يأتي على صورة غير تلك التي يأتي بها في أغلب القَصَص الأدبي إذ هو فيه يقوم على مناجاة الشخص لنفسه ليسمعه غيره ، ولكنه يأتي في القرآن كما يأتي في بعض القَصَص المسرحي العربي كقصة "قلوب سعيدة" مثلاً ، إذ ترى البطلة فيها تتوجه إلى صورة العذراء ضارعة داعية ، ونحس نحن كما تحس البطلة، بأن هذا الدعاء قد قبل ، وأن الله قد استجاب) [١]

وأما قصة مُوسَى- υ - فهي (عرض لموقف فِرْعَوْن من مُوسَى وقومه ومن السَّحَرَة انتهى بالنتيجة التي تنتهي بها القصة الشعبية في كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل والقضاء على الظالم الطاغية)[٢].

وأما قصة يُوسُفُ - υ - فيقول عنها (إنها أيضاً قصة إنسانية وهي من حيث البناء القصصي أجود قصة في القرآن)[٣] ولكنه بعد ذلك يعود فيرى فيها (نوعاً من السذاجة يلائم العقل العربي ، أو العقل البدوي ، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل إخبار أبيهم أن قد أكله الذئب والتجاوب بين الخوف ، والاعتذار سذاجة في البناء القصصي ، تلائم طبيعة البداوة فيما يعتقد)[٤]

وعلى ذلك فإن تلك الأقاصيص لا تشتمل على أخبار معجزة يستحيل معرفتها، يقول صاحب الفن القصصي : (أما أن هذه الأخبار من المعجزات فأمر أعاد العقل الإسلامي التفكير فيه ، وانتهى به هذا التفكير إلى أن هذه الأخبار لم تكن - فيما هو الواضح من آيات القرآن - حسب زعمه - مناط

---

1 - السابق صـــ ٣٠٦ ، ٣٠٧ .
2 - السابق صـــ ٣١٧ .
3 - السابق صـــ ٣١٤ .
4 - السابق صـــ ٣١٦ .

الرد على المشركين من أهل مكة، ولا موطن التحدي حتى يصح القول بأنها إحدى المعجزات)[١]

ثم يقول: (وفكر العقل الإسلامي في هذه الأخبار ، فرأى ثانياً أن تلك الأقاصيص التي يعتمد عَلَيْها القرآن في الإيحاء بنبوة النبي وصدق رسالته لا تشتمل على أخبار يستحيل معرفتها ، وهى على العكس من ذلك معروفة لدى أهل الكتاب)[٢]

بل إن (هناك الطريقة العرضية التي يعرض فيها القرآن أخلاق بعض الجماعات، أو أخلاق بيئة من البيئات ، وذلك يكثر في القَصَص الذي سنقول عنه في المستقبل إنه لا يقصد شيئاً معيناً ، وأكثر ما يكون هذا اللون في قصص مُوسَى - υ - إذ في ذلك القَصَص نجد تصويراً لأخلاق اليهود كما نجد بعض لفتات لأخلاق المصريين . ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع في جملته وتفصيله ، فقد يكون التعبير الأدبي عن حالات بعينها ، هو الذي أدى إلى مثل هذه المعاني الخلقية)[٣]

ومن هذا العرض نرى أن الدكتور خلف الله يؤمن بأن :

- القرآني إنساني العبارة
- إخبار القرآن بالغيب ليس بمعجز.

- أدلته على رأيه

ما سبق كان خلاصة رأى الدكتور خَلَفَ الله في القَصَص القرآني ، وهو يعتمد في رأيه هذا على عدة أمور:

أولاً : ما ينقله عن الرازي عند تفسيره لقوله تعالى [بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

[1] – السابق صـ ٣٩ .
[2] – السابق صـ ٤٠ .
[3] – السابق صـ ١١١ .

الظَّالِمِينَ] يونس آية (٣٩) أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصَص القرآني قالوا ليس في هذا الكتاب إلا أسَاطِير ، ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية ، بل أمور أخرى مغايرة لها ، فالرازي يفرق بين أمرين :

الأول : هيكل القصة أو جسم الحكاية .

الثاني : ما في القصة من توجيهات دينية .

والرازي يلحظ أن الأمر الأول هو الذي أدخل الشبهة على عقول المشركين حين ظنوا أنه المقصود من القصَص .[1] (وليس هناك ما يمنع أن يكون الجسم أو الهيكل من أسَاطِيرُ الأولين)[2]

ثانياً : الاختلاف والتناقض في القصة القرآنية .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه : [وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى]

وفي سورة النمل [إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]

وفي سورة الْقصَص [فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ]

وقد أجاب المفسرون بأن الخطاب بغير العربية ، وأنه أخبر تعالى في بعض السور ببعض ما جرى ، وفي أخرى بأكثر مما أخبر به في التي قبلها . ولكن هذا الجواب لم يرح سيادته ، و إنما الذي يريحه أن تكون هذه قصة وتلك قصة ، ولكل من هذه الْقصَص غرض[3]

وقريب من هذا ما يراه في شخصية فِرْعَوْن حيث يظهر بمظهر المعبود في قوله تعالى : [ما علمت لَكُمْ من إله غيري] وبمظهر العابد في قوله

---

[1] –السابق صـــ ١٧١ .

[2] –السابق صـــ ٢٣٥ .

[3] – السابق صـــ ١٩٦ .

تعالى : [وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ]

ومن ذلك أيضاً استعمال لفظ الحية تارة والثعبان تارة والجان تارة ، ويقول الزمخشري (الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير ، والثعبان العظيم من الحيات ، والجان الدقيق ، فكانت العصا تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورم ويزداد جرمها حتى تصير ثعباناً ، فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثاني)[١]

ويعلق د/ خَلَفَ الله على ذلك بقوله (وصاحب الكشاف ومن تابعه يعتقدون أنهم بهذا القول قد خرجوا من تناقض ، وأن القرآن قد سلم من انتقاد ، وإنه لتناقض دفع إِلَيْهِ الوهم وساعد عَلَيْهِ ما في قصة الخروج من الجنة من اختلاف بين التوراة والقرآن ، فقد ساعد على خروج آدم من الجنة إبليس في القرآن، والحية في التوراة ، ووفق الموفقون بين القولين ، وانتهوا إلى أن الجان نوع من الحيات ويضيف (أن القوم لو تدبروا قليلاً لما احتاجوا إلى مثل هذه الوقفة ، فالقرآن في استعماله لهذه الألفاظ إنما يقصد إلى ما تثيره الألفاظ من انفعالات ، وما توحي به من عواطف) [٢]

ثالثاً : الفهم الأدبي للقصص القرآني يقضى على مشكلة القول بالتكرار .

يقول د / خلف الله : وقفة ثانية وقفها العقل الإسلامي عند الأقاصيص التي كررت ، ذلك لأنه وقد اعتمد المذهب التاريخي[٣] في فهم القصص القرآني قد عجز عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار. لماذا كرر القرآن قصص آدم ونوح وهود ولوط وشعيب ، وغيرهم من الرسل والأنبياء ، إن الوقوف على تاريخ كل واحد من هؤلاء قد يكفى فيه إيراد القصة الواحدة في الموطن الواحد ، وليس يلزم أن تكرر القصة الواحدة في أكثر من موطن من مواطن القرآن .

---

1 – الكشاف جـ ٣ صـ ٤٥ .

2 – الفن القصصي صـ ٣، ٤ ، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠ .

3 – أي المذهب الذي يؤمن بأن للقصص القرآني واقع تاريخي.

إن تكرار القصة وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة والمواد التاريخية متشابهة ، والمواقف متفقة أمر يحتاج إلى تعليل وبيان وإيضاح.

سؤال آخر سأله العقل الإسلامي نفسه ، فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار ، فلماذا كان هذا الاختلاف .؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر.

لقد حاول العقل الإسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ، ولكنه لم يهتد إلى رأى قاطع .

ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي ، لما وقف هذه الوقفة ، ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذي عده تكراراً ليس من التكرار في شيء ، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص ، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ، ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية .[1]

رابعاً : الاستقراء

وهو هنا يتساءل إذا كان لكل قاص مذهبه وطريقته ، ولكل خالق حريته في الخلق والابتكار، فهل توجد تلك الحرية في القرآن ، أو أن القرآن التزم طريقة واحدة هي طريقة الصدق والتحري عن الحقيقة حين يصور أحداث تاريخ ؟

يجيب د : خلف الله (يدلنا الاستقراء على أن ظواهر كثيرة من ظاهرات الحرية الفنية توجد في القرآن الكريم) ثم يعرض منها ما يأتي :-

- إهمال القرآن حين يقص لمقومات التاريخ من زمان ومكان .
- اختياره لبعض الأحداث دون بعض .

[1] – الفن القصص صـــ ٣٣ ، ٣٤ من الطبعة الثالثة. ١٩٦٥

- كان لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي
- ***إسناده بعض الأحداث لأناس بأعينهم في موطن ، ثم إسناده نفس الأحداث لغير الأشخاص في موطن آخـــــر.***
- إنطاقه الشخص الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة .

وغير ذلك من المسائل التي جَعَلَتهم يعدون القَصَص القرآني من المتشابه .

خامساً : القرآن لم ينف أن به أسَاطِير.

الأغرب من كل ما سبق أن يستدل د/ خَلَفَ الله على مذهبه في نقض القرآن بالقرآن نفسه ، فالقرآن - حسب زعمه - لم ينف أن به أسَاطِير ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند مُحَمَّد - ع - وليس من عند الله. ويزعم أنه في مرة واحدة يعرض القرآن للرد على المشركين في قولهم بالأساطير، وهى قوله تعالى :

[وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا]

ويتساءل : فهل هذا الرد ينفى ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفى أن تكون هذه الأساطير من عند مُحَمَّد ، ويثبت أنها من عند الله)[١].

والمشركون- في زعمه - كانوا يعتقدون اعتقاداً صادقاً ، والشبهة عندهم كانت قوية جارفة ، ويضيف : (ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن[٢] ودقته في تصوير احساساتهم لابد لنا من التسليم بأن هذه العَقِيدَةِ كانت قوية عندهم ، وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن .. فهم لم يقولوا هذا القول كذباً وادعاءاً ، وإنما قالوه عن شبهة قوية ، وعَقِيدَةِ ثابتة)[٣]

---

[1] – السابق صـــ ١٧٨ .

[2] – وهو هنا يعتقد بصدق القرآن لأنه صور الاحساسات التي تجيش في صدره ، والعجب أن يعترف إنســـان بصدق القرآن في تصوير الاحساسات الداخلية ، ولا يعترف بصدقه في حكاية الأحداث التاريخية.

[3] – السابق صـــ١٧٦ ، ١٧٧،

وليس المشركون فقط هم الذين دخلت عَلَيْهم هذه الشبهة ، بل إنها أيضاً قد دخلت على بعض المفسرين من نفس الباب ، ومن هنا لم يستطيعوا تصديق وقوع هذه الأحداث ، وفسروا هذا اللون من الْقصَص على أنه قصص يراد به التمثيل.

وإذا قال المستشرقون إن بعض الْقصَص القرآني ، كقصة أصحاب الكهف أو قصة مُوسَى في سورة الكهف قد بنيت على الأساطير ، قلنا ليس في ذلك على القرآن من بأس ، فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية ، والأديان الكبرى ، ويكفينا فخراً أن كتابنا قد سن السنن ، وقعد القواعد ، وسبق غيره في هذا الميدان)[١].

سادساً : معارضة القرآن لأحداث التاريخ

قال الإمام الرازي (المسألة الرابعة : أطبق الباحثون عن تاريخ بني إسرائيل وفِرْعَوْن أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان مُوسَى وفِرْعَوْن ، وإنما جَاءَ بعدهما بزمن مديد ودهر داهر)[٢]

وهذا ما يؤكده المستشرقون الغربيون بزعمهم أن هامان كان أميراً من أمراء الملك الإيراني (حشارشيا) الذي حكم من ٤٨٦ ـ ٤٦٥ قبل الميلاد ، بعد مُوسَى بقرون عديدة ، ولكن القرآن جَاءَ به إلى مصر وجَعَلَه وزيراً لفِرْعَوْن.

وقد اعتبر د/ خَلَفَ الله هذه المطاعن وأمثالها مطاعن حقيقية [٣] ورغم أنه نقل صدورها عن اليهود والملاحدة إلا أنه راح يقول :(وهذه الأقوال وكثير غيرها ، إنما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم الْقصَص القرآني على أساس من التاريخ ، ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس ، وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي لأغلقوا الباب الذي جَاءَت منه الريح)

---

[1] – السابق صـ ١٨١ ، ١٨٢ .

[2] – تفسير الرازي (سورة غافر) جـ٥ صـ ٣٥.

[3] – الفن القصصي صـ٢٨

ويستشهد برأي الشيخ مُحَمَّد عبده فينقل عنه في صـ١٧٣ ما جَاءَ في المنار ، منسوباً إلى الإمام فيقول : (وجَاءَ في المنار ما يلي : قال الأستاذ الإمام : بينا غير مرة أن الْقصَص جَاءَت في القرآن لأجل المَوْعِظة والاعتبار ، لا لبيان التاريخ ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار لأجل المَوْعِظة والاعتبار)

ثم يعلق على ذلك بقوله (إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون في التعبير القرآني- قصصاً وغير قصص- أثراً للأسَاطِير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكى من عقائدهم الحق والباطل).

وبعد .. فقد كان هذا عرض لشبهة الدكتور / مُحَمَّد أحمد خَلَفَ الله حول الْقصَص القرآني ، عرضناها بأمانة وموضوعية ، ويأتي الآن دور الرد عليها .

- الرد على أدلته :

لا شك أن البحث العلمي ليس هو جمع شبهات الملحدين، وإعادة ترتيبها وطبعها بالطابع العلمي في صورة أطروحة لنيل درجة علمية .

إن البحث العلمي إذا كان يتعلق بالقرآن الكريم فيجب ألاَّ يتجاوز علاقة المخلوق بخالقه ، فلا يتجاوز تدبر آياته والتفكر في أسراره وآدابه .

ورغم أن (خلف الله) قد تجاوز كل هذه الحدود والمعايير، إلا أنى سوف أرد عَلَيْهِ لا بنفس المعايير التي استخدمها ولكن بالأسلوب الذي جاء به القرآن وهو (المجادلة بالتي هي أحسن) والآن أتناول أدلته بالتفنيد الواحد تلو الآخر

أولاً : ما يحكيه عن الرازي :-

أما فيما يتعلق بالرازي فإن قوله : (المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها) لا يدل من قرب أو بعد على أن الرازي يعنى وجود الأساطير في القرآن الكريم ، فلم تكن هذه القضية مطروحة أبداً بين علماء المسلمين ومفكريهم الذين يؤمنون بأن القرآن كله حق وصدق ولم

يكن بينهم سبيل للشك في أن كل ما جَاءَ في القرآن الكريم هو الحق الذي لا ريب فيه ، ومن ثم كان الذي يعنيه الرازي بعبارته المذكورة هو أن القرآن الكريم إذا كان قد ذكر قصص الأولين فإنما ذكر منه ما يصلح للعبرة ولم يقصد إلى مجرد الحكاية أو السرد أو التسلية ، كما كان يفعل بعض الكفار عندما يرى الرسول - ε - يتلو القرآن على أصحابه ، فكان يأتي بقصص (رستم واسفنديار) ويجلس بها في المجالس حتى يلهى الناس عن سماع القرآن [١]

وعبارة الرازي التي أساء فهمها ، وعبارة أخرى نقلها عن الإمام مُحَمَّد عبده جَعَلَت د/ خَلَفَ الله يطير فرحاً ويدعى أن علماء الدين - خَلَفاً وسلفاً- يعدون الْقصَص القرآني من المتشابه - فيقول : (وقد لاحظت أن أئمة الدين والتفسير يعدون الْقصَص القرآني من المتشابه) ويقول : (والقدماء من المفسرين عدوه من المتشابه)[٢]

ولكنه يعود فيناقض نفسه عندما يقسم القصة إلى ثلاثة أنواع :

١ -القصة التاريخية .

٢ -القصة التمثيلية .

٣ -القصة الأسطورية .

ثم يقول في صـ ١٧١ (أما هنا فلم يقل واحد من المفسرين بوجود القصة الأسطورية في القرآن).

وعلى ذلك فالنتيجة التي خرج بها الباحث من كلام الرازي ليست إلا رأيه الذي يحاول أن يفرضه فرضاً على الإمام الرازي والإمام مُحَمَّد عبده فيما بعد.

ثم إنها فهم خاطئ لأحد الوجوه التي ذكرها الرازي في تفسير الآية، وهذه هي عبارة الإمام الرازي كاملة ، قال الإمام الرازي عند تفسير قوله

---

[1] – الإنسان في القرآن الكريم د/ صلاح عبد العليم صـ ٣٠٠ .

[2] – الفن القصصي صـ ٦، ٧ ، ٢٤ .

تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) : (واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوهاً :-

الوجه الأول : أنهم كلما سمعوا شيئاً من الْقصَص القرآني ، قالوا ليس في هذا إلا أساطير الأولين، ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية، بل أمور أخرى مغايرة لها:

فأولها : بيان قدرة الله على التصرف في هذا العالم.

وثانيها: أنه يدل على العبرة من حيث أن الإنسان يعرف بها أن الدنيا لا تبقى.

وثالثها: أنه ε لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتلمذ، دل ذلك على أنه يوحي إِلَيْهِ..

تلك هي الأمور المغايرة التي قصدها الإمام الرازي ولم يذكرها د/ خلف الله وأعتقد أنك لست في حاجة لأشرح لماذا لم يذكرها.

الوجه الثاني : أنهم كلما استعَمَلوا حروف التهجي في أوائل السور، ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم بالقرآن، وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله : [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]

الوجه الثالث: أنهم رأوا القرآن يظهر شيئاً فشيئاً فصار ذلك سبباً للطعن الرديء، فقالوا : [لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً] فأجاب الله تعالى عنه بقوله [كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا]

الوجه الرابع: أن القرآن مملوءٌ من إثبات الحشر والنشر، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، ولم يتقرر ذلك في قلوبهم، فظنوا أن مُحَمَّداً عَلَيْهِ السَّلامُ إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب.

الوجه الخامس: أن القرآن مملوءٌ من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات، والقوم كانوا يقولون إله العالمين غنيٌ عنا وعن طاعتنا ، فأجاب

بقولـه [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ] المؤمنـون (١١٥) [1]

تلك هي الوجوه التي ذكرها الرازي في تفسير الآية، فهل فيها ما يؤيد غرضه، أو ما يفهم منه أن الرازي يقر بوجود الأساطير في القرآن الكريم ؟ أم أن الذين في قلوبهم زيغٌ لا يتبعون ما تشابه منه فحسب، بل يتبعون أيضاً ما تشابه من تفسيره.؟

وإذ لم يكن الرازى ولا غيره من المفسرين مصدراً لفكرة الدكتور خلف الله فما هو مصدرها الحقيقي .؟

نرى هذه الفكرة لدى العديد من المستشرقين ، نراها لدى المستشرق ماكدونالد الذي أساء وتخبط في دائرة المعارف الإسلامية ، حيث زعم أن القرآن من عند محمد وأن لوازم السجع هي التي حملته على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيراً في القرآن.[2]

ومع أن ماكدونالد لا يعرف السجع ولا لوازمه ، ولا يفرق في الأساليب العربية بين مسجوعها وغير مسجوعها ، إلا أن د / خلف الله الذي يعرف العربية وسجعها قد عبر عن كلام ماكدونالد أدق تعبير بقوله : ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع في جملته وتفصيله ، فقد يكون التعبير الأدبي عن حالات بعينها ، هو الذي أدى إلى مثل هذه المعاني الخلقية

وكذلك نراها أيضاً لدى الفيلسوف اليهودي اسبينوزا ، الذي نادى بها ليحل عقد الكتاب المقدس ، فقد كتب رسالة في الدين والدولة ، أشار فيها إلى أن لغة الإنجيل قد جاءت وكلها مجازات واستعارات ، وهذا التزويق البياني متعمد فيه:

أولاً : بسبب النزعة الشرقية إلى الأدب الرفيع ، وميله إلى تزويق اللفظ.

---

[1] - الرازي جـ١٧ صـ١٠٢ ، ١٠٣ ط/ دار الفكر ١٤٠١هـ-١٩٨١م

[2] - الغزو الفكري د / على عبد الحليم صـ ٣٦

وثانياً : لأن الأنبياء والقديسين لا بد لكي يحملوا الناس على اعتناق مذاهبهم أن يثيروا الخيال ، ولذا تراهم يبذلون وسعهم لطبع أنفسهم وكتبهم بطابع الشعب الذي يعيشون فيه (فقد كتب كل كتاب منزل لشعب بعينه أولاً ، وللجنس البشرى كله ثانياً ، فيجب إذن أن يلائم ما فيه عقلية الشعب ما وجد السبيل إلى ذلك)

إن الكتب المنزلة لا تفسر الأشياء بأسبابها ، ولكنها ترويها بأسلوب يؤثر في نفوس الناس ، وخاصة جمهورهم ، لكي تحملهم على التفاني في العقيدة (فليس موضوع الكتاب المنزل إقناع العقل ، بل إثارة الخيال والسيطرة عليه) ولهذا يكثر فيه ذكر المعجزات (يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان في وضوح إلا بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة .. إنهم يحسبون أن الله يكون معطلاً ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود ، وعكس ذلك يكون صحيحاً أيضاً ، أي أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية هي التي تتعطل مادام الله فعالاً ، وهكذا هم يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى ، قوة الله وقوة الطبيعة.. فترى اليهود يعللون إطالة النهار وتأخير غروب الشمس بأنها معجزة تثبت أنهم شعب الله المختار ، ولو قال موسى لقومه إن البحر قد انحسرت مياهه بسبب الرياح الشرقية لما كان لقوله أثر في نفوسهم ، ولعل منزلة الأنبياء والقديسين التي يمتازون بها عن الفلاسفة والعلماء ترجع إلى حد كبير إلى أسلوبهم البياني الساحر الذي ينطقون به مدفوعين بما تكنه صدورهم من حماسة لمذهبهم.

يقول سبينوزا : إنه لو فسر الناس الإنجيل على هذا الأساس لما وجدوا فيه شيئاً يناقض العقل ، أما إذا تمسكوا بحرفيته فهم لا شك مصادفون كثيراً من الأخطاء والمتناقضات)[١]

هذا ما يقوله اسبينوزا ، فماذا يقول د/ خلف الله؟

(ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي ، لما وقف هذه الوقفة ، ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذي عده

---

[١] – قصة الفلسفة الحديثة أحمد أمين وزكى نجيب محمود صــ ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٤٢.

تكراراً ليس من التكرار في شيء ، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص ، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ، ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية.

وليس اسبينوزا هو القائل الوحيد بهذا الرأي في الغرب ، وليس خلف الله هو المقلد الوحيد لمذهب أهل الغرب ، بل قوى الاستنارة على اختلاف اتجاهاتها تحمل هذه المطاعن التي وجهت إلى الكتاب المقدس بحق في الغرب ، لتوجهها ظلماً وعدواناً إلى القرآن الكريم.

وفي الوقت الذي لا يرضى فيه أهل الإنجيل أن تفسر أناجيلهم طبقاً لمثل هذه المذاهب الأدبية ، يرحبون بإجرائها على تفسير القرآن الكريم ، وإذ يعارض القرآن الكريم صلب المسيح ، يقول أهل الصليب إن علماء المسلمين يقولون : إن كتابهم يحمل الأساطير ، وبعضهم يستعرض مذهب الدكتور خلف الله ليخرج بنتيجة تقول : إن القرآن الكريم يقضي بصلب المسيح ، وطبقاً لهذا المذهب يصبح معنى قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) قتلوه وصلبوه ، فانظر كيف تعمل قوى الاستنارة في دعم مذهب أهل التثليث ؟

وانظر كيف يستعرض د : فريز صموئيل رأي الدكتور خلف الله في القرآن الكريم ليخرج بالنتيجة التي يوجزها فيما يأتي :

١ – القصة القرآنية قصة لا تتوفر فيها مقومات التاريخ ، ولم يكن هدفها التاريخ بل العظة ولاعتبار.

٢ – هناك أقوال جاءت على لسان بعض الأشخاص لم ينطقوا بها بل القرآن أنطقها على لسانهم .

٣ – القصة القرآنية هي ما يعرفه المعاصرون للنبي من تاريخ ، ولا يلزم أن يكون هذا هو الحق والواقع.

٤ – القرآن لا يطلب منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية ، ومن حقنا أو من حق القرآن علينا أن نبحث ونفتش لمعرفة الحدث التاريخي كما وقع ، ومخالفتنا للقصة القرآنية لا يمس القرآن).

ثم يقول : (إذا طبقنا هذه المبادئ على حادثة صلب المسيح نرى :

- إن اليهود لم يقولوا إن المسيح هو رسول الله .

- إن القول (ما قتلوه وما صلبوه) هو ما يعرفه المعاصرون .

- إن القرآن لا يطلب منا الإيمان بعدم قتل وصلب المسيح.

- إذا رأينا من الكتب المقدسة أو من التاريخ ما يؤكد حقيقة صلب وموت المسيح، فالواجب علينا أو من حق القرآن علينا أن نؤمن بذلك ، ولهذا فالمسيح قد صلب ومات على الصليب)[١].

وهكذا خرج الدكتور بالنتيجة التي يريدها ويريد لها أن تصبح مذهباً في تفسير القرآن وليس الأناجيل التي يعتبرها حقاً في ألفاظها ومعانيها .

ثانياً : التناقض والاختلاف

يزعم أن في القرآن الكريم تناقض وأن مذهبه هذا هو الذي سيقضى على هذا التناقض وهو يضرب مثلاً لذلك بما جَاءَ في قصة مُوسَى - υ -

فأسْلُوب القصة في سورة طــه يختلف عنه في سورة النمل والقَصَص ، وقد أجاب المفسرون بأن الخطاب بغير العربية وأنه تعالى أخبر في بعض السور ببعض ما جرى وفى آخر بأكثر مما أخبر به في التي قبلها

وهذا الجواب لا يريح سيادته ولا يرضى ضميره لابد من جعل هذه قصة وتلك قصة غيرها، وأن هذه القصة وتلك غير ملتزمتان بحكاية الواقع .

نقول : إن مما لا ريب فيه أن ما حكاه القرآن في قصة مُوسَى إنما حكاه عن قوم لم يكونوا يتكلمون العربية ، (وجميع ما ورد في القرآن الكريم حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية إنما هو معرب عن معانيهم، وليس بحقيقة ألفاظهم ، ولهذا لا شك في أن قوله تعالى : [قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى] أن هذه الفصاحة لم تجر على لغة العجم)[٢]

---

[1] – قبر المسيح في كشمير د / فريز صموئيل صــ ١٥٤ ، ١٥٥ مطبعة أوتوبرنت

[2] – الإتقان جــ ٤ صــ ٢٥ .

كما أن كلام فِرْعَوْن قبيح وفيه كفر صريح ، ولكنه إذا حكاه القرآن أصبح معجزاً بوصفه أدق ترجمة وأفضل أُسْلُوب وتصبح القوالب اللغوية التي صب فيها مما يعجز البشر عن الإتيان بمثلها . ومن أجل ذلك تصبح ترجمة معاني القرآن لا تحمل صفة الإعجاز اللغوي ، التي يحملها نص القرآن الكريم ، فما الذي لا يريح سيادته لمثل هذه الإجابة إلا أنه لا يريد للحق أن يظهر ، ويريد أن يفرض رأيه ومذهبه .

وليتصور سيادته أن وليم شكسبير الأديب الإنجليزي ونجيب محفوظ الأديب العربي وغيرهما من أدباء لغات العالم ، كانوا معاصرين لأحداث مصر في عهد فِرْعَوْن ومُوسَى، وليتصور أن الجميع أخذوا يسجلون أحداث مُوسَى وفِرْعَوْن، فهل يتصور أن واحداً منهم أو جميعهم يستطيعون أن يأتوا بمثل القَصَص القرآني ، ولنضرب مثلاً آخر عندما تقع أحداث سياسية أو عسكرية ، ويتوافد مراسلو الأخبار لتغطية هذه الأحداث ماذا نلاحظ.؟ إننا نلاحظ أن كل مراسل يغطى هذه الأحداث بطريقته الخاصة ، ويشير إلى نقاط خاصة ، يراها مهمة ، وقد يتفقون جميعاً في نقل مشهد من المشاهد ، وقد ينفرد كل منهم بنقل جوانب خاصة ، وقد يصف بعضهم الأمر الواحد بصفات متعددة، ولا يستطيع عاقل أن يقول هذه أحداث وتلك أحداث ، وإنك كمستمع للأخبار عندما تكتفي بما ينقله مراسل واحد تكون قد حصلت على جانب من الأحداث.

كذلك القرآن الكريم - ولله المثل الأعلى - ينقل الأحداث بدقة من عدة زوايا وبجميعها تكتمل القصة ، فيظن أمثال الدكتور خَلَفَ الله أن هذه المواقف يعارض بعضها بعضاً لأنه لا يرى إلا قالباً واحداً تصب فيه ألفاظ الرواية للأحداث ، ويضرب مثلاً بقصة مُوسَى ، فيرى أن هناك اختلافاً بينها في السور التي ذكرتها، فسورة طـه والنمل والقَصَص تتحدث عن بدء الرسالة ومخاطبة الله لمُوسَى بصور مختلفة .

نعم .. ولكن هذا الاختلاف في التعبير عند الكلام على مشهد واحد مع ارتباط هذه التعبيرات بالواقع يشهد بعظمة القرآن الكريم.

قال الرافعي : (ومن أعجب ما رأيناه في إعجاز القرآن وإحكام نظمه ، أنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه . ثم تتعرف ذلك وتتغلغل فيه فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه ، ثم تحسب العكس وتتعرفه متثبتاً فتصير منه إلى

عكس ما حسبت ، وما إن تزال متردداً على منازعة الجهتين كلتيهما حتى تردَّه إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة ، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة ، لأن ذلك التوالي بين الألفاظ ومعانيها ، وبين المعاني وألفاظها ، مما لا يعرف مثله إلا في الصفات الروحية العالية ، إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله فركبتهما تركيباً مزجياً بحيث لا يجرى حكم في هذا التجاذب على إحداهما حتى يشملها جميعاً)[١]

أما الذي حدث للدكتور خلف الله فهو أنه لم يبحث عن مطابقة الألفاظ للمعاني أو المعاني للألفاظ ، وإنما بحث كيف يبرهن على أن النص القرآني أدبي كبقية نصوص البشر ، ولهذا أضله الله على علم ، وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه بعد أن أعماه الله !!

وتلاحظ من خلال عرض الْقُرْآن الْكَرِيم لمشاهد قصة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن المشاهد العامة قد تجتمع في السورة الواحدة وأما المشاهد الخاصة فلا يجتمع منها في سُورَة واحدة مشهدان ، خذ مثلاً اللقاء الذي طلب فيه السحرة الأجر من فِرْعَوْن تجده في سورتي الأعراف والشعراء بينما سُورَة طه لم تتعرض له لأنها اختصت بمشهد آخر لا يتفق مع هذا اللقاء وهو مشهد لقاء مُوسَى والسحرة ووعظه إياهم ، فلم يجتمع المشهدان لقاء مُوسَى والسحرة ولقاء فِرْعَوْن والسحرة في سُورَة واحدة فهذان اللقاءان قد تم كلٌ منهما على جهة الاستقلال فلم يسمع مُوسَى عن لقاء السحرة بفرعون ولم يسمع فِرْعَوْن عن لقاء مُوسَى بالسحرة ، ومن أجل ذلك غاب المشهد الذي التقى فيه فِرْعَوْن بالسحرة من السورة التي ذكرت التقاء مُوسَى بالسحرة ، وإسرار السحرة النجوى هو مثل لقاء مُوسَى بالسحرة .

وبالنسبة لقول موسى لأهله امكثوا.. (أظنك معي أن مُوسَى وحالته النفسية كانت تستدعي هذه العبارات المختلفة ، حتى ينقل إلينا القرآن ذلك المشهد بكل لقطاته ومعانيه وأحاسيسه .

---

[1]- إعجاز القرآن صـــ ٤٧ .

وعلى ذلك فالتكرار لأنه منطوق مُوسَى تارة وحديث نفسه تارة أخرى ، ثم هو تارة يتفاءل وتارة يتشاءم تبعا لما يدور بخلده)[(١)]

كذلك أرى أنه لا تناقض في النداءات الإلهية لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ ، في سورة طه والنمل والقَصَص، لأن النداء الأول كان لتهيئة مُوسَى عليه السَّلامُ ولذا أمره بخلع النعل لأنه بالوادي المقدس طوى، والنداء الثاني كان لمباركة الوادي، وأما النداء الثالث في سورة القَصَص ، فقد كان بعد أن أصبح الوادي مباركاً، وأصبحت البقعة التي يقف عَلَيْها مُوسَى وهو حافي القدمين بقعة مباركة ومهيأة لتلقى كلام الحضرة القدسية [فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ]

ويعترض بأن القرآن ذكر مرة أن عصا موسى تحولت حية وثعبان وجان ، ولم يعجبه جواب الزمخشري الذي أجاز أن تكون صورة العصا في الموضع الواحد قد جمعت بين هذه الأمور الثلاثة، وإكمالاً لصورتها عدد القرآن الكريم المواقف، فالبعض شاهدها ثعبان والبعض شاهدها حية تسعى والبعض توهمها جان لسرعة حركتها وهذا على التشبيه وليس على الحقيقة. ولست أدرى ما المانع في ذلك طالما أن العصا قد تحولت إلى ثعبان فهل يستحيل أن تتحول إلى صور أخرى بعد ذلك .. فتحولت إلى شكل غير واضح سريع الحركة يشبه الجان في خفته .. ثم ظهر أن هذا الشيء إنما هو ثعبان ولذا قال (ثعبان مبين) ثم تورم هذا الثعبان حتى صار حية تسعى.

ألا يجوز أيضاً أن تكون العصا قد تحولت إلى حية في لقاء موسى مع فرعون في المرة الأولى وإلى ثعبان في لقاءات أخرى.

---

[1] - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم صـــ ٢٩٨ .

وقريب من هذا التناقض ما يزعمه من التناقض في شخصية فِرْعَوْن بأنه ظهر مرة بمظهر المعبود في قوله تعالى [مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي] ومرة بمظهر العابد في قوله: [وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ]

ويمكننا أن نرد عَلَيْه بأن القرآن حكى على لسان فِرْعَوْن ادعاء الألوهية وحكى عن ملئه قولهم : [أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ]

ومن هنا اختلف القائلان فاختلف المقول ، وكل قائل يعبر عن وجهة نظره . فِرْعَوْن يقول في معرض محاجته لمُوسَى مخاطباً ملأه كأنه يقول أنا الكل في الكل

وأما الملأ فكانوا يقولون قولهم في معرض المشورة بعيداً عن المواجهة وكأنهم يقولون له استعن بجميع الآلهة الرئيسية والإقليمية حتى تقضى على هذا الساحر.

على أن هذا التناقض الذي يدعيه كان يجب أن يوجهه إلى فِرْعَوْن وملئه لا إلى القرآن الكريم الذي التزم الصدق في حكايته عنهم وأظهر تناقضهم واختلافهم.

ومن ناحيةٍ أخرى فإن الثابت في تاريخ مصر أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون آلهة متعددة ، وعلى هذا لم يكن فِرْعَوْن يدعى أنه مركز العبودية الوحيد ، بل كان يدعى الربوبية والألوهية السياسية ، لأهل مصر عَمَلاً ، ولجميع النوع البشرى أصلاً من حيث النظرية، فلم يكن يرضى بأي وجود آخر يحكم فوق حكمه ، يأتيه رسوله وممثله يأمره بأمر ما ، ويطلب منه طاعته وتنفيذ حكمه .

وقد فهم بعض الناس عن تأليه فرعون أنه كان ينكر وجود الله ، إلا أن القرآن يثبت أنه كان يؤمن بحاكمية وجود آخر على العالم الأعلى ، وتأمل هذه الآية حكاية عن فِرْعَوْن [فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ]

تجد أن فِرْعَوْن لم يكن ينكر وجود الملائكة ، لكن الشيء الذي لم يكن ليرضى به هو أن يكون لهذا العالم العلوي دخل في ألوهيته السياسية على الناس.

وتقديم الجار و المجرور في قوله تعالى [مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي] يفيد أن فِرْعَوْن هو إله الملأ وليس لهم غيره إله، لكن الملأ رغم ذلك ظلوا ينظرون إليه كواحد من الفراعنة الذين تحل فيهم الألوهية والذين يعبدون - أو يجب عَليهم أن يعبدوا آلـهة مصر المتفرقة ، فقالوا له : [أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ] إن من أراد أن يضحك فليقرأ كلام أمثال هؤلاء ، فأين التناقض في الآيات القرآنية. هل قال القرآن : إن شعب مصر وحد فِرْعَوْن بالألوهية في الآية وذكر له شركاء في آية أخرى ؟ وإن تعجب فاعجب من جهالة المستنيرين بالتاريخ ، إن آلهة مصر القديمة لا تعد ولا تحصى ، تاسوعات وثالوثات لا حصر لها ، وهذا ما أكده القرآن الكريم ، عندما حكى عن يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ- قوله [يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ]

وعندما قال فِرْعَوْن [يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي] كان يقصد -كما هو الظاهر -الملأ من قومه ، أي يقصد حاشيته وحكومته ، التي تأتمر بأمره، وتنتهي بنهيه .

كان هذا كلام فِرْعَوْن الموجه إلى الملأ ، وأما خطابه إلى الشعب ، فلم يذكر فيه كلمة (غيري) (فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى)

كأنه يرى أن هناك أرباباً إقليمية غيره ، أقل شأناً منه، لأنه نائب عن رع أو آمون ، ولذا فهو في موقفه الأول أمام الملأ يدعى الألوهية، وهنا يدعى الربوبية ، فكأنه يطالب الملأ بعبادته، ومن ثم يظهر للشعب أنه هو الحريص عليهم ، يحيطهم بالرعاية والعناية على عادة الحكام .

إن لشعب مصر آلهته الإقليمية ، ولكل جماعة آلهة ، ولكل أسرة حكمت مصر آلهة تختلف عن غيرها ، فهل يفهم المتطاولون على كتاب الله مثل هذه الفروق أم هم يهرفون بما لا يعرفون ؟

إن ثمة فرق بين موقف حاكم مصر هذا وبين موقف ملكة سبأ، أما ملكة سبأ فقد [قالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قاطِعَةَ أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي]

وأما حاكم مصر فقد قدم وجهة نظره وطلب من مستشاريه أن لا تخرج آراءهم عن رأيه.

إن هذا المنهج هو نفسه الذي سار عَلَيْهِ د/ خَلَفَ الله في دراسته حيث قدم رأيه وراح يبحث عن شواهد يتوهم أنها تدعم موقفه. وإذا لم تتوفر هذه الشواهد فبإمكانه أن يحرف شواهد الحق لتذهب إلى حيث يريد.

- ثالثاً : دعواه بأن الفهم الأدبي يقضى على مشكلة القول بالتكرار

وتلك مشكلة أخرى يزعم أن العقل الإسلامي احتار فيها وأنه لو أقام فهمه للقرآن الكريم على أساس الفن الأدبي - أي على الأساس الذي فهمه هو لما احتار في تكرار القصص القرآني ولما عد هذا القصَص من المتشابه، لأن اختلاف المقصد يؤدى إلى اختلاف الصور الأدبية ، واختلاف الصور الأدبية يؤدى اختلاف المقصد.

ويكفى هنا أنه يعترف بأنه يناقض العقل الإسلامي ، ويخالف إجماع المسلمين بمذهبه الذي يجوز الكذب في كلام الله تعالى.

(إن القرآن الكريم تنزه عن الكذب ، في جميع ما فيه والتزم الصدق كل الصدق، وجَاءَ فصيحاً مع أنه عرف أن الكذب مما تحسن الكتابة فيه ، ولذا يقال إن أحسن الشعر أكذبه .

والملاحظ أن الشاعر أو الكاتب إذا كرر مضموناً أو قصة لا يكون كلامه المكرر في براعة الأول ، والقرآن قد كرر قصص الأنبياء وأحوال المبدأ والمعاد ، واختلفت العبارات إيجازاً وإطناباً ، ولم يظهر التفاوت في بلاغتها إطلاقاً، كما عرف أن كل شاعر يحسن كلامه في فن ويضعف في

غيره ، أمـا القرآن فجَاءَ فصيحـاً على غاية الفصاحة في كل فـن .. ترغيبا وترهيبا .. زجرا كان أم عطاءً .. رحمة أو عذاباً) [١]

(كذلك يستحيل على كاتب بشرى ، مهما تكن درجة كفاءته ونبوغه ككاتب أن يحكى لك نفس القصة ثلاث مرات ، أو خمس مرات ، أو عشر مرات ثم يحتفظ بنفس مستواه في المرات العشر .. لابد أن يهبط مستواه في تسعة أعشار ما يحكيه .. لابد أن يكرر نفس ما قاله بنفس التأثير الأول .. لا يمكن أن يأتي بجديد .. هذه مسألة بديهية غير أنك تنظر في قصص القرآن ، فيروعك أن ترى القصة مقدمة عشر مرات ، يحكيها القرآن عشر مرات أو خمس عشر مرة .. نفس القصة بنفس المستوى بتأثير مختلف .

يظل مستوى القصة في الذروة رغم تكرارها ، ويتغير تأثيرها وإيحاؤها بكلمة تضاف ، أو جزء يحذف ، أو عبارة جديدة ، أو جملة لم تكن موجودة .. أو مجرد ظل لخاطر نفس لم يقدم من قبل ذلك [٢]

وللقصص القرآني أغراض دينية متعددة منها :

١. إثبات الوحي والرسالة .

٢. إثبات وحدة الأديان السماوية ، وأنها جميعها من عند الله

٣. بيان قدرة الله على خرق العادات[٣]

٤. بيان أن طريقة الأنبياء في الدعوة واحدة وأن استقبال أقوامهم لها متشابه .

٥. بيان التحريف في الكتب السابقة .

وللتكرار أسبابه منها :

- تسلية قلب النبي - ε - بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم

---

[1] – القرآن والعلم الحديث / عبد الرازق نوفل صـ١٣ ، ١٤.

[2] – أنبيـاء الله / أحمد بهجت صـ ٢٧ .

[3] – التصوير الفني في القرآن الكريم صـ١٤٤ ، ١٤٥ .

- إن إبراز المعنى الواحد في فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة ، لا يخفى ما فيه من فصاحة .

- إن الله تعالى أنزل القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية منه، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر القصة في مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان[١] بما يمكنه أن يأتي به في كل وقت.

وأما عن أهمية هذا التكرار بالنسبة للدعوة ، فنلاحظ أن هذا التكرار في ذاته يخدم غرضاً أصيلاً من أغراض الدعوة ، وهو تثبيت القلوب على الحق ، وإقامتها على الشريعة التي تحملها تلك الدعوة ، فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة ، ويمكن لها في كيان الإنسان ، ويقيم منها خاطراً ملحاً يتردد في صدره ، ويهمس في ضميره .. وقد يعلوا همسه حتى يكون صراخاً أو هتافاً ، أو دوياً .

أنظر إلى أساليب الدعاية اليوم .. إنها تقوم على هذا الأسلوب الذي عرف القرآن قدره وأثره في التمكين لفكرة أو التوجيه لرأى أو مذهب .

فإذا أرادت دولة أن تدعو لسياسة معينة ، أو تنصر رأياً خاصاً لجأت إلى هذا الأسلوب ففتحت أفواهها كلها وأبواقها جميعها .. صباح مساء .. تبدى القول وتعيده ، عشرات ومئات المرات.

ومع أن البضاعة التي تدعو إلَيها قد تكون بضاعة كاسدة ، إلا أن هذا الأسلوب يحقق دائما بعض النتائج التي يهدف إليها ، وإن كانت نتائج مؤقتة لا يكتب لها البقاء طويلا .

فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير ، والدعاة الذين يدعون لها لا يرون إلا وجه الحق والخير.؟

إن أسْلُوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ، ويأتي بأعظم الآثار.[٢]

---

[1] – إعجاز القرآن الكريم د/ عبد الكريم الخطيب جـ ١ صـ ٢٩٦

[2] – السابق جـ ١ صـ ٣٩٢ ، ٣٩٣ ،

والدارس للقرآن الكريم يجد أنه ينفرد بهذه الطريقة البديعة في المعاني ، فأنت تقرأ فيه قصص الأنبياء وسيرهم مع أممهم ، والقصة الواحدة تتكرر مرات كثيرة بعبارات وأساليب ، لولا ما فيها من الأسماء والأشخاص والأماكن لظن السامع أنها في كل موضع قصة مستقلة بذاتها ، لاستقلال أسْلُوبها وألفاظها ، وورودها بين البسط تارة والإطناب تارة ، والإجمال تارة أخرى مع المحافظة على سر القصة وحكمتها ، والمحافظة على جمال الأسلوب القصصي الذي يقرر حقائق الأحداث الواقعة في حياة الناس ، بعيداً عن الخيال ، مع مراعاة المناسبة التامة بين مقام الكلام ونهجه واطراد ذلك إلى النهاية مما انفرد به القرآن الكريم)[١]

فالقصة القرآنية الواحدة التي ذكرت في عدة سور بعدة أساليب لا تعد تكراراً ، يجَعَلَنا ندعى أن هذه قصة وتلك قصة ، وأن هذه وتلك تخالف الواقع ، فكل قصة ثابتة في مكانها متناسبة مع جيرانها ، مؤتلفة مع الغرض الذي سيقت من أجله السورة .

ثم هي في كل موضع من القرآن تعطينا صورة واضحة كاملة تامة لا تنافى فيها ولا تباين ، فقصة مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلام - ذكرت عدة مرات ، وكل ما ذكرت - مع اختلاف الزمان والمكان في النزول ، ومع اختلاف في الترتيب في المصحف - كل هذا يكون وحدة موضوعية لقصة كاملة تامة غير متباينة [٢]

وليس في استطاعة بشر أن يحكيها بعبارات مختلفة بمثل هذا التحديد للمعاني مع سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرهما من أنواع الاختلاف ، وإن كتب في ذلك كتابة ، أو قابل بعضه ببعض منقحاً له ومصححاً ، فكيف إذا كان يرتجل الكلام ارتجالاً في أوقات مختلفة [٣]

ونقول لمن يدعى أن في الْقصَص القرآني أسَاطِير اعمد إلى هذه القصة التي نتحدث عنها - وهى قصة مُوسَى - في إحدى السور وحصل معناها في نفسك ، ثم حاول أن تجيء بكلام أدبي وألفاظ من تعبيرك ، فسوف تجد

---

1 – القرآن العظيم / مُحَمَّد الصادق عرجون صـــ ١٦٠ ط/ دار الاتحاد العربي للطباعة ١٩٦٦

2 – الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم صـــ ٦٤ ، ٦٥

3 – المنار جــ٩ صـــ ٧٣ .

نفسك غير مستطيع ، لأنك إما أن لا تؤديها على وجهها ، فتأتى بأشياء تضحكنا منك ، وإما أن تعيد نفس الألفاظ لا ثالث .

ومن هنا ندرك أن من صور الإعجاز أن يعاد الموضوع الواحد مكرراً بأساليب مختلفة في الطول والقصر ، و الإجمال والبيان مع المحافظة على جوهره ولبه ، فلو ذكر قصة في موضوع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) أنى تأتون أنتم بسورة مثله ؟ فأنزلها الله سبحانه و تعالى في سوره دفعا لحجتهم من كل وجه [١]

وأتى لهم بقصة يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ مرة واحدة ولم يكررها تاركا لهم المجال ليأتوا بمثلها ، حتى لا يقولوا أغلق علينا المجال ، أليس هم الذين يقولون[قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ]

فالْقَصَص القرآني ليس إلا القرآن في صدقه المطلق ، في كل لمحة من لمحاته وفى كل إشارة من إشاراته .

وفى مستهل سورة يُوسُفَ وصف الله تعالى قصص القرآن الكريم بأنه أحسن الْقَصَص. [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ]

إن من أهدافه أنه جَاءَ يقص على بنى إسرائيل ، ليبين لهم أكثر الذي هم فيه يختلفون بسبب تحريفهم للتوراة على ما قضت به أهواؤهم ، مثل صناعة العجل بيد السامري ، وإيمان السَّحَرَة وسجودهم لله رب العالمين، ذلك المشهد الرائع الذي يهز النفس وجداً ومع ذلك أغفله الكتاب المقدس ، وكأن اليهود كرهوا أن يؤمن علماء مصر بالله الواحد ، بينما يؤمنون هم بالعجل ، فحرفوا الأولى بالحذف والثانية بنسبة ذلك إلى هارون عَلَيْهِ السَّلامُ.

وتحس طيلة الوقت وأنت تقرأ صُّحُفهم المحرفة أنك أمام عقل بشرى ملوث ومغرض ، عقل يكذب عمداً على الله وأنبيائه لأغراض نجهلها الآن ، وإن كانت لليهود أيامها مصالح ظاهرة في ذلك.

---

[1] -الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم صـــ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

فإذا غادرت صحف اليهود إلى صحف النصارى وأوراقهم وجدت لديهم اتجاهاً عكسياً يكاد يكون رد فعل للاتجاه الأول ، إنهم يكرمون نبيهم عيسى إلى الحد الذي يدعون ألوهيته.

ولقد ضاع حجم الأنبياء الحقيقي بين التصغير والتكبير ، ولولا القرآن ما عرفنا حقيقة الأنبياء)[1] على وجهها الصحيح.

والهداية التي وعد الله بها أبناء آدم ليست هي القرآن فحسب، وإنما كل صحيفة وكل كتابٍ نزل من السماء إلى الأرض، وعلى ذلك فهي الصُّحُف الأولى التي أنزلها الله على إبراهيم ومُوسَى ، وهى التوراة التي جَاءَ بها مُوسَى رسولاً إلى بنى إسرائيل ، وهى أيضاً الزبور الذي أنزل على داود وهى الإنجيل الذي جَاءَ به عيسى، ثم هي أخيراً القرآن الذي جَاءَ به مُحَمَّد رسولاً إلى جميع بنى آدم ، إنها باختصار كل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى مُوسَى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، إنها كل كلمة نزلت من السماء إلى الأرض

رابعاً : الاستقراء

يوهمنا الباحث أن منهجه في بحثه إنما هو الاستقراء ، فمنهجه على هذا الوهم علمي ، والاستقراء في ظنه هو الذي أوصله إلى ما وصل إليه ، والباحثون من قبله لم يصلوا إلى هذه النتيجة لأنهم لم يستخدموا المنهج العلمي الذي سار عَلَيْهِ

ومن ظواهر الاستقراء التي تشير إلى وجود الحرية الفنية في الْقصَص القرآني - كما زعم - أن القرآن يهمل التاريخ، ويختار بعض الأحداث دون البعض، ويسند بعض الأحداث لأشخاص في موطن ولغيرهم في موطن، وينطق الشخص الواحد بعبارات مختلفة ، تلك هي الظواهر التي استند عليها في دعواه بالأساطير في القرآن الكريم

فمن هذه الظواهر التي تتبعها وخرج منها بهذه النتيجة إهمال القرآن حين يقص لمقومات التاريخ من زمان ومكان ، فهل يا صاحب الاستقراء إهمال اسم المكان والزمان يدل على أن القصة القرآنية من وحي الأساطير

[1] – أنبياء الله أحمد بهجت صـــ ٢٢ .

، وهل ذكر المكان والزمان هو الذي ينقل القصة من الأسطورة إلى الواقع، ألا يعرف أن كثيراً من الْقصَص الأسطوري يذكر الزمان والمكان ، فهل يعتبر واقعياً.؟

وهل اختياره لبعض الأحداث دون بعض يدل على أنه قصص أسطوري أي أنه لمجرد أن يحكى القرآن مشهد دون مشهد وحدث دون حدث لمجرد ذلك يصبح في نظر أصحاب الاستقراء قصص أسطوري.

وأما أن الْقصَص القرآني لا يهتم بالزمان والمكان ، فتلك معلومة لقنها له أساتذته الذين لم يفوقونه علماً كما لم يفوقهم جهلاً ، لأن القرآن الكريم لا يذكر اسم المكان إلا لفائدة ، ولا يهتم بالترتيب الزماني إلا إذا كان لهدف، وأما إذا لم تكن فائدة من وراء ذلك ، فإن القرآن لا يضيع طاقات البشر في أمورٍ تافهة لا قيمة لها.

ومن أمثلة ذلك سورة الأعراف عطفت قصة مُوسَى على الْقصَص السابقة عَلَيْها بحرف العطف (ثم) وهذا يفيد الترتيب ، ويتأكد لنا أن هذا الترتيب زماني بقوله (من بعدهم) فدلت على أن الأنبياء السابقين جميعاً بعثوا قبل موسى عليه السلام.

وأما سورة طه فقد ذكرت قصة مُوسَى قبل قصة آدم لأغرضٍ تتعلق بالوحي والرسالة، ثم جَاءَت بقصة آدم في آخر السورة ، ولذا قالت (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل) ولما قدمت السورة قصة مُوسَى على قصة آدم لأغراض تتعلق بالحديث عن الوحي قدمت موقف المناجاة على مشهد الولادة. وهكذا في كل سور القرآن الأمر الذي يجَعَلَنا نعتقد أن القرآن يهتم بالترتيب الزماني، ولكنه ليس الهدف مجرد سرد التاريخ بعيدا عن أوجه الحكمة.

ومن الظواهر أيضاً إسناده لبعض الأحداث في موطن لأناس ولغيرهم في موطن آخر، وهو يستشهد على ذلك بوصف موسى بالساحر ، حيث نسب القرآن الكريم هذا القول إلى فرعون مرة وإلى ملئه أخرى ، ولم يخطر بباله إمكانية أن يردد الملأ ما قاله كبيرهم.

خامساً : الرد على زعمه أن القرآن يقر أن فيه أسَاطِير

يستدل الكاتب على مذهبه في القَصَص القرآني بأن القرآن نفسه لم ينف أن به أسَاطِير ، والمرة الوحيدة التي يعرض فيها القرآن للرد على كفار مكة هي قوله تعالى: (وقالوا أسَاطِير الأولين اكتتبها)

وهو يتساءل ، هل هذا الرد ينفى ورود الأساطير في القرآن ؟

ثم يجيب بالنفي ، فهذا الرد لم يفهم منه أنه ينفى الأساطير في القرآن الكريم.

إن هذا الفهم أقل ما يوصف به ، هو أنه فهم سطحي ، وجهل فاضح ، إذ لو كان المراد ما يزعمه لكان يكفى في الرد أن يقول القرآن - ولله المثل الأعلى - (قل أنزله الله أو أنزله ربى أو نحو ذلك)

إن قول الكفار عن القرآن أن به أسَاطِير الأولين لا يختلف في مضمونه عن قولهم له بأنه سحر أو إفك افتراه

وبناء على هذا يتضح لنا أمران:

- أن دعوى الكفار هذه ليست خاصة بالقَصَص ، وإنما هي شاملة للقرآن كله بما فيه القَصَص.

- وتبعاً لذلك فإن الرد على هذه الدعوى في أي موضع من القرآن هو رد شامل على كل صيغة عرضت بها دعوى الكفار.[1] ضد القرآن

وقد رد القرآن الكريم على مثل هذه الدعاوى ، بالحجة وبصورة لا يستطيع إنكارها إلا معاند. فليست آية الفرقان التي استشهد بها هي الوحيدة التي يرد فيها القرآن على كفار مكة في ادعائهم بالأساطير في القرآن، ففي سورة الأنعام نقرأ :

[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

---

[1] – الإنسان في القرآن الكريم د / صلاح عبد العليم جـ١ صـ ٣٠٤، ٣٠٥ .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ] [1]

لقد أبانت هذه الآية بعض صفات الذين يقولون بالأساطير في القرآن الكريم، أي بعض صفات أمثال الدكتور خلف الله وهى :

- على قلوبهم أكنة ، أي أغطية فلا يفهمون القرآن .

- في آذانهم وقر. أي صمم

- هم معاندون ، إن يروا كل آية لا يؤمنون بها .

- يجادلون في آيات الله .

- تسجل الآية الكفر عَلَيْهِم [يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ]

- ينهون عنه أي ينهون الناس عن الإيمان بالقرآن.

- وينأون عنه أي يبتعدون عنه .

هذا هو موضع واحد من عدة مواضع رد فيها القرآن على القائلين بالأساطير، غفل عنه صاحب الاستقراء.

سادسا : الرد على زعمه بأن الْقَصَص القرآني مخالف لوقائع التاريخ

مخطئون أولئك الذين يدرسون القصة القرآنية كما يدرسون القصة البشرية، ومخطئون أولئك الذين يفتشون عن المصادر التي استقى منها القرآن أخباره وقصصه، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، وما ذكر الأنبياء وبعض حوادثهم إلا للعبرة والمَوْعِظَة، وتغذية النفوس بالصلاح والاستقامة ، وتحصين الأخلاق والآداب بسياج الفضيلة ، ولهذا فقد أعرض عن وقائع تاريخية لا تفيد عظة ولا تقدم فائدة .

ويبدو لنا أن أولئك النفر الذين يحاسبون القرآن على قصصه الخارج على حدود ما رسموه من فن ، ويسألون عن مصادره ، يعتقدون أن مُحَمَّداً هو الذي أنشأ القرآن وهو الذي افتراه ، وليس منزلا من عند الله ولا وحياً أوحى إِلَيْهِ ، فهم في مناقشتهم وأحابيلهم يتسلحون ظاهراً بالفنية

[1] – الأنعام آيات ٢٥ – ٢٧ .

والموضوعية والعلمية ، ويبطنون عداوة شنعاء للقرآن ومن أنزله قد يقولون :

إن كثيراً مما ورد من قصص الأنبياء في القرآن قد ورد في الكتب الأخرى ، فما بال هذه الفروق بين هذه الكتب في هذه الْقصَص ؟

ونجيب بأن وجود قصص القرآن في كتب أخرى لا يضعف حجته ، بل هو من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه يستدل بذلك على كونه من عند الله)[1]. فكل ما جَاءَ به القرآن حق ، قصصاً كان أو غير قصص ، في دلالته أو في حوادثه.

ولو كان حجاب الجهل لا يخيم على عقول المستنيرين الذين يشككون في صحة أحداث القرآن تاريخيا لفكروا : هل لديهم دليل تاريخي واحد يؤكد أنه لم يكن في الدنيا قط شخص آخر باسم هامان قبل أمير حشارشيا ؟

لقد انخدع د/ خَلَفَ الله ببحوث المستشرقين ، واستولى عَلَيْهِ وهمهم ، فزعم أن الْقصَص القرآني عَمَل فني وأدبي خاضع للوهم والخيال ، واعتبر مطاعن المستشرقين حقيقية رغم أنه نقل صدورها عن اليهود والملاحدة ، فبعد أن نقل شبهاتهم حول هامان ، ومريم ، راح يقول

(وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم الْقصَص القرآني على أساس من التاريخ ، ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس، وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي لأغلقوا هذا الباب الذي جَاءَت منه الريح)

وأقول له إن المسلمين على حق في فهمهم للقرآن على أساس التاريخ ، فلا يمكن لهم أن يعرضوا عن هذا الأساس وهو من وجوه الإعجاز سعيا وراء الفهم الأدبي الذي يسوى بين قرآنهم وبين قصة (قلوب سعيدة)

---

[1] – التعبير الفني في القرآن د/ بكرى شيخ أمين صـ ٢١٦ ، ٢١٧ ط/ أولى دار الشروق ١٩٧٣ م

وأما أهـل الكتاب فليس أمـاهم إلا هذا السبيل ، فكتـابهم المقدس مـدنس بالأخطاء التـاريخية ، ولكنـهم بكل أسف بعد أن يسـدوا البـاب الـذي جَـاءَهم منه الريح لــن يجدوا في كتابهم وجوهاً أدبية .

والمعروف أنـه قد لجـأ كثيـرون مـنـهم إلـى ذلـك بالنسبة إلـى نصوصـهم المقدسـة ، لمـا أثبـت العلـم والبحـث بطـلان هـذه النصـوص فجَـاءَ بعـض المفتونين ممن نشئوا فـي الإسلام يقلدونـهم بالنسبة إلـى القصَص القرآنـي من غير داع .

يقـول جيـب: (ويتطلـب منـا ذلـك المفهـوم إذا أردنـا أن نفهـم حقيقـة نظـام فكرى ما أن نضعه تاريخياً بالنسبة لما سبقه من أحداث، وأن نعتبره مرحلة من مراحل التطور التدريجي المستمر .

وهكذا فإن العلماء المعاصرين يعتبرون أن الكتب المقدسة تعكس في عدد كبير من النقاط تفكير زمنـها الخاص فيما ينفرد به بالنسبة للتفكير المعاصر .

إن مجرد إشارة التوراة إلـى بعض الأحداث لا يضمن صحتها أو قيمتها الدينية)[١]

إن جيـب يطبـق مفهـوم التطـور التـاريخي علـى كتابـه المقـدس ، ومجـرد إشارة التوراة إلى بعض الأحداث لا يضمن صحتها في نظره

ونحن ننفي هذا فيما يتعلق بقرآننا لأنه لم تتدخل فيه يد البشر بـالتحريف ، وليس ثمرة جهود بشرية على مر العصور ، وإنما هو تنزيل ممن خلـق الأرض والسماوات العلا وبالتالي فهو لا يجهل الحقائق الماضية حتى يعطى قضايا متضاربة، تجَعَلنا نخجل أن ننسبها إلى الله وننسبها إلى الأساطير

ونتساءل على أي أساس حكم دكتور خلف الله بعدم دقة القرآن في روايـة أحداث التاريخ.؟ هل على أساس هذه القاعدة التي وضعها جب أم بنـاء علـى أراء رجال اللاهوت في الغرب.؟

---

1 – الاتجاهات الحديثة في الإسلام هـــ ٠ أ ٠ جيب صـــ ٧٤ ٠

ورجال اللاهوت لم يجمعوا على أن سفر استير الذي ورد فيه اسم هامان وزيراً في بلاد فارس وحياً إلهيا ، ومنهم من يرى أن سبع إصحاحات من أصل عشرة هي مجموع إصحاحات السفر ليست من وحي الله ، وهو السفر الوحيد الذي لم تذكر فيه كلمة (الله) مرة واحدة

وفي كتاب (المرشد إلى الكتاب المقدس) حديث عن الأسفار غير القانوينة من العهد القديم، ومما جاء فيه عن النسخة اليونانية .

(تشمل النسخة اليونانية أسفار العهد القديم وأسفار الأبوكريفا ، وأسفار الأبوكريفا هذه لم يكن لها وجود في كتاب العهد القديم العبري ، وهى ازدراس الأول . ازدراس الثاني ، طوبيا ، يهوديت ، الإصحاحات السبعة المضافة إلى سفر استير ، حكمة سليمان ، حكمة يشوع بن سيراح ، سفر باروخ ، نشيد الفتيان الثلاثة الأطهار ، تاريخ سوسنة ، تاريخ بعل والتنين ، صلاة منسي ، سفر المكابيين الأول ، وسفر المكابيين الثاني ..

وكان أول من فرق بين الأسفار القانونية ، والأسفار الكنسية هو القديس إيرونيموس المتوفى ٤٢٠ ميلادية ، فقد أطلق على الأسفار الموجودة في الأصل العبري اسم الأسفار القانونية ، وعلى الأسفار الأخرى اسم (أبوكريفا) مع أنه لم يكن في هذه الأسفار أي سر من الأسرار ، وبالرغم من معارضة إيرونيموس فقد قبلت الكنيسة الرومانية أسفار الأبوكريفا مقتدية بذلك بالقديس أوغسطينوس والكنيسة الإفريقية .

غير أن البروتستانت أخذوا برأيه فيما بعد فاعتبروا هذه الأسفار غير قانونية ، فقد قال لوثر في ترجمته لأسفار الأبوكريفا : إن هذه الأسفار يجب ألاَّ يكون لها ما للأسفار المقدسة من اعتبار ، وإن كانت صالحة ومفيدة).

والمتعمق في درس هذه الأسفار يجد أنها وضعت في عصر من عصور الانحطاط التي تلت زمن النبوءات والأنبياء ، ومنذ سنة ١٦٢٩ ، بدأت الترجمات الإنجليزية تهمل أسفار الأبوكريفا ، ومنذ سنة ١٨٢٧ بدأت

جمعيـة الكتـاب المقـدس تسـقط أسـفار الأبوكريفـا مـن طبعاتهـا للكتـاب المقدس) أ . هـ [١]

وعلى هذا يتحدى العالم المصري المسلم الدكتور خلف الله القرآن الكريم بمعلومات مستقاة من سفر استير الذي لا يدرى من كتبه ولا أين كتبه ، ولا يقر به المبشرون وحياً إلهياً .. كل هذا من أجل عيون المبشرين .. وليس من أجل البحث عن الحقيقة التاريخية بكل يقين .

ولكون أساتذة الجامعة التي منحت خلف الله (الدكتوراه) أميين خدعهم الطالب بعبارة : أطبق الباحثون عن تاريخ بنى إسرائيل وفِرْعَوْن على أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان مُوسَى وفِرْعَوْن، وإنما جَاءَ بعدهما بزمن مديد ودهر داهر. كيف نخطئ القرآن على معلومات واردة إلينا عن طريق هذا السفر المشكوك في صحة نسبته إلى وحي السماء ؟ بل هو بالقطع قصة تاريخية حدثت لامرأة من بنى إسرائيل في فترة الأسر البابلي ، وأراد الرواة أن يحكوها فيما بعد فخلطوا بين وزير فارسي (أصبح مجهولاً الاسم) وبين الوزير المصري (هامان) فكلاهما كان قاسياً على بنى إسرائيل ، ومما ساعد على هذا الخلط أن القصة نقلت بعد العودة من الأسر مشافهة عن طريق أناس غير معصومين !

فكيف يزعم الدكتور خلف أن القرآن هو الذي جَاءَ به إلى مصر وجَعَلَه وزيراً لفِرْعَوْن ، وأن هامان لم يكن موجوداً أصلاً في مصر . ولمصلحة من يكون هذا الزعم الفاسد !

وإني - بعون الله- سأبين الآن مدى الدقة القرآنية في رواية التاريخ ، فيما يتعلق بتسمية فِرْعَوْن ، فقد أثبت علم الآثار أن تسمية حاكم مصر ، قديماً باسم فِرْعَوْن لم تكن شائعة ولا معروفة قبل الأسرة الثامنة عشر التي بعث فيها مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلامُ - يقول جون ولسون: (لقد ارتكبنا بعض الخطأ الزمني في استعمال كلمة فِرْعَوْن قاصدين بذلك ملك مصر قبل الأسرة الثامنة عشر ، ففي اللغة المصرية القديمة تعنى كلمة فِرْعَوْن

---

[1] – المرشد إلى الكتاب المقدس تأليف القس سيكل سيل ومجموعة من علماء اللاهوت جـ١ صـ ٢٩ ، ٣٠ صدر عن مكتبة المشعل الإنجيلية بيروت سنة ١٩٥٨م

(البيت العظيم) وكانوا يشيرون بها في الأصل إلى القصر ، وليس إلى ساكنه ، ولم يصبح هذا الدوران في المعنى تعبيراً محترماً يقصدون به الملك نفسه إلا في الأسرة الثامنة عشر)[1]

ويقول ول ديورانت : (وتمثل بعض النقوش القديمة (البيت الأعظم) الذي كان المصريون يطلقون عَلَيْهِ لفظ (بيرو) والذي ترجمه اليهود إلى فرعوه ، واشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه)[2]

فكلمة فِرْعَوْن كلقب لحاكم مصر لم تكن موجودة قبل الأسرة الثامنة عشر، وهذا ما يشهد به القرآن ، وجَاءَ به قبل علم الآثار ليصحح أخطاءً لا يزال يقع فيها جهلة المثقفين إلى عصرنا هذا .

وقد وقع فيها أيضا الكتاب المقدس عندما تحدث عن حاكم مصر في عهد إبراهيم ويُوسُف عَلَيْهما السَّلامُ.[3] ولكن القرآن الكريم الذي يتطاولون عَلَيْهِ لم يقع في هذا الخلط التاريخي ، فعندما يتحدث عن قصة مُوسَى نراه لا يستعمل سوى كلمة (فِرْعَوْن) للدلالة على حاكم مصر ، وأما فيما قبل مُوسَى فلم يستعمَل القرآن هذا اللقب للدلالة على حاكم مصر ، وأمامنا الآن قصة يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلامُ - الذي يرى قداسة المستغرب أن بها سذاجة تناسب البدوي ، لقد عاش يوسف ، وأصبح وزيراً في مصر ، ولم يطلق القرآن الكريم لقب (فِرْعَوْن) على حاكم مصر في عهده ولا مرة واحدة ، قال تعالى : [وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يا أيها الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ] يُوسُفُ (٤٣)

[وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ] يُوسُفُ (٥٠)

[وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ] يُوسُفُ (٥٤)

---

[1] – الحضارة المصرية صـ١٨٣

[2] – قصة الحضارة جـ٢ صـ ٩٣.

[3] –انظر على سبيل المثال تكوين ١٢(٥-١٦)، ٤٧(١-١٠) .

[قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ] يُوسُفُ (٧٢)

[مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ] يُوسُفُ (٧٦)

فهذه خمس آيات تشهد بعظمة القرآن التاريخية ، ولو كان من عند بشر لقال بما قال به الكتاب المقدس ، ولكنه من عند الله الذي يعلم السر وأخفى.

وبعد .. فهذا هو أحد نماذج المستغربين ، وما أكثرهم في بلادنا ، وقد أثرنا أن نرد عليه، بعد ما يزيد على خمسين عاماً ، لأنه فيما يبدو رحل عن عالمنا دون أن يندم على ما فعل ، وهو إلى الآن يعتبره رجال التنوير بطلاً تنويرياً . ويتلمسون الهداية في آثاره وأفكاره. وقد هدمنا أفكاره وكشفنا لك عن مصادرها الحقيقية .

- مبشرون يتحدون القرآن على شبكة الانترنت

قام جماعة من المبشرين يتحدون القرآن الكريم على شبكة الانترنت ، وفى البداية كتبوا هذه الآية الكريمة [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] البقرة (٢٣) ثم أعلنوا أنهم قضوا على هذا التحدي ، وأنهم قد جاءوا بأربع سور وليس بسورة واحدة ، وهذه السور هي : سورة الإيمان وسورة التجسد ، وسورة المسلمون وسورة الوصايا، وفى البداية ثار جدل كبير بين المتحمسين من المسلمين ضد هذا الخبر ، والكثيرون لم يقرؤوا ما جاء به المبشرون . وقليلون من هذا الكثير لم يقرؤوا القرآن الكريم .

وإذا كنا نرفض للمؤمنين بالمسيحية التعصب لها دون أن يفهموا ، فإن ما نرفضه للمسيحيين نرفضه أيضاً للمسلمين ، ولهذا أنقل هذه السور المزعومة ، ثم على القارئ بعد ذلك أن يقارن بينها وبين القرآن الكريم ، ثم يختار أيهما شاء .

سورة الإيمان : **وإذكر في الكتاب الحواريين إذ عصفت الرياح بهم ليلاً وهم يبحرون (١) إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشى ، فقالوا : أهو ربنا يهزأ بنا أم قد مسنا ضرب من جنون (٢) فجاءهم صوت المعلم أن لا تخافوا إني أنا هو أفلا تبصرون (٣) فهتف هاتف منهم يقول ربى مرني إن كنت حقاً هو آتى على المياه إليك ، عسى أن يبدل الله شكي بيقين (٤) قال : فاسع إلى ولتكن للناس آية لعلهم يتذكرون (٥) وإذ طفق الحواري يمشى رأى شدة الريح فخاف وبدأ يغرق فصاح بربه يستعين (٦) فمد بيمينه له فأخذه وقال : يا قليل الإيمان هذا جزاء الممترين (٧) وإذ ركب السفينة معه سكنت الرياح لتوها فسبح الحواريون بحمده، وهتفوا له قائلين (٨) أنت هو ابن الله حقاً ، بك نحن آمنا ، وأمامك نخر ساجدين (٩) قال طوبى للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشك ، فأولئك هم المفلحون (١٠)**

٢- سورة التجسد : **سبحان الذي خلق السموات فلم يجعل لها حداً (١) وخلق الأرض وكورها وجعلها ماءً وجلداً (٢) قل للذين خُدعوا بدعوة الشيطان عميت بصائركم فافتريتم على الله كذبا ، وكنتم للشيطان سنداً (٣) إن الشيطان كان للإنسان عدواً ألدا (٤) لو شاء ربك لاتخذ من الحجارة أولاداً له إذ هو الذي قال للكون كن فكان ، وسبحانه أن يستشير في أمره أحداً (٥) سبحانه رب العالمين أن يتخذ من خلائقه ولداً (٦) قل للذين يمترون فيما أنزل من قبل ليس المسيح خليقة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً (٧) فيه ومنه كان مع روح قدسه إلهاً سرمدياً واحداً أحداً (٨) وإذ بعث به الآب للعالمين كما وعد (٩) حل في بطن عذراء كلمة ، وخرج منه جسداً (١٠) عاشر الإنسان ، علم الإنسان ، مات عن الإنسان فدى ، وكالإنسان رقد (١١) وإلى أبيه السماوي بعد ثلاثة أيام صعد (١٢) إن الذين كفروا بآياته وقالوا قولاً إداً (١٣) لن يجعل الله لهم من أمده بداً (١٤) أما الذين آمنوا بالله ومسيحه فلهم مغفرة وجنات نعيم خالدين فيها أبداً (١٥)**

٣- سورة المسلمون : **الصم (١) قل يا أيها المسلمون إنكم لفي ضلال بعيد (٢) إن الذين كفروا بالله ومسيحه لهم في الآخرة نار جهنم وعذاب شديد (٣) وجوه يومئذ صاغرة مكفهرة تلتمس عفو الله والله يفعل ما يريد**

(٤) يوم يقول الرحمن يا عبادي قد أنعمت على الذين من قبلكم بالهدى منزلاً في التوراة والإنجيل (٥) فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلت وتضلوا سوء السبيل (٦) قالوا : ربنا ما ضللنا أنفسنا بل أضلنا من ادعى أنه من المرسلين (٧) وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم من الكافرين (٨) قال ربى إنما أغواني الشيطان إنه كان لبنى آدم أعظم المفسدين (٩) ويغفر الله للذين تابوا ممن أغواهم الإنسان ويبعث بالذي كان للشيطان نصيراً إلى جهنم وبئس المصير (١٠) وإن قضى الله أمراً فإنه أعلم بما قضى وهو على كل شيء قدير (١١)

٤- سورة الوصايا : **المذ (١) إنا أرسلناك للعالمين مبشراً ونذيراً (٢) تقضى بما يخطر بفكرك وتدبر الأمور تدبيراً (٣) فمن عمل بما رأيت فلنفسه ، ومن لم يعمل فلسوف يلقى على يديك جزاءً مريراً (٤) إنا أعطينا موسى من قبلك من الوصيات عشرة ، ونعطيك عشرات أخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء ، وجعلناك عليهم أميراً (٥) فانسخ ما لك أن تنسخ مما أمرناهم به فقد سمحنا لك أن تجرى على قراراتنا تغييراً (٦) قل لعبادي الذين آمنوا أن تثاءبوا يستعيذوا بالرحمن أن لا يضحك منهم الشيطان ، وليكبروا الله إن عطسوا تكبيراً (٧) وأن لا يقتنوا في بيوتهم كلباً ولا يضعوا على حيطانهم تصويراً (٨) وإذا أرادوا انتعالاً فليبدءوا باليمين قبل الشمال ، وإن لم يفعلوا فقد اقترفوا ذنباً كبيراً (٩) وإن تبرزوا فليمسحوا مؤخراتهم بحجار ثلاثة ، وينتهوا عن الروث إذ قد جعلناه للجن غذاءً ، وعلى المؤمنين أمراً محظوراً (١٠) قل لعبادي الذين آمنوا يغزوا من أرادوا ويقتلوا من أجل رزقهم ، ومن لم يغز منهم أو لم يحدث نفسه بغزو مات منافقاً منكوراً (١١) وللذين يخشون سحراً يأكلوا سبع عجوات ينجيهم الله من السحر ويبعد عنهم شراً مستطيراً (١٢) قل لعبادي إن أرادوا أن يحلفوا فليحلفوا بالله ، ولا يخافوا تبذيراً (١٣) وأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، أو ما ملكت أيمانهم أنا جعلنا لهم الدين أمراً يسيراً (١٤) وإذا فرغت من بين يديك الوصايا فاطلب إليك جبريل يأتيك ساعياً مأموراً (١٥) وإن شغل جبريل عنك فعليك بورقة بن نوفل واستفد منه قبل أن نتوفاه ، فيصبح الوحي عليك أمراً عسيراً (١٦)**

ماذا نقول .؟..

لقد ثارت ضجة كبيرة في العالم الإسلامي بعد أن كتب المبشرون ما كتبوا، واستنكر علماء المسلمين ما فعله المبشرون، وكنت في نفسي على خلاف ما يظنون :

لقد حمدت الله أن المبشرين تحدوا القرآن ، فالقرآن هو الذي طالبهم بذلك، وأخبر أنهم لن يستطيعوا ، ومادام الأمر كذلك فهم الأخسرون أعمالاً وأقوالاً .

قال تعالى : [قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]

وتحدى الإنس تحدٍ لجميع الأمم، وليس العرب وحدهم ، فليست العربية إذن هي المعجزة ، بل المعجزة هي في بلوغ العربية حد الكمال في القرآن الكريم ، ولذا فالتحدي يمتد أمام المبشرين وغير المبشرين ليأت من استطاع منهم بكلام مثل القرآن في أي لغة من لغات العالم، بحيث يستحيل على المتحدثين بلغته أن يأتوا بمثل كلامه.

فهل إذا قام المبشرون يحاولون أن يأتوا بكلام مثل القرآن نقف في وجوههم ، أم ينبغي أن نقر لهم بالفضل لأنهم نجحوا - إن تم لهم ذلك - في صنع قرآن مثل قرآن محمد ؟ فهل يتحدى القرآن الكريم الكافرين، ونحزن عندما يقبلون هذا التحدي ؟

لكن الغريب في الأمر أن نبصر قوى الاستنارة وهى تقف لأول مرة بجوار القرآن معلنة الحزن العميق على ما أصابه من قبل المبشرين ، ومجلة مثل روز اليوسف التي كانت تنشر مقالات لسلمان رشدي ، ومقالات تدافع فيها عن إبليس ، هبت للدفاع عن القرآن، والحق أن كلمات الشماتة كانت ظاهرة في عبارتها، فجاء أحد العناوين: أنقذوا القرآن من على شبكة الإنترنت !!

وفي خطوة حسبت على أنها لون من المجاملة استجاب الرئيس الأمريكي لمشاعر المسلمين وأعلن إغلاق مركز http://members aol com/ suralikeit ..htm الذي جاءت منه هذه السور .

وليته لم يفعل ، وليت حزب الاستنارة يحاول أن يصنع صنيع المبشرين ، فيحاول أن يأتي بكلام يتحدى به القرآن ، ذلك خير عندنا من قولهم : إن القرآن غير دقيق في رواية الأحداث التاريخية ، وأنه لم يعد يصلح للتطبيق في هذا العصر وغير ذلك من افتراءات نقوم نحن بالرد عليها ، وأما الذي يحاول أن يتحدى القرآن، فإننا نتركه للقرآن يرد عليه.

إن ما فعله المبشرون لم يجعل أحداً يكفر بالقرآن، ويكفى المسلم أو غير المسلم أن يفتح المصحف ليقارن بين أي سورة من سور القرآن الكريم ، وبين ما جاء به هؤلاء المبشرون .

وفى النهاية أقول **!**

إنني إذا كنت أمتلك عشر لعنات الآن ، فاسمح لي أيها القارئ أن أرسل بتسع منها ، إلى المنافقين والعلمانيين من قوى الاستنارة.

واسمح لي أن أرسل باللعنة الباقية للمبشرين والمستشرقين ؟ وإلا فلنمدحهم لأنهم استعانوا بتعبيرات القرآن وبأفكار الإنجيل ، استجابة لداعي التحدي .

لقد أثبتوا بجهلهم علم الله تعالى ، وبعجزهم طلاقة القدرة الإلهية .

فالقرآن كما هو في عليائه ، يطل على الجميع من سمائه ، وستظل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلي والله عزيز حكيم !

أهم المـراجع

١. أثـر الـدعوة الإسـلامية علـى حركـة الإصـلاح الكنسـي رسـالة ماجستير للمؤلف (غير منشورة)

٢. أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي د/ على جريشة ومحمد الزيبق دار الاعتصام.

٣. أوربا والتخلف في أفريقيا تـأليف د / ولتر رودنى ترجمة د / أحمد القصير سلسلة عالم المعرفة

٤. الاتجاهات الحديثة في الإسلام هـ ٠ أ جيب تعريب جماعة من الأساتذة الجامعيين ط المكتب التجاري بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٦ م ٠

٥. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د / محمود زقزوق دار المنار ١٩٨٩م

٦. الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم الدكتور / محمد ضياء الدين الريس ط / دار الجيل

٧. الإسلام وأصول الحكم) د / جابر عصفور (المقدمة) سلسلة التنوير مطابع الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣م

٨. (الإسلام وأصول الحكم في الميزان) د / محمد رجب البيومى نشر / مجلة الأزهر عدد صفر ١٤١٤هـ

٩. (الإسلام وأصول الحكم في الميزان) - د / محمد رجب البيومى نشر / مجلة الأزهر عدد صفر ١٤١٤هـ

١٠. الإسلام والمسيحية تأليف أليكسي جورافسكي ترجمة خلف الجراد ط/ عالم المعرفة ١٣٢.

١١. الإسلام في وجه التغريب أنور الجندي دار الاعتصام

١٢. تاريخ الحضارة الإسلامية ف. بارتولد ترجمة حمزة طاهر ط/ دار المعارف.

١٣. تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على د/ جمال الدين الشيال ط/ دار الفكر العربي ١٩٥١م

١٤. تباشير النهضة في العالم الإسلامي د/ محمد ضياء الدين الريس ط / دار الأنصار.

١٥. تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ط / دار المنار

١٦. التبشير والاستعمار مصطفى الخالدى وعمر فروخ ط / ثانية

١٧. التربية في الإسلام د/ أحمد فؤاد الأهوانى. ط/ دار المعارف.

١٨. التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام دكتور / السيد محمد الشاهد ط/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع أولى سنة ١٩٩٤م

١٩. التعبير الفني في القرآن د/ بكرى شيخ أمين أولى دار الشروق ١٩٧٣ م

٢٠. حقوق المرأة حسنى نصار ط/ أولى مطبعة دار نشر الثقافة .

٢١. حضارة عصر النهضة / جيمس وستفال توسون / ترجمة عبد الرحمن زكى.

٢٢. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم ميتز ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط /لجنة التأليف والترجمة والنشر

٢٣. (الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها وأساليبها من خلال سورة طه) رسالة دكتورة للمؤلف . مكتبة أصول الدين القاهرة.

٢٤. الدولة العثمانية د/ عبد العزيز الشناوى ط/ الأنجلو المصرية.

٢٥. رد هيئة كبار العلماء مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٤١٤هـ

٢٦. رفاعة الطهطاوى تأليف جمال الدين الشيال دار إحياء الكتب العربية.

٢٧. ظلام من الغرب / الشيخ محمد الغزالى / دار الكتب الحديثة.

٢٨. عقيدة الصلب والفداء محمد رشيد رضا الفتح للإعلام العربي

٢٩. العرب واليونسكو تأليف د / حسن نافعة سلسلة عالم المعرفة ١٣٥.

٣٠. الغارة على العالم الإسلامي أ . لُ شاتليه لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ، ومساعد اليافي ط / مكتبة أسامه بن زيد بيروت.

٣١. الغزالى البارون كارادوفو / ترجمة عادل زعيتر ط/ عيسى الحلبي .

٣٢. الغزو الفكري د / على عبد الحليم محمود ط/ دار البحوث العلمية أولى سنة ١٩٧٩م

٣٣. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي) د / محمد البهي - الطبعة السادسة

٣٤. الفن القصصي في القرآن الكريم رسالة دكتوراه مُحَمَّد أحمد خَلَفَ الله طبعة ثالثة - الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

٣٥. في الشعر الجاهلي طه حسين الطبعة الأولى ١٩٢٦ مطبعة دار الكتب المصرية

٣٦. قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة زكى نجيب محمود وآخرون ط /لجنة التأليف والترجمة والنشر

٣٧. القرآن العظيم / مُحَمَّد الصادق عرجون ط/ دار الاتحاد العربي للطباعة ١٩٦٦

٣٨. مآثر العرب على الحضارة الأوربية / جلال مظهر الأنجلو المصرية أولى ١٩٦٠م

٣٩. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوي مكتبة السنة

٤٠. مختار الصحاح مادة (بشر)

٤١. معركة التبشير والإسلام د / عبد الجليل شلبى ط / مؤسسة الخليج العربي

٤٢. مسند الشافعي ط/ دار الكتب العلمية بيروت

٤٣. المجددون في الإسلام / عبد المتعال الصعيدي نشر مكتبة الآداب.

٤٤. المرشد إلى الكتاب المقدس تأليف القس سيكل سيل ومجموعة من علماء اللاهوت صدر عن مكتبة المشعل الإنجيلية بيروت سنة ١٩٥٨م

٤٥. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين / محمد عبد الله عنان / ثانية مطبعة مصر ١٩٥٨م

٤٦. هموم المثقفين د / محمد كمال إمام - دار الهداية.